المكتبة الكمالية
(٢٣)

خير الدين الزركلي

ما رأيت وما سمعت

تقديم وتعليق
الملازم
عبد الرزاق كمال
عضو نادي جدة الأدبي
عضو نادي الطائف الأدبي

الناشر
مكتبة المعارف
الطائف ـ شارع الكمال
ت : ٢٢٣١٤ ـ ٢٣٣٩٠

خير الدين الزركلي

١٣١٠ – ١٣٦٩هـ. – ١٨٩٣ – ١٩٧٦م.

ورحلته ـ ومقدمة الرحلة

بقلم عبد الرزاق محمد سعيد حسن كمال عضو النادى الأدبى
بالطائف وعضو نادى جده الأدبى

خير الدين بن محمود بن محمد بن على بن فارس الزركلى (بكسر الزاى والراء م الدمشقى ولد ليلة ٦ ذى الحجة ١٣١٠هـ . (٢٥ يونيه ١٨٩٣م) فى بيروت ، وكان لوالده تجارة فيها ، وأبواه دمشقيان من أسرة سورية الأصل ، وعاش سعودى الجنسية عربى الفكر والقلب ، أعطى القسم الأكبر من حياته لخدمة أمته من خلال العمل الدبلوماسى والمناصب المتعددةالتى أوكلت إليه ، ومن خلال مؤلفاته وأعماله الأدبية، قد لايعرف جيل الشباب اليوم هذا الأديب الشاعر ، والدبلوماسى اللامع ، إذ أنه من رعيل الأدباء الذين ظهروا على مسرح الكلمة إبان الحرب العالمية الأولى .

نشأ بدمشق وتعلم فى إحدى مدارسها الأهلية ، وأخذ عن علمائها على الطريقة القديمة وأولع بكتب الأدب وقال الأبيات من الشعر فى صباه ، وأدى امتحان القسم العلمى فى المدرسة الهاشمية ودرس فيها .

أصدر مجلة (الأصمعى) الأسبوعية فصادرتها الحكومة العثمانية لصورة كتب أنها صورة (الخليفة العربى المأمون) .

وانتقل إلى بيروت فانقطع إلى الكلية العلمانية (لاييك) تلميذاً فى دراساتها الفرنسية ، ثم أستاذاً للتاريخ والأدب العربى فيها ، ثم عاد فى أوائل الحرب العالمية الأولى إلى دمشق وأصدر بها عام ١٩١٨م . جريدة (لسان العرب) يومية ، وبعد أن أقفلت شارك فى إصدار جريدة (المفيد) يومية أيضاً ، وهيأ للطبع مجموعة من شعره سماها (عبث الشباب) فالتهمتها النار

وعلى أثر وقعة (ميسلون) فى صباح اليوم الذى كان الفرنسيون يدخلون به دمشق عام (١٩٢٠ م) غادرها إلى فلسطين ، فمصر فالحجاز وصدر حكم الفرنسيين (غيابياً) بإعدامه وحجز أملاكه .

وفى سنة ١٩٢١ م تجنس بالجنسية العربية فى الحجاز وانتدبه الملك حسين بن على لمساعدة ابنه (الأمير عبد الله) وهو فى طريقه إلى شرقى الأردن ، وعاد إلى مصر فالقدس واصطحب منها إلى السلط فعمان ، جماعة مهد معهم السبيل بدخول (الأمير عبد الله) وأنشأ الحكومة الأولى فى عمان ، وسمى فى تلك الحكومة مفتشاً عاماًللمعارف ، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة (١٩٢١ – ١٩٢٣ م) وفى خلال ذلك أبلغت حكومة (الجمهورية الفرنسية) بيته فى دمشق أنها قررت وقف تنفيذ حكمها عليه ، فكانت فرصة له لزيارة دمشق والعودة منها بعائلته إلى العاصمة الأردنية ، وقصد مصر فأنشأ (المطبعة العربية) فى القاهرة فى أواخر عام (١٩٢٣ م) وطبع فيها بعض كتبه ونشر كتباً أخرى .

وثارت سورية على الاحتلال الفرنسى عام ١٩٢٥م . فأذاع الفرنسيون حكماً ثانياً (غيابياً أيضاً) بإعدامه ، وساءت صحته فى عمله بالمطبعة فباعها عام ١٩٢٧م .

واستجم ثلاث سنوات زار خلالها الحجاز مدعوا بعد أن تسلم ابن سعود مقاليد الحكم فيه ، وأصبح رعاياه متمتعين برعايته ، وذهب إلى القدس عام ١٩٣٠م . فأصدر مع زميليه (جريدة الحياة) يومية وعطلتها الحكومة الانجليزية ، فاتفق مع آخرين على إصدار جريدة يومية أخرى فى (يافا) وأعدوا لها مطبعة وأصدروا العدد الأول منها . وزارالحجاز فاحتفل به الأدباء ، وأقاموا له حفلة تكريم ، وقويت صلته برجال الدولة فعين سنة ١٩٣٤م مستشاراً للوكالة السعودية فى مصر (المفوضية) . ثم انتدب عام ١٩٤٦م . لإدارة وزارة الخارجية فى جدة بالتناوب مع صديقه الشيخ يوسف ياسين وفى سنة ١٩٥١م عين وزيراً مفوضاً ومندوباً لدى الجامعة فشعر بالاستقرار بمصر ، وطبع كتاب (الأعلام (طبعة موسعة ثم فى

سنة ١٩٥٧م . عين سفيراً فى المغرب وبقى هناك حتى سنة ١٩٦٣م . حيث منح إجازة للراحة غير محددة ، فاختار الإقامة فى بيروت وعكف على إنجاز كتاب كان قد بدأ به فى سيرة عاهل الجزيرة الملك عبد العزيز رحمه الله وأعاد طبع كتاب (الأعلام) وأنجز مستدركه الثانى .

وكان المجمع العلمى العربى بدمشق قد ضمه لعضويته عام ١٩٣٠م كما أصبح عضواً لمجمع اللغة العربية بمصر عام ١٩٤٦م . وعضواً بالمجمع العلمى العراقى فى بغداد سنة ١٩٦٠م . وقام برحلات إلى انجلترا عام ١٩٤٦م . ومنها إلى فرنسا ممثلا لحكومته فى اجتماعات المؤتمر الطبى الدولى بباريس ، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧م . بمهمة رسمية غير سياسية أمضى فيها سبعة أشهر بين كليفورنيا وواشنطن ونيويورك وغيرهما ، وحضر فى خلالها بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ، ثم انتقل إلى أثينا عاصمة اليونان عام ١٩٥٤م بصفة (وزير مفوض ومندوب فوق العادة) وفى عام ١٩٥٥ م أصبح مندوباً لحضور مؤتمر إقامة الحزب الدستورى فى تونس ، وعاد منها إلى إيطالياً حيث تيسر له خلال شهرين الطواف فى أهم مكتباتها . وعندما حدثت حرب لبنان لم يغادرها خوفاً على مكتبته التى تحوى نفائس من المخطوطات والكتب المصورة ونوادر المطبوعات مع اشتغاله بتهيئة بعض مؤلفاته للطبع .

كان رحمه الله مصاباً بضعف القلب ، وكان يتردد فى ربيع كل عام إلى (بيدن) قاعدة البلاد السويسرية لمراجعة طبيب يتولى علاجه ، ثم اشتد به المرض فدخل (مستشفى الجامعة الأمريكية) حيث عولج بتقوية حركة القلب بآلة كهربائية (بطارية) ثم أصيب بمرض المثانة ، فعولج فى ذلك المستشفى بطريقة الجراحة (عملية) . وفى دور النقاهة نقل إلى القاهرة ، حيث يقيم ابنه الدكتور غيث وأخواته وأدخل (مستشفى المعادى) ثم نقل بعد ذلك إلى مستشفى الشوربجى حيث توفى هناك رحمه الله .

آثاره

لعل أعظم آثار الأستاذ الزركلى :

١ – كتاب (الأعلام) فقد دأب على جمع مواد هذا الكتاب نحو نصف قرن أو يزيد فصدرت طبعته الأولى فى ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٧م . ثم ما برح يضيف إليه حتى بلغت طبعته الثانية : عشرة أجزاء، وألحق به فى طبعته الثالثة إضافات وتصحيحات .

وشرع فى إعداد الطبعة الرابعة فى إدخال تلك الإضافات فى مواضعها من الكتاب بعد أن كانت فى مستدركين منفصلين . وليضم إليه زيادات كثيرة كان آخرها فى كتاب (الأعلام بمن ليس فى الأعلام) ولكن المرض اشتد به وهو يشتغل بذلك . (١)

ابرز معالم كتاب الأعلام

أولا : كتاب شامل فى التراجم العامة ، ينطوى على طابع موسوعى ، ويترجم للبارزين فى كل علم وفن من شعراء وأدباء ومؤرخين وعلماء وفقهاء ومن زعماء وسياسين وقواد جيوش وملوك ومجاهدين .

ثانيا – ويترجم عن ذلك لأهم المستعربين وسائر المستشرقين ولا سيما من كانت له مشاركة فى علوم العربية وآدابها ، أو عرفوا باهتمامهم بالتراث العربى والحضارة الإسلامية . وهذا فضل لايتوفر بطبيعة الحال فى كتاب سواه فى القديم والحديث .

ثالثا : احتواؤه على تراجم المعاصرين والمتأخرين من الأعلام مما لانقع عليه فى كتاب آخر . على أن المؤلف ، تبعاً للخطة التى وضعها والتزم بها لم يدخل فى كتابه من المعاصرين إلا فى من أدركته الوفاة واستقرت بالتالى ترجمته وهذا مطلب شاق لاتتوفر مادته بالكتب والمصنفات ولولا عزم لايلين لزهدته المثبطات ، وعدل عن كثير مما كان يسعى إلى تحقيقه .

---

(١) حمد الجاسر فى مجلة العرب ج ٧ و ٨ السنة ١١ صفحة ٦٣٠ – ٦٣٧

رابعا : حرص الزركلي (رحمه الله) على أن يتوج تراجمه بكثير من صور الاعلام الذين تعرض لهم وبخاصة المعاصرين . كما حرص على رفد ذلك وإغنائه بإثبات نماذج من خطوط المؤلفين أو مسودات كتاباتهم وصكوكهم كلما وجد إلى ذلك سبيلا . حتى لقد بلغ عدد هذه النماذج (الكليشهات) فى الطبعة الثانية من كتابه البالغة عشرة أجزاء (١٩٣٦) نموذج مصور .

خامساً — إنه دأب فى تاريخ أعلامه على إيراد سنتى المولد والوفاة لكل علم يترجم له ، وعلى اعتماد التقويمين الهجرى والميلادى مما ييسر على الباحث عناء كبيراً فى مقابلة السنين المطلوبة من خلال هذين التقويمين .

سادسا — توخى الزركلي فى تراجمه الإيجاز والتركيز ولم يفسح المجال خلالها لفضول القول ونافل الأخبار ونحو ذلك مما هو معهود لدى القدماء فى كثير من مصنفاتهم . أنه ينفى عن تراجمه كل ما يتصل بأصحابها من أخبار وأشعار وما إلى ذلك . . . والترجمة لديه تعريف مقتضب لا يتجاوز اسطراً قليلة تتضمن فى العادة تاريخ مولد صاحب الترجمة ووفاته بالسنوات الهجرية والميلادية معاً ، ثم اسمه بالكامل وأبرز ما اشتهر به وأهم مصنفاته مع بيان ما كان منها مطبوعاً أو ما كان مخطوطاً أو مفقوداً . وهذا المبدأ الذى توخاه المؤلف فى التزام التركيز ونفى فضول القول عاد بالخير على كتابه ومكنه من استيعاب أكبر عدد ممكن من التراجم خلال هذه العهود المتطاولة فى حياة العرب وامتداد تراثهم .

سابعا — امتاز الاعلام بالحواشي القيمة التى ذيل بها الزركلى تراجمه ، إنها — على إيجازها — بمثابة مفاتيح للباحث الذى ينشر المزيد من التوسع فى المراجع المسهبة ونحوها . وهذه الحواشي المكثفة والتعليقات الموجزة كثيراً ما تضارع فى قيمتها الترجمة نفسها المثبتة فى المتن أو تفوقها (١) .

---

(١) د . عمر الدقاق فى مجلة العربى العدد ٢٢٤ رجب عام ٩٧ هـ . ص ٤٧ — ٤٨ .

منهجه فى الأعلام

لقد رتب خير الدين الزركلى مادته الغزيرة التى امتدت على مدى ما يقارب أربعة عشر قرناً على حروف المعجم مما جعل الإفادة منه يسيرة المنال كما جعل الاسم الأول فى المترجم له هو العمدة . فالمتنبي مثلا يستخرج فى أحمد ابن الحسين . إلا أن الزركلى توخى المزيد من التيسير على الباحث ولو كان ناشئاً قد لايعرف الاسم الأول للعلم ، لكونه مشتهراً بكنيته مثل أبى العلاء أو بلقبه مثل الجاحظ ، فهو حين ينظر فى مادة (أبى العلاء) يعطيه المؤلف اسمه (أحمد) وبذلك يرشده إلى موضع ترجمته من الكتاب ، وكذلك بوسع الباحث أن يطلب (الجاحظ) فى حرف الجيم وعندئذ يحيله المؤلف على موضعه الأصلى وهو حرف العين بعد أن يزوده باسمه وهو (عمرو بن بحر) . وقد ارتأى صاحب الأعلام بحق أن يفضل صدور الأعلام المبدوءة بـ(ابن ، أخو ، أبو) لكثرتها البالغة وبالتالى لصعوبة فرزها وتمايزها . فأبو فراس يستخرج فى باب الفاء ، وابن النديم فى باب النون وهكذا . .

وما فعله صاحب الأعلام — جزاه الله كل خير — أنه ختم أعلامه بأن ترجم لنفسه فى الجزء العاشر أو الأخير من كتابه وبذلك أغنى الباحثين فى حاضر الأيام وفى قابلها عن الرجم بالغيب حول حياة المؤلف وما يتصل بمولده ووفاته وصفاته وأسرته وجنبهم الكثير من العناء الذى يكابده من يؤرخون للأدب والأدباء حين يجنحون مضطرين إلى الافتراض والتخمين دون أن يصلوا فى كثير من الأحيان إلى نتائج يقينية أو حاسمة(١) .

٢ — « شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز » طبع فى أربعة أجزاء ثم اختصره بكتاب « الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز » فى مجلد لطيف طبع ثلاث مرات .

٣ — « عامان فى عمان » مذكراته خلال عامين ، صدر الجزء الأول منها سنة ١٩٢٥م والجزء الثانى لايزال مخطوطاً ، وهذه المذكرات مع

---

(١) المصدر السابق

أنها تتسم بروح النقد ، إلا أنها على درجة من الامتاع والطرافة تحمل القارىء على أن يستوعب قراءتها بلذة وارتياح .

٤ — « صفحة مجهولة من تاريخ سورية فى العهد الفيصلى » لم تطبع .

٥ — « ما جدولين والشاعر » قصة شعرية طبعت .

٦ — « وفاء العرب » قصة تمثيلية نثرية ، مثلت مراراً ابتداء من سنة ١٩١٤ م لم تطبع .

٧ — مجموعة كبيرة فى الأدب والتاريخ قديماً وحديثاً ، كان فى آخر حياته يعنى بتنسيقها وترتيبها .— لم تطبع .

٨ — « ديوان الزركلى « وقد طبع الجزء الأول منه عام ١٣٤٣هـ .(١٩٢٥م) والجزء الثانى لايزال مخطوطاً ، وقد حرص على طبعه قبل وفاته فقدمه لمجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمى العربى) فتأخر طبعه فاستعاده وقد نقّحه وحذف منه قصائد ومقطوعات لكى يروج فى المملكة وفى غيرها من البلاد العربية وهذا القسم المطبوع من هذا الديوان يقع فى ست وتسعين صفحة وإننى أنبه على ما جاء فيه من أخطاء يسيرة ليتداركها ناشرو الديوان ومعيدو طبعه فمن ذلك

« ورود » فى قوله (١)

أَتضُمُّنَا بَعْد الشَّتَاتِ خَمائِلُ رَيَّانَةٌ وأَزاهِرٌ ووُرودُ

ومنه لفظ « ذقيم » فى قوله (٢)

أَأَسلَفتْكَ قُرَيشُ يَالَيَالِينَا سُوءًا وإِلاَّ فَقيم اَلْيَوْم نتهمُ

ومنه لفظ « بلادنا » فى قوله (٣)

هذى مَنازِلُهمْ وتِلْكَ ربُوعُهمْ فَلْينْزِلُوا بَعْد البِلاَد بِلادَنا

---

(١) ديوانه المطبوع صفحة ٤٤ .

(٢) ديوانه ص ١٥ والصواب : ففيم .

(٣) ديوانه ص ٦٤ وصوابه « بلاداً » .

ومنه لفظ « الهوينا » فى قوله (١)

وامْضِ الهُوينَا يتَّصِلْ بِكَ سيرُهَا بَعضُ السَّبيل يخيبُ فِيه المُسْرِعُ

٩ — « ما رأيت وما سمعت » رحلته الأولى من دمشق إلى الحجاز ، طبع سنة ١٩٢٧ م . وفيه بحث واف عن تاريخ الطائف وعن أدب البادية .
وهو هذا الكتاب الذى قمت بإعادة طبعه وتصحيحه والتعليق عليه. وسوف أبسط الكلام على هذه الرحلة التى أسماها صاحبها بهذا الإسم تحت هذا العنوان « مع الزركلى فى رحلته » .

شعره

يعد « الزركلى » من فحول شعراء عصره ، له جولات فى الشعر يقصر عن لحاقه فيها كثير ممن عنى بالشعر وجعله شغله الشاغل ، وله عناية شديدة بتنقيح شعره وتهذيبه وربما نظم خمسين بيتاً ثم عاد عليها بالتمحيص والاختبار حتى أبقى منها عشرين أو ما دون ذلك ، فيأتى شعره وقد خلص من الركاكة والوهن ، وسلم من التكلف العمل ، ولقد طبع ديوانه وأودعه كثيراً من مقلدات الشعر فى موضوعات مختلفة ، كلها ترمى إلى مقصد شريف ، ومغزى نبيل ، ومعظمها يدور حول الحنين إلى موطن أظلته سماؤه ، وأقلته غبراؤه ، وكذلك النفس الحرة لايذهلها شحط الدار ، ولااختلاف الجار ، عليها عما عليها من الحقوق لأرض اغتذت بلبانها ، وانتشقت من هوائها ، ولقد نحافى شعره هذا منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة فى الأسلوب ، وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين من حيث الوزن والوضع ، فجاء شعره آية فى الإجادة وغاية فى الإبداع والبراعة ، وهو لكثرة ما يحفظه من شعر المتقدمين وأقوالهم قد يدمج شيئاً من كلامهم فى شعره حتى يخيل إلى الإنسان أنه تعمد الإغارة على معنى سبق إليه ، أو لفظ أحكم حوكه غيره ، كما يتمثل ذلك فى قوله (٢) :

(١) ديوانه صفحة ٨٠ وسليم الجندى فى ٥ : ٥٠٥-٥٠٦ من مجلة المجمع العلمى بدمشق .
(٢) صفحة ٢١ من ديوانه .

إنَّ التّى هزّت سريرَ وليدِهَا لتُهزُّ فِيهِ العَالَمَ المتوسِّدا

وقوله [١]

وما الموتُ إلا سُباتٌ عَمِيقٌ فَفِيم البكاءُ على الهَاجِعِ

فقد يسبق إلى الظن أن الأول مأخوذ من قول القائل :

إنَّ التّى تهزُّ السريرَ بِيَمينِها تَهُزُّ العالَمَ بِشَمِالِهاَ

وإن الثانى مأخوذ من قول أبى العلاء المعرى :

الموتُ نومٌ طويلٌ لا هُبُوبَ لَهُ والنَّومُ مَوتٌ قَصيرٌ بَعْثُه أَمَمُ

غير أن من عرف ماأوتيه خير الدين من غزارة المادة، وجودة القريحة يستبعد منه أن يتعمد مثل ذلك ، على أن بين المعانى التى استعمل فيها هذه الكلمات والتى استعملها غيره فيها فرقاً وخلافاً جلياً[٢] ولتمكنه من اللغة ، كثيراً ما يلتزم فى شعره ما لا يلزم كقوله :

عَرَّفَ الشِّعْرَ بعضُهمْ بالقَوافِى وَفَرِيقٌ بِوَزْنِه عَرَّفُوهُ

إنَّما الشِّعْرُ طَعْمُ ماءٍ زُلَالٍ كَيفَ يَدْرِى الزُّلالَ مَنْ مَرَّفُوهُ

فقد التزم فى هذه القافية أربعة حروف .

وقد امتازت قصائده الأولى وخاصة إبان الحرب العالمية الأولى بحماس وطنى وجدانى رقيق المعانى ، سلس التعبير ، واضح الافكار فها هو فى نشيد الشهداء يقول :

أَبت العَينُ أَنْ تَذوقَ المَنَامَا

والمنَايَا تَغْتَالُ مِنَّا الكِرَامَا

شهَداءَ العُرْبِ الأُبَاةِ سَلامًا

---

(١) صفحة ٨١ من ديوانه .

(٢) سليم الجندى فى ٥ — ٥٠٥ : : ٥٠٦ مجلة المجمع العلمى

أَيُّها الحَافِظونَ فِينَا الذِّمَامَا
أيُّها المُوقِظونَ فِينا النِّيَامَا
جُدْتم بِالنُّفوسِ بتّمُ فى الرُّمُوسِ
ما عَهِدْنَا الشُّمُوسَ تُمْسِى رِمامَا

ومن الشعر الوطنى قصيدة فى ٢ ـ ٧ ـ ١٩٢٠ . بعنوانِ « ظلموه »

ويعنى الانتداب على الوطن :

لَا التَّاجُ يَنْفَعُه ولَا اسْتِقْلَالُهُ إنْ لَمْ يُحَلَّ وِثَاقُهُ وعِقَالُهُ
ظَلَمُوهُ فَاسْتبَقُوا إلَى وُكُنَاتِهِ فَسُهُولُهُ مُحْتَلَّةٌ وجِبَالُهُ
وَعَدا علَيْهِ مَع الزَّمانِ فخُدِّرَتْ أَعْصَابُه وَتَزَايلَتْ أَوْصَالُهُ
وَطَنٌ تَزاحَمَتْ الخُطُوبُ ببَابِه وجَفَاهُ مَنْ عُقِدتْ بِهِم آمالُهُ
هل يَنْفَعُ العَلَم المُنِيفَ حُمَاتُه نَاوُون عَنْهُ مَشَتَّتُونَ وآلُهُ
إنَّ اللِّواءَ إذا عَلَاكَ فَإِنَّمَا يَحْميهِ ظِلُّكَ لاَ تَقِيكَ ظِلَالُهُ

ويعجبنى قوله وقد نظر إلى حمام الحرم بمكة فتمنى أن يكونها :

أَلَا لَيْتَنى حَوْلَ «المِقَامِ » حَمَامَةٌ يُرَفْرِفُ بَيْنَ «المَرْوَتَيْنِ »جَنَاحِي
أَرُوحُ وأَغْدُو حَيْثُ شَاءَ لِيَ الهَوَى طَلِيقًا غُدُوِّى فى يَدِى ورَوَاحِي
أَبيتُ قَرِيرَ العَيْنِ أَنْعَمُ بِالْكَرَى مَسائِيَ مَمْسَىَ غِبْطَةٍ وَصَباحِي
أَزُقُّ فِرَاخِيَ هَاتِفًا لِفراخِهَا وَأَرْشِفُهَا مِنْ مَاءِ «زَمْزَمَ » رَاحِي
وآمَنُ ،لَا دَهْرِي يَرُوعُ بِظُلْمِه وَلا أَهْلُهُ يَغْشُونَنِى بِسِلاحِ [١]

---

(١) ديوانه صفحة ٢٩ .

ومن جيد شعره قصيدة قالها يوم احترقت مكتبته ومطلعها :

لَمْ تُبْقِ أَيْدِى الحَادِثَاتِ وَلَمْ تَذَرْ فَعَلَامَ تَضْحَكُ فى سمائِكَ يَاقَمَرْ

ومن قصائده الجديدة التى قيلت بعد طبع ديوانه قصيدة من (٢٦) بيتا بعنوان (من سفح أجياد إلى جامعة القرويين) قالها لما كان سفيرا للمملكة العربية السعودية فى الرباط بمناسبة مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين مطلعها :

مِنْ سفْحِ أَجْيَاد وَمِنْ يَثْرِبِ تَحِيَّةُ المَشْرِقِ لِلْمَغْرِبِ (١)

عُلْوِيَّةُ النَّفحَةِ قُدْسِيَّةٌ مِنْ طَيِّبٍ تُهْدَى إِلَى طَيِّبِ

حكم الفرنسيون عليه بالإعدام مرتين :

وقبل « ميسلون » كان شاباً يدرج إلى النبوغ ، ويمشى فى طريق التقدم وقد عرف الأتراك منه ذلك ، فكان يدعى إلى الحفلات يلقى فيها من شعر المناسبات شعراً تلمح فيه الجرس الموفق ، والنغمة العربية التى تبشر بخير جزيل ، حتى دخل الفرنسيون بلده غصباً وذهب من ذهب من الضحايا ، حكمت المحكمة العسكرية الفرنسية التابعة للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسى بدمشق بالاعدام غيابيا على الشاعر ، وذلك بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٢٠ م . مع مصادرة أملاكه ، لأنه جاهر بعدائه للمستعمرين فى جريدته (المفيد) وقد غادر دمشق بعد دخول الفرنسيين بيومين اثنين . وكان جوابه فى هذين البيتين :

نَذرُوا دَمِى حَقًّا علىّ وَفَاتَهُمْ أَنَّ الشَّقِىَّ بِمَا لَقِيتُ سَعِيدُ

اللهُ شَاءَ لِىَ الحَيَاةَ وَحاولُوا مَالَمْ يَشَأْ وَلِحُكْمِهِ التَّأْيِيدُ

فلما هدأت الحال أخطرت السلطات الفرنسية أهله بالعفو عنه، فلما ثارت سوريا من جديد على الاستعمار الفرنسى أصدروا عليه حكماً جديداً بالإعدام؟

(١) العربى العدد ٣٠ صفحة ١٠٦ — ١٠٧ .

ومن شعره الذى قاله بعد طبع ديوانه :

مرثيته فى الملك عبد العزيز العبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله تعالى ومطلعها :

رَدَّ الْجَزِيرَةَ وَهِيَ نِسْيٌ بَلْقَعُ حَوْضًا عليْهِ لِلْوُرودِ وُفُودُ
التِّبْرُ سَالَ بِهَا عُيُونًا والْحَصَى درٌّ ، وَلألآءُ النُّجومِ عقُودُ

ومنها :

جُودٌ كَمُنْهَلِّ السَّحَابِ وَمَا الْفَتَى بِمُحَبَّبٍ لَوْلَا النَّدَى وَالْجُودُ
مَاالْمَالُ يَكْنِزُه الغَنِيُّ فَيَغْتَنِي كَالْمَالِ يَبْذُلُهُ امْرُوٌ فَيَسُودُ

وقد نشرت هذه (الدالية) بكاملها فى مجلة المنهل بالعدد الصادر فى جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ — يناير سنة ١٩٥٤ .

ومن قصائده الجيدة التى قيلت بعد طبع ديوانه قصيدته (الفائية) من بحر الطويل نظم قلادتها بمناسبة ذكرى جلوس الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٨هـ ومطلعها :

جَرَى الْيَمُّ هدَّارًا بمُضْطَرِبٍ طَافِ تَمِيلُ بِهِ الأَنْواءُ مَيْلَةَ أَعطَافِ
سماءٌ وَمَاءٌ لَيْسَ بَيْنَهُما سِوَى بِنَاءٍ عَلَى الأَمْواجِ قَدْ شِيدَ رَجَّافِ

ومنها :

هُنَالِكَ مِنْ أَبْنَاءِ يَعْرُبَ أُمَّةٌ كَمُلْتَمع الحَدَّين زينَ بإِرْهَافِ
حِجَازِيةٌ نَجْدِيَّةٌ مضريَّةٌ مِنَ الدِّينِ والدُّنْيَا لَهَا البُرْدُ الضَّافى

تَقَدَّمُها (عَبْدُ العزيزِ) فُصَانَها مِنَ الحَلكِ المَرْئِيِّ والشَّركِ الخَافِي

ويقول صاحب المنهل(١) :

« جميل جداً هذا التعبير الشعرى الأخاذ : (فصانها . . من الحلك المرئى والشرك الخافى (ويلوح لى أن الشاعر توصل إلى هذا المعنى من طول ممارسته للسياسة فاستطاع أن يدرك دسائسها الخفية و(مقالبها) الجلية . فصاغ فى شعره هذه الجملة النضرة الناصعة الجامعة . . » اه .

رحم الله خير الدين فلقد كان شاعر العرب يعبر عن أفراحهم وآلامهم بديباجة قوية ، وفكرة وقادة ، وقدرة تجعل عصى الكلام لديه ليناً سهلا له نكهته وجاذبيته لدى سامعيه وقارئيه .

مع الزركلى فى رحلته « مارأيت وماسمعت » :ـ

رحلة أسماها مؤلفها بهذا الاسم وهى فى الحقيقة والواقع تمثل مسماها وقد سجل فيها كلما وقع عليه بصره وما سمعته أذناه ممن يثق به فى هذه الحقبة من الزمن من يوليو (تموز ١٩٢٠ إلى آخر يناير) كانون الثانى ١٩٢١ م أى أن هذه الرحلة استغرقت وسلخت من الزمن بل من عمر مؤلفها سبعة أشهر تقريباً سجل حوادثها مؤلفها فى وقت عمت فيه الفوضى وانتشرت البلبلة إلى الأذهان والأفكار بسبب الحرب العالمية الأولى وما جرى فى أعقابها على كثير من الأقطار العربية كالشام والعراق وفلسطين . . الخ

ولكن هذه الحوادث المؤلمة ، وتلك المصائب المتلاحقة فى ذلك الوقت لم تمنع كاتبنا القدير وشاعرنا الفذ أن يكتب لنا بأسلوبه الشيق الرصين السهل الممتنع هذه الرحلة اللذيذة ويشركنا معه فى الإحساس بمتعتها ، والشعور بخيالها ورياضتها ، وكيف لايفعل ذلك ـ وهو الشاعر المطبوع والكاتب المجود الذى إذا حلق لايبارى ، وإذا سوبق لايجارى ، ولسنا بصدد المدح بل بصدد الوصف لهذه الرحلة فعناوينها البارزة هى :

---

(١) الاستاذ ـ عبد القدوس الانصارى فى كتابه (الملك عبد العزيز فى مرآة الشعر طبع مؤسسة مكة للطباعة والاعلام ١٧ ـ ٢ ـ ٣٩٤ هـ .

من دمشق إلى مكة .

عشرون يوماً فى الطائف .

تسعون يوماً فى ضيافة الملك .

جولة فى البادية .

أدب البداة .

من مكة إلى هليوبوليس .

لقد كتبها — رحمه الله تعالى — بعبارات جزلة،وبيان صاف وبأسلوب يحيط بالوصف بأوجز عبارة، حتى ليقرؤها المتعلم المثقف وغير المثقف فلا يجهد نفسه فى تفهم شىء من معانيها، وكلما خطرت له خاطرة ، أوسنحت له سانحة من حديث النفس وصور الخيال صورها للقارىء بأسلوبه الممتع وأشركه فى متعته ولذته، استمع إليه فى ص ٦٩ حيث يقول :

(وفى أواخر وادى نعمان أو بعد منتصفه رافقنا عن يسارنا جبل قيل لنا : هذا كبكب :

عادت لنا الذكرى ، ذكرى العصور الأولى ، أيام كانت هذه الهضاب والأكام ، والبقاع والتلاع مسرح أنظار شعراء الجاهلية والإسلام يروحون فيها ويغدون ، بين غزل يطير فى عالم الخيال وسجع يندب الآثار والأطلال ، وفخور يرى النجم دونه ، ويحسب الناس يعبدونه على مقربة من ذلك الجبل الشامخ تمثل لنا امرؤ القيس وقد خيره أبوه بين الشعر وتاج الملك ، فأبى التاج ، وانفرد بعصائب التفت حوله ، يشبب ويتغزل ويحن ويفاخر . . . الخ .

حقا إن الزركلى فى أسلوبه السهل الممتنع الجذل المفيد الوجيز لينقش فى أذهاننا جميع عبارته بقلمه الخالد الذى لاينسى وقعه ، ولايمحى أثره ، ففى مقدمة رحلته سطر لنا بيراعه الخالد :

(رحماك اللهم ربى ورأفتك بأمة أسلمت زمامها المقادير إلى زعماء خبطوا بها خبط عشواء وقادة كانوا حطاب ليل ونذر ويل ، تقحموا بها

مجاهل الأمور على غير هدى ، تسيرهم الأهواء والنزعات وتلعب بهم الأغراض والنزغات، طالب منصب ، وعابد درهم، وعاشق تاج لايبالون من أية الطرق كان لهم ما يبتغون ، أو يكون [١] .

لقد مضى على كلامه هذا أكثر من نصف قرن ومداده لايزال رطباً لم يجف بعد كأنه لم يكتب إلا فى نكبة حزيران سنة ١٩٦٧م قبل نحو عشر سنوات بل كأنه لم يكتب إلا هذه الساعة ، لأنه لايزال قرعه للأسماع شديداً ووقعه فى النفوس قوياً — مع أنه مضى عليه أكثر من خمسين عاماً — سلفت فيها أمم، وتعاقبت حكومات، وتغيرت أحوال، ولكن أسلوبه الخالد الذى استعمله لخدمة أمته ووطنه وبنى قومه لم يتغير لأنه استمده من روحه وقلبه ومن فكره وإخلاصه وعقله ...

لقد كان رأيه ناضجاً، وقلمه سيالا ، وشعوره متزناً منذ فجر شبابه فسجل كل ما وقع عليه بصره أو سمعته أذنه فى هذه الرحلة التى سجل فيها أهم فترة من فترات الحكم الهاشمى فى الحجاز — على قصره — لم يدع شاردة ولاواردة إلا سجلها وأثبتها بكل أمانة ودقة، فهذا وصف البيت الحرام والحمام . . . وهذا وصف القصر وموقعه وهذا المخلوان ووصفه وهناك العادات والتقاليد ومنها — معرفة أسرار تقبيل اليد — ووصف الأماكن بين مكة والطائف — ووصف الطائف — كما يتخيله الشاعر وذكر قزاه وقبائله وعادات أهله ، لم يترك شيئاً إلا سجله بأوجز عبارة حتى لقد أتى على أدب البداة وسجل شيئاً من محاوراتهم وأشعارهم على اختلاف أغراضها ، حتى لتعد هذه الرحلة مرآة لفترة الحكم الهاشمى فى الحجاز على قصرها ولنستمع إليه حين يقول : ص ١٥٩ من الطبعة الثانية

« وكثيراً ما كانت جماعتنا تتألف من أمير الطائف ووكيل حربية الحجاز وقاضى الطائف ومدير شرطته وفريق من ضباط الجيش فنجمع بين لذتى الرياضة والاستقراء ، والنزهة والاستطلاع ، ولطالما كنا نعانى الصعاب فى صعود

(١) مارأيت وماسمعت ص ٣٥ من الطبعة الثانية .

بعض الجبال والهضاب غير أن اللذة فيما كان يلوح لنا من أثر أومنظر لم تبرح تشجعنا على المضى فى التصعيد والتطويف، والتشريق والتغريب، وناهيك بما هنالك من صفاء فى الأرض والسماء، وسكون فى الطبيعة والفضاء، لولا ماكان ينتاب النفس - وللنفس حنين - من نزوع وتشوق وتطلع وتشوف، إلى ديارهى ديار صباى، ورباع أنسى، ومهوى هواى، ومنبت غرسى: ديار الشام المنكوبة، بلاد الآمال والآلام، سلام عليها وألف سلام[١].

ومع كونه فى ضيافة الملك مكرماً ملحوظاً لم ينس تسجيل شعوره ووفائه نحو مسقط رأسه الأول، لقد عبر عن ذلك تعبيراً شعرياً رائعاً بأسلوب جامع أخاذ.

وهو معجب بالطائف يثنى عليها، ويطربها ويطرى عادات أهلها، ويترنم بمدحهم، ويعاشر فضلاءها، ويستمع إلى بدوها، ويسجل شعرهم ويستوضح معناه ويحلله، ويورد أنواعاً مختلفة من أغراضه ومن أشعار كبار قائليه، وينتقل إلى ذكر العادات والتقاليد ويذكر ما فيها من بعض المفارقات، ويوازن ويرجح كل ذلك بأوجز عبارة، وأصفى بيان، فلا غرو إن عدت هذه الرحلة مرآة صادقة فى تلك الأونة لهذا الجزء من جزيرتنا العربية.

يرحم الله الزركلى وضاعف أجره وأعلى منزلته ودرجته فى الطيبين والمناضلين والمجاهدين.

(١) مارأيت وماسمعت ص ١٥٩-١٦٠ من الطبعة الثانية

مقدمة الرحلة

الحرب العالمية الاولى

قالوا : أنها نشأت عن جريمة تلميذ صربى يدعى « جافريلوبرنسيب» فى الثامن والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩١٤ لما قام ولى عهد النمسا « الارشيدوق فرانز فرديناند » ابن أخى أمبراطور النمسا ووارث عرش النمسا والمجر هو وزوجته بزيارة إلى مدينة « سراجيفو» عاصمة البوسنة — متحدياً على مايقال : للقومية الصربية—وهناك أطلق عليه هذا الشاب الرصاص فقتله .

وسيراجيفو مدينة صغيرة . . . تبعثرت بيوتها على ضفة نهر « ملياشكا » الصغير المنحدر من الجبال ، ولكنها تختلف عن غيرها من بلاد الصرب الأخرى بأن أهلها وإن كانوا جميعاً من السلاف ، وأكثرهم من أصل صربى إلا أن ثلثهم كان من المسلمين ، من أبناء الملاك الصربيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح الإسلامى ، ولعل هذا هو السبب فى أن الأتراك لما ملكوا هذه البلاد — جعلوا « سراجيفو» العاصمة الإدارية لولاية « البوسنة » طيلة القرون الأربعة التى ظلوا فيها .

وقد ظلت البوسنة مصدراً للمتاعب خلال الحكم العثمانى ، كما كانت مسرحاً لكثير من الفتن والثورات ، وحدثت آخر هذه الثورات فى سنة ١٨٧٥م فأثارت الأزمة الشرقية الكبرى التى انتهت بعد ثلاث سنوات فى مؤتمر برلين .

وفى هذا المؤتمر قررت الدول الكبرى ألا تضع البوسنة تحت الحكم التركى ، فقد كانت هناك دولة مسيحية كبرى تصبو إلى الاستيلاء عليها ، وهذه الدولة هى « الأمبراطورية النمسوية المجرية » ، وكان آل ها بسبورغ أبا طاطرة النمسا والمجر قد فقدوا أملاكهم فى إيطاليا ، فأرادوا استرداد

بعض نفوذهم ، ولم يجد مؤتمر برلين حفظاً لماء وجهه أفضل من أن تبقى « البوسنة » تحت السيادة التركية بالإسم ، على أن يتولى النمسويون إدارتها فعلا .

هكذا أصبحت البوسنة بالنسبة إلى النمسا فى ذلك العهد الذى بلغ الاستعمار فيه ذروة القوة بديلا من المستعمرات الأفريقية والأسيوية .

قرر ساسة النمسا ضم « البوسنة » إلى النمسا وانتهت بمعاهدة وافقت عليها تركيا بالنزول عن كافة حقوقها وسيادتها فى البوسنة ، وهذه المعاهدة لم تتخذ صيغة قانونية ، ولم يقرها برلمان النمسا ولا برلمان هنغاريا ، ذلك لأن الأندماج النمسوى الهنغارى كان مجرد مظهر خارجى يتمثل فى وحدة سياسة البلدين الخارجية ووحدة جيشهما ، أما فى الداخل فلم يكن له وجود وكان لكل من البلدين كيانهما الداخلى المستقل ، وعندما ضمت « البوسنة » كان لابد من إلحاقها بأحد البلدين . . . النمسا أو المجر . . .

وقد أثارت هذه المشكلة نزاعاً داخلياً ولكنها لم تحل قط ، وهكذا ظلت « البوسنة » معلقة لاتعرف لنفسها كياناً ، كان هناك من يديرها ، وليس من يملكها ، لقد تنازلت عنها الحكومة العثمانية ولكن آل هابسبورغ لم يتخذوا الخطوات القانونية لضمها إليهم ، ومعنى هذا أن « الأرشيدوق فرانز فرديناند » حين ذهب إلى سراجيفو فى ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤ م كان فى أرض أجنبية لاسلطان له عليها ، وكان الرأى السائد أنه إنما ذهب تحدياً للقومية الصربية . وأن انتصار الصرب فى حرب البلقان سنة ١٩١١ — ١٩١٣ م ونجاحها فى الاستيلاء على مقدونيا من الأتراك دفعها للتطلع إلى البوسنة ، فأصبحت هذه الولاية نقطة الوثوب فى قائمة المطامع الصربية » .

وأكدت المصادر التاريخية التى نشرت بعد الحرب العالمية الأولى حتى المصادر الصربية أيضا أن فاجعة « سراجيفو » قد دبرت بأمر من أعضاء الجمعية السرية الصربية التى كان من أهم غاياتها مناوأة النمسا والعمل على على استرجاع « البوسنة » منها وضمها إلى « صربيا » .

ولما قتل ولى عهد النمسا قامت النمسا بتهديد « الصرب » وأرسلت إليها مطالب فقبلت « الصرب » المطالب المشروعة وسألت حل المطالب غير المشروعة بالتحكيم ، فما كان من النمسا إلا أن أشهرت الحرب عليها ، وحاولت روسيا صديقة « الصرب» وحاميتها أن تتوسط فى الخلاف لمصلحتها ، ولكن المانيا حليفة النمسا وحاميتها تصدت لمعارضة روسيا .

هكذا انتهى هذا الخلاف إلى الحرب وانضمت إليه باقى الدول الكبرى والحقيقة التى لايدخلها شك أن الحرب كانت واقعة لامحالة ، وذلك بعد الاستعدادات العسكرية الجبارة التى كانت تقوم بها مختلف الدول .

وبعد أن انقسمت أوربا إلى معسكرين : يضم أولهما انجلترا وفرنسا وروسيا ، ويضم ثانيهما : ألمانيا والنمسا والمجر .

وقد بذل كل قسم مجهودات ليضم إلى حلفه دولا أو دويلات ، وذلك أن نمو وزيادةحجم أى دولة ربما أخل بالتوازن الدولى فى نظر الأخرين ، فكان **لا بد من امتداد ونشاط ، ولابد من إيقاف وردع « فكانت سياسة انجلترا وما تزال ، أن لاتقوم فى أوربا دولة مسيطرة على بقية القارة بأى نوع من السيطرة ، لأن فى نمو مثل هذه القوة ما يهدد مصالحها فى أهم منطقة بالنسبة لها .**

نابليون لم يطلب معاداة انجلترا ، وهتلر لم يطلب معاداة انجلترا ، ولكن انجلترا كانت دائماً إذا بدت قوة صاعدة جمعت الآخرين فى تحالف لحصر هذه القوة ، وإعادتها إلى حجمها ، ولا تذهب انجلترا إلى الحرب وحدها أبدا ، وحين نقرأ تاريخ أى حرب ، ونجد طرفاً من المحاربين يسمى « الحلفاء » فلا بد أن تجد فيه انجلترا ، تلك كانت فلسفتها التى حكمت بها العالم أكثر مما حكمت بأسطولها ، حين كانت الامبراطورية العثمانية توشك أن تهزم روسيا القيصرية ، كما فى حرب القرم وغيرها ،

كانت تصنع تحالفاً من سائر قوى أوروبا يقف مع روسيا ضد الأمبراطورية العثمانية .

وحين أوشك محمد على الكبير الزاحف من مصر إلى الشام أن يهدد الامبراطورية العثمانية ، جمعت تحالفاً آخر وفيه روسيا ضد محمد على لإبقاء التوازن بينه وبين الخليفة العثمانى ،

وفى وجه نابليون جمعت روسيا والنمسا وألمانيا ، وفى وجه غليوم الثانى « الألمانى» سنة ١٩١٤ ثم هتلر سنة ١٩٣٩ ، لأن هتلر هاجم بولندا بعد أن ابتلع النمسا وتيشكوسلوفاكيا ، وصار تركه خطأ يهدد بتحول المانيا إلى تلك القوة الكبرى التى تهدد التوازن المحسوب (١)

وبهذا نعلم أن ما ألفته الدعاية والصحافة من أن المسئولية فى هذه الحرب على دولة معينة بالذات أمر مبالغ فيه ، إذا تقع مسئولية الحرب على جميع الدول المشتركة فيها كل بحسب اندفاعه إليها وتحمسه لها .

ومنذ أقفل السلطان عبد الحميد سنة ١٢٩٤هـ . المجلس النيابى وعطل الأحكام الدستورية ، مابرح بعض أحرار العثمانيين : أرمنهم وعربهم وأرناؤدهم يتأففون من حالة الدولة ، ويدعون إلى المطالبة بإعادة هذا المجلس سراً حيث لم يمكنهم ذلك جهراً .

وأسسوا للوصول إلى هذه الغاية جمعيات سرية فى بعض بلاد أوربا ومصر والبلقان ، جعلت لها فروعاً فى بعض الولايات العثمانية وعملت فى الخفاء زمناً ، والسلطان يصم أذانه تارة ، ويتصام على هذه المطالب المشروعة تارة أخرى ، ويعاقب من تصل إليه يده بالنفى والتعذيب والتغريب ، أو أو بالمداراة وإغداق الأموال والرتب على بعضهم إن كانوا بعيدين عنه ، وأهم جمعية ألفت لهذا الغرض : جمعية الاتحاد والترقى ، تشعبت فروعها فى

---

(١) أحمد بهاء الدين : فى مجلة العربى العدد ٢٢٠ مارس ١٩٧٧ .

أنحاء السلطنة ، وقويت فى بث دعوتها ، وكلمة الجمعية تزيد انتشاراً كلما اشتد عبد الحميد فى إرهاق الداخلين فيها ، وساعد على انتشارها أيضاً سوء الإدارة والتبديد .

واتفق أن ضاقت صدور المسلمين من الارناؤد فى « مقدونية » فى طمع الدول الأوربية فيهم ،وأدركوا أن العثمانيين يسلمونهم متى عجزوا كما فعلوا مع غيرهم ، فيقعون فى قبضة الحكومات الأجنبية على نحو ما وقع لمسلمى « البوسنة » و« الهرسك » و« بلغاريا » و « رومانيا » و اليونان » ، و« الصرب » ، ولما تم كل هذا قام الاناوديداً واحدة فى مناصرة الجيش المطالب بالدستور واتحد الفيلقان الأول والثانى فى « الروم ايلى » وتبعهما الفيلق الرابع فى «كردستان » وذلك بالاتحاد مع عصابات البلغار ، ونادى الضابطان : نيازى بك ، وأنور بك ، بالدستور أويزحفان على دار الملك فلم يسع السلطان إلا أن يعيد العمل بالقانون الأساسى الذى كان أوقفه منذ إحدى وثلاثين سنه ، فصدرت الإرادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨ م) وبوشر بانتخاب النواب ، وأطلقت حرية الاجتماع وحرية القول ، وحرية الكتابة والنشر، بعد ذلك الضغط المنهك ، وألغيت الجاسوسية ، وأخذ الناس يقدسون جمعية الاتحاد والترقى ، وطرد بعض الولاة الذين عرفوا بالجاسوسية لعبد الحميد، وأهين بعض من اشتهر عنهم أنهم من أنصاره الغارقين فى رتبه ورواتبه ومراتبه ، حتى اضطروا أن يندمجوا فى هذه الجمعية ويقدموا شبانها .

وبدىء بانتخاب أعضاء مجلس النواب فحاولت جمعية الاتحاد والترقى أن يكون نواب الشام ممن تركن إليهم ، أو ممن عرفوا ببعدهم عن السياسة الحميدية . ولكنها سعت لتقليل عددهم فى سائر الولايات العربية لئلا تتألف منهم أكثرية فى المجلس ، فإذا انضموا إلى بعض العناصر الأخرى يصبح الأتراك أقلية ، لأن الاتحاديين لايريدون إلا دستوراً ينتعش به الأتراك ، وينال الخير بالعرض سائر العناصر علي صورة لاتضر بكيان

الأتراك ، ويسعون إلى تتريك العناصر لتؤلف جمعية الاتحاد أمة واحدة متجانسة بلغتها ، إذا لم يكن تجانسها بدينها .

وفى هذه الفوضى أخذت هيبة دار الخلافة تضمحل من النفوس كما يقول أبو الهدى الصيادى فيما ينسب إليه :

وَيَمَّمْتُ دَارَ المُلْكِ أَحْسِبُ أَنَّهَا
إِلَى اليَوْمِ لَمْ تَبْرَحْ إِلَى المَجْدِ سُلَّما

فَأَلْفَيْتُها قَدْ أَقْفَرَتْ عَرَصَاتُهَا
ولَمْ يَبْقَ فيهَا المَجْدُ إلاَّ تَوَهُّمَا

وَمَا نَقَمُوا مِنَّا بَنِي العُرْبِ خِلَّةً
سِوَى أَنَّ خَيْرَ الخلْقِ لَمْ يَكُ أَعْجَما

وبينا أحرار الأتراك دعاة القومية التركية الشديدة يفكرون فى وضع خطط الإصلاح ، ويحيون كل ما هو تركى ، ويحاذرون كل ما هو عربى **أعلنت اليونان ضمها لجزيرة (كريت) إلى بلادها كما أعلنت النمسا إلحاق ولايتى « البوسنه » و« الهرسك » ورفض أمير بلغاريا السيادة العثمانية وأعلن استقلاله ، ولم يمض إلا أشهر قليلة حتى ندم السلطان عبد الحميد على ما وهب طوعاً أوكرهاً ، وأحب أن يقوم بعمل ارتجاعى يعيد به الناس إلى الضغط الأول ، فنهض جماعته من جواسيس وعمال ومن طردوا** من الضباط من الجيش وغيرهم من العوام ، وألفوا حزباً باسم الدين سموه (الحزب المحمدى) وكثر أنصاره لأنه اسم تحبه أكثر الأمة ، فدخل الناس فيه أفواجاً عن سلامة نية ، وأخذوا يهيجون العامة باسم الدين ، ويرتبطون بالسلطان بأيدى اناس كان للمال الذى بذله تأثير عظيم فى نفوسهم ونفوس الغوغاء .

فعصت جزر الاستانه إلا قليلا مما بذله السلطان من الذهب الوهاج مطالبين بتطبيق الأحكام الشرعية بحذافيرها .

ولما تجلى هول الموقف للاتحاديين أهاجوا النفوس فى (الروم ايلى) لطلب التطوع فى الجندية دفاعاً عن الدستور ، وهب جند الفيلقين الثانى والثالث من «أدرنه» ، و«سلانيك» وزحفاً على الاستانه بقيادة محمود شوكت باشا البغدادى فاستوليا على الموقف وقبضوا على المنتقضين والعصاة من الجند المشاغب ، وضربوا أعناق بعض المشايخ ، وخلعوا عبد الحميد بفتوى من شيخ الإسلام ، وبايعوا باتفاق مجلس النواب والأعيان لولى عهده (رشاد) أفندى باسم محمد الخامس وحملوا السلطان عبد الحميد المخلوع منفياً إلى سلانيك .

وتولى السلطان محمد رشاد الخامس سنة ١٣٣٣هـ — ١٩١٥م بعد خلع أخيه عبد الحميد وفى أيامه اعتدت إيطاليا على طرابلس الغرب فاستولت عليها وهى آخر ولاية كانت فى أفريقيا للدولة العثمانية ، وأعلنت دول البلقان المتحدة: «بلغاريا، والصرب، والجبل الأسود ، واليونان» الحرب على الدولة العثمانية فانتصرت عليها ، كما قامت حروب فى اليمن راح ضحيتها ألوف العثمانيين حتى سمى اليمن مقبرة الأتراك :

ولقد تبدل موقف الساسة العرب بعد الحرب العثمانية وخروج الدولة العثمانية منها مهيضة الجناح بحيث جعلت هذه النازلة الدول الأوربية تفكر تفكيراً جدياً باقتسام تركيا ، وهذا ما أهاب بالساسة العرب إلى أن بدلوا موقفهم الأول من الساسة العثمانيين ، فأنشأوا حزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة ، وتأسست الجمعيات الإصلاحية فى بيروت والبصرة ، وأخذ العرب يفكرون فى تنظيم رسالتهم تنظيماً جديداً ، وفاقاً للاتجاهات الدولية العامة ، والغرض من إنشاء حزب اللامركزية فى مصر ، أن تتولى كل ولاية إدارة شئونها الداخلية ، وأن تترك السياسات العامة للسلطات السياسية فى الاستانه .

ومؤسسو حزب اللامركزية هم : رفيق العظم ، والسيد محمد رشيد رضا ، والدكتور شبلى شميل ، واسكندر عمون ، وسامى الجرديني ، ومحب الدين الخطيب .

خرجت الدولة العثمانية من حرب طرابلس والبلقان واليمن وكردستان وغيرها من البلدان مجردة من قوتها من المال والرجال ، ولم تكد تفكر فى جمع شتاتها حتى قضى عليها سوء طالع حزب الاتحاد والترقى أن دخلت فى الحرب فى صف « المانيا » ضد دول « الحلفاء » ، وكان ذلك بتزيين الاتحاديين وفى مقدمتهم : طلعت باشا ، وأنور باشا ، وجمال باشا ؛ وهؤلاء الزعماء هم الحركة العاملة فى الدولة ، وكانوا متشبعين بالروح الألمانية ولاسيما أنور . وعلقوا على المانيا أمانيهم فى إرجاع الدولة إلى عزها أيام سليم وسليمان .

دخلت الدولة العثمانية فى الحرب ، فلم تكد تنشب حتى ندب الاتحاديون أحد كبار رجالهم : أحمد جمال باشا ناظر البحرية العثمانية إذ ذاك قائداً على الجيش الرابع ، وكانت منطقته تمتد من أقاصى حدود أدنه إلى المدينة المنورة ، وأخص أعماله أن يشاغل البريطانيين فى حدود مصر **ليضطروا إلى وضع قوة مهمة من جيشهم فى ترعة السويس تخفف عن الدولة فى « جناق قلعة » من جيش الحلفاء وعن عاتق الالمان فى الجبهة الغربية بين الحدود المانية والفرنسية وهذا تدبير ألمانى صرف ، وقد نجح بمشاغلة البريطانيين وإشغال أذهان قوادهم .**

جاء جمال باشا إلى الشام وقبض على زمام القوة وأخذ يفكر هو وجماعته من الاتحاديين فى العراق إلى الانتقام من العرب المخالفين لرأيه ، وإنزال العقوبة بمن رفعوا أصواتهم بالمطالبة بالحقوق لأمتهم ، فعدوهم خائنين للدولة ، وما هم إلا مخالفون على الأغلب ، والمخالفة طبيعية فى كل حكومة دستورية ، بل فى كل حكومة .

ورأى الاتحاديون أن الفرصة آذنت للقضاء على كل فكرة جديدة تخالف ما هم عليه ، وتلقى الرهبة والهول فى كل القلوب ، واعتزوا بمحالفتهم مع الألمان ، وبالأموال التى كانت تقرضهم إياها بالملايين ،

وليس أحسن ملائمة من هذا الدور من تولى أحد كبار أساطينهم الذى ندب لقيادة الجيش الرابع : (جمال باشا) والذى حمل معه أضابير التهم والتحقيقات ، وتقارير الجواسيس الموجهة لمئات من أبناء الشام ، وبينهم أناس من أهل الطبقة العليا ، وكثير من الشباب المتعلمين ونصب المشانق ، وسيق إلى القتل المئات من أحرار العرب الأبرياء وغيرهم .

وفى هذه الأثناء أعلن الشريف حسين بن على أمير مكة المكرمة استقلاله بملك الحجاز (٩ شعبان سنة ١٣٣٤ه حزيران ١٩١٦ م) وثار العرب على الترك فى مكة ، وقتلوا الحامية وأسروا أكثرها ، وحوصرت المدينة بعربه ، وذلك بتدبير الحلفاء وأموالهم ، فشغل الترك بهذه المصيبة التى لم يكونوا يتوقعونها ، وأخذوا يستميلون إليهم رجالات الشام ويستبدلون اللين بالشدة ، وإذ كانوا على عزم إنفاذ حكم القتل برجال كثيرين من أهل الشام ، بعث ملك الحجاز آن ذاك بواسطة أمريكا المتحدة لأنها كانت على الحياد ، بأن كل منفى عربى أو مسجون إذا أصيب بأدنى أهانة فهو مستعد أن يعمل أضعافه مع الأتراك الذين فى أسره ، فكف الاتحاديون عن القتل وأطلقوا سراح السجناء مر غمين بعد أن عذبوهم أنواع العذاب ، فعد ذلك من حسنات الملك حسين :

واختلف حكم الناس فى ثورة الحسين فى وجه الأتراك وخروجه عليهم وتحالفه مع الانجليز فى هذا الظرف بالذات ، فمنهم من عد ذلك طمعاً فى المنصب وخروجاً على ولى الأمر وخيانة للدولة ، وهم الأقلون ، ومنهم من رأى شرعيتها وحبذها بل قال بوجوبها . وهم الأكثرون) لأسباب شخصية ومحلية وقومية ودينية أجبرت الحسين على ركوب ذلك المركب منها :

١ — فمن العوامل الشخصية أن الاتحاديين بإرسالهم وهيب باشا إلى الحجاز ومنحهم له تلك السلطة الواسعة ، كانوا يريدون تهديم سلطة الحسين واعتقاله وإبعاده .

٢ – ومن العوامل المحلية الفاقة والجوع ، فمن المعلوم أن الحرب العظمى أعلنت فى شهر رمضان سنة ١٣٣٢ هـ. أى قبل موسم الحج بثلاثة أشهر ، وكان الانجليز غير واثقين من إخلاص الدولة العثمانية لهم ليقينهم أنها متحالفة أو ستتحالف مع الألمان ، فضربوا الحصار البحرى على سواحلها ، ومنها سواحل الحجاز فى البحر الأحمر ، والحجاز قطر مجدب ، وقد تعود سكانه بما يدره عليهم موسم الحج ، فتعطل الموسم وأحس الحجازيون بالمضايقة ، ثم ازداد استمرار الحرب ، ومن البديهى أن الخلاصة من تلك الحالة المخيفة إنما كانت بمحالفة الانجليز والتفاهم معهم لإلغاء الحصار البحرى ، فتعود البواخر إلى ارتياد سواحل الحجاز حاملة إليهم الحجاج والأموال .

٣ – ومن العوامل القومية أن الإسلام جاء فحفظ للأمة العربية حقها وقدرها ، فكان نبى الإسلام عربياً ، والقرآن عربياً ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عنه (إذا ذل العرب ذل الإسلام) وأكد على وجوب محبة العرب فيما يروى عنه « صلى الله عليه وسلم » « حب العرب إيمان وبغضهم كفر» وأوصى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولاته أنهم لايضربون العرب فيجبنوهم ، وقال :

(إن العرب مادة الإسلام الأولى) ولما تعاقبت الأحداث و الخطوب على الدولة العربية وحل محل بعضها دولة أعجمية قال فيها المتنبي الشاعر :

وَإِنَّما النّاسُ بِالمُلُوكِ وَلاَ تَصْلُحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ

ولما تردد هذا الشاعر إلى الكوفة وحلب ولبنان ومصر لم يكن غريباً ، ولكنه لما ذهب إلى إيران شعر بغربة اللسان فقال :

وَلكِنَّ الْفَتى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ وَاليَدِ وَاللِّسَانِ

ومن المعلوم أن النبي « صلى الله عليه وسلم » عربي والقرآن عربي وأن شريف مكة وهو المنظور إليه كأكبر زعيم عربي فى ذلك الزمن عظم عليه – أن تساق الحرائر العربيات إلى الأناضول سبايا تحت ستار الإبعاد ،

وأن يعدم فريق من مفكرى العرب وكبارهم ،ويشتت الآخرون تحت كل كوكب لاجريمة اقترفوها ، بل لأنهم هبوا يطالبون الدولة بإصلاح بلادهم خشية أن يكون الإهمال أدى إلى تدخل الدول الكبرى فى شئونها باسم الإصلاح — كما حدث سابقاً فى البلقان ، ثم يتحول هذا التدخل إلى الاحتلال أو الاستعمار فكان نصيب بعضهم الإعدام ، ونصيب البعض الآخر السجن والإبعاد ،ولما رأى شريف مكة أن توسطه للعفو عنهم ،ورفع الضيم النازل بهم لم يلق أى اعتبار لدى الحكومة الاتحادية ،قرر إعلان الثورة انتقاماً لهم ،وإنقاذاً للذين ظلوا على قيد الحياة ، وقد حمل بذلك الاتحاديين على تبديل سياستهم ، وعزل جمال باشا من وظيفته فى سوريا ورجوعه إلى الأستانه رجوع المنكسر الفاشل[١] ، ثم إن القول إن الشريف حسين ثار على الخلافة فيه باطل كثير على رأى الأكثرية ، فإن الخلافة زالت معالمها منذ أصبح الخليفة يتحدث بلغة غير لغة القرآن وصارت المنابر أعجمية ،واختلفت عليها لغات غير لغة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأى خلافة هذه التى أصبحت فيها لغة القرآن فى المؤخرة ؟ ، ولو أن الخليفة أراد أن يحكم بإسم الإسلام لتعلم لغة القرآن وعلمها لأبنائه ، ولكن الذى حدث كان عكس هذا ، فقد ضعفت اللغة العربية على أيامهم وعهدهم ، وكادت تمحى لولا القرآن الذى لم يستطيعوا مسه ، وإن كانوا فى طريقهم إلى ذلك لولا الثورة العربية .

٤ — ومن العوامل الدينية حرص شريف مكة على دينه ، وتمسكه بأحكامه وتقاليده ، وكان ينظر إلى الاتحاديين ككفار مارقين من الدين الحنيف لأسباب أسهب فى بسطها بالمنشور الذى أذاعه على العالم الإسلامى ،داعياً كل مسلم إلى الجهاد ومحاربة الاتحاديين الخارجين وإنقاذ الأمة العربية من مساوئهم . ومن جهة أخرى كان الاعتقاد سائداً بين المفكرين أن الفوز الأخير سيكون من نصيب الانجليز وحلفائهم ، ولا بد أن تدور الدائرة على الألمان والأتراك ، فتزول الامبراطورية العثمانية ويقتسم الحلفاء أراضيهم

(١) وعقب انتهاء الحرب هرب جمال مع طلعت وأنور إلى ألمانيا ثم انتقل من هناك إلى قافقاسيا وأخيرا قتل فى مدينة تفليس برصاصات الأرمن ١٩٢٢ م .

ومن جملتها البلاد العربية ، فتكون النتيجة وخيمة على العرب وهذا ماكانوا يعملون لاجتنابه ، ولذا لم يكن للحسين مندوحة عن مفاوضة خصوم الأتراك وعقد المواثيق معهم لإنقاذ بلاد العرب وإقامة الامبراطورية العربية الكبرى ، فتحل فى الشرق محل الدولة العثمانية المضمحلة ، وتبعث دولة العرب ومجدهم من جديد ، وفعلا شارك العرب فى هذه الحرب لنيل حرياتهم واستقلالهم ولكنه مع الأسف لما انتهت الحرب ، وجاء وقت الحساب ، كانوا من جملة الأسلاب .

وكانت نتيجة الحرب تجزئة البلاد العربية بين فرنسا وبريطانيا غير عابئين بما قطعاه للعرب من وعود ، وكانت العراق وشرق الأردن وفلسطين تحت الانتداب الانجليزى ، وعينت على فلسطين السير هربرت صوموئيل : اسرائيلى انجليزى مفوضاً سامياً ، واستأثرت فرنسا بساحل الشام من صور إلى ما وراء الاسكندرونه ، أما المدن الداخلية مثل دمشق وحلب وحمص وحماة فبقيت مستقلة بإدارة الأمير فيصل بن الحسين ، ودعيت البلاد كلها بلاد العدو المحتلة ، عملا باتفاق « سايكس بيكو » الذى عقد يوم ٩ آيار ١٩١٦ م . بشأن تقسيم البلاد العثمانية غير التركية إلى مناطق نفوذ ومناطق سيادة ، وإنشاء دولة أو دول عربية متحدة فى البلاد العربية .

أخذت الحكومة العربية بإمارة الأمير فيصل بن الحسين تعد لها جيشاً من أهل البلاد تؤدى له بريطانيا معونة شهرية نحو مائة وخمسين ألف جنيه مصرى لتستعين بها على تنفيذ شئونها ، وكان جزء مهم من هذا المبلغ يصرف على بث الدعوة وتنظيم تلك العصابات ، فأخذت بريطانيا تفكر فى قطع المساعدة ، ولكن الحكومة الوطنية زادت فى معدل الجباية والرسوم حتى تسد العجز إذا قطعت الإعانة الكبرى ،ودخل فى السياسة الوطنية شبان متحمسون وأكثرهم من غير أبناء هذه المنطقة الشرقية [1] ، وأصبحت لهم منزلة عند الأمير ، تضايق وأبعد من أجلها . رجال الحل والعقد من أبناء هذه المنطقة ،

---

(١) جرى الاصطلاح العرفى يومئذ على تسمية ماأحتلته فرنسا فى بلاد الشام من المناطق الساحلية باسم « المطقة الغربيه » وماكان تحت إدارة الأمير فيصل من : دمشق وحلب وحمص وحماة باسم « المنطقة الشرقية

وعمال بريطانيا وفرنسا أخذوا يعملون فى الشام ، وكل منهم يريد الاحتفاظ بحقوق دولته .

رأى الأمير فيصل أن يذهب إلى لندن وباريس ليُفهم ساستهما حقيقة أمانى الأمة السورية ويعرف موقفه من معاهدة بريطانيا وفرنسا المنعقدة فى أيلول سنة ١٩١٩ م . وخلاصتها تسليم قلقية والمنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة أى ساحل سوريا إلى الإدارة الفرنسية ، فلم يستطع رجال بريطانيا أن ينيلوا الأمير فيصلاً رغائبه وأحالوه على فرنسا ، لأن الانتداب فى الشام أصبح لها دون سواها وبعد الجهد العظيم لم ير إلا الاتفاق مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو «كليمانصو» وتعهد له أن يكون مع فرنسا ، ويرضى بانتدابها على الشام ، واعترفت فرنسا لأهل الشام بالاستقلال وحكم أنفسهم بأنفسهم ، وذلك فى اللائحة التى تم توقيعها بين حكومة فرنسا الجمهورية ، والأمير فيصل يوم ١٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ م . واعترف الأمير بأن السوريين لايستطيعون فى الوقت الحاضر — لاختلال النظام الاجتماعى الناشىء عن الاضطهاد التركى والخسائر المحدثة أثناء الحرب — أن يحققوا وحدتهم وينظموا إدارة الأمة دون مشورة ومعاونة أمة مشاركة ، وطلب باسم الشعب السورى هذه المهمة من فرنسا ، ولما عاد إلى الشام استقبلته السلطتان الفرنسية والانجليزية استقبال الملوك وخطب فى بيروت خطبة رضى عنها الفرنسيون ، ولما جاء دمشق خطب خطبة تخالفها اجمالا وترضى المنادين بالاستقلال التام الناجز ، وبدأ التقلقل فى سياسته ، والتناقض فى أقواله ، لأنه كان بين عاملين : العامل الفرنسى ، والعامل الانجليزى ، وهذا أشد وأقوى وإن لم يكن ظاهراً للعيان ، وذلك بالنسبة لحالة والده ملك الحجاز ، ولأن انجلترا إذا غضبت تنقطع عنه المعونة الشهرية وبدونها يستحيل القيام بشىء من أعمال المقاومة والدعاية .

المؤتمر السورى ومبايعة فيصل ملكا على الشام :

وكانت الحكومة العربية بدمشق دعت مؤتمراً تألف من أكثر أبناء الشام ومنها فلسطين لوضع القانون الأساسى للبلاد ، وتعيين شكل حكومته، فتقرر اعلان ملكية الأمير فيصل (١٦ جمادى الثانى ١٣٣٨ هـ) . ـ ٧ آذار ١٩١٩ م) . فبويع له بالملك على الأصول بإسم فيصل الأول ، وأعلن شقيقه الأمير عبد الله ملكاً على العراق ، وأن يكون ولى عهده أخوه الأصغر الأمير زيد ، وتألفت وزارة قالت أولا أنها لاتقبل بالانتداب الفرنسى الذى كان قرره على الشام مؤتمر ريمو فى ٦ نيسان سنه ١٩١٠ م . فدهش المفكرون لهذا التبدل فى السياسة ، وبعد البيعة بعشرة أيام أبلغت فرنسا وانجلترا الأمير فيصلا بأنهما لاتعترفان بصحة قرار المؤتمر السورى الذى بايعه ملكاً، ودعى إلى الحضور إلى أوروبا لعرض قضيته أمام مجلس عالى ، فاعتذر بأن أعمال مملكته الجديدة لاتسمح له بمغادرة البلاد ، ثم وقعت حوادث شغب واعتداء بين الطوائف فى الشام ، وتكونت عصابات ، ترامت أخبارها إلى الغرب ، وتجسمت بالطبع على العادة فى نقل الأخبار ، وشكى العقلاء من أهل البلاد ، وخافوا عاقبة هذه السياسة ، وأسفوا لتقاتل أبناء الوطن ، ولتجدد نعرة الدين ، ولم يكن قناصل الدول غافلين عما يتم ، وأخذت تتوتر العلاقات بين الأمير فيصل وحكومة الانتداب فى الساحل، وكانت فاتحة أعمال الجنرال غورو المندوب السامى فى الشام أن طلب إلى الأمير فيصل أن يعطيه البقاع ، لينقل على الخط الحديدى ما يحتاج إليه الجيش الفرنسى فى جهات عنتاب ، فأبى الأمير أجابة الطلب .

أفكار الأمير فيصل والعبث بالسياسة

تجلت أفكار الأمير فيصل بمجىء اللجنة الأمريكية كل التجلى ، وكانت الدعوة الأولى أولا منذ أن رفع العلم العربى على البلاد الداخلية أن الاستقلال تام للبلاد العربية يتناول الوحدة : الشام والحجاز والعراق وسائر الأقطار

العربية فى الجزيرة ، وما فتئت الدائرة تضيق حتى أخذوا يدعون إلى الشام بحدوده الطبيعية ، ثم سكتوا عن فلسطين لأن العلم البريطانى كان يخفق عليها منذ خروج الأتراك منها ، ثم أكتفوا بالدعوة لاستقلال سوريا ، ثم تخلوا عن لبنان واكتفوا بالدعوة إلى استقلال المدن الأربع : دمشق حلب — حمص — حماه — وهذه أيضاً لم تسلم على ما يراد لها .

حملة فرنسا على المدن الأربع

وكانت الحكومة العربية فى أيدى العامة والهازلين من أمراء جيشها ، وخطط الأحزاب متضاربة ، وأعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم ، هذا والجنرال غورو يعزز جيشه فى الساحل ويستدعى من فرنسا فرقا من الجند ، ثم أرسل الإنذار تلو الإنذار ، مع بدء زحفه لاحتلال بقية مدن الشام .

وكان الجيش الفرنسى الزاحف على دمشق مؤلفاً من عشر كتائب مشاة ، وست كتائب فرسان ، وسبع بطاريات من الجنود الفرنسية والسنغالية والمراكشية والجزائرية أما الجيش العربى فقد كان مؤلفاً من بضعة ألوف ولكن على الورق لا بالفعل مشتتاً فى حلب وحمص ودمشق ، وليس له وحدة فى القيادة وصدر الأمر إلى الجنرال المرابط فى (حصون المجدل) من الجيش العربى بالتسليم وفض الجيش ، ثم عاد فصدر الأمر ثانية إلى جماعة الحصون أن يبقوا على المقاومة ولم يكن عددهم يزيد على مائة وعشرين جندياً ، وأصبح الحكم فى دمشق للغوغاء الذين كان يحمسهم زعماؤهم ، وهجموا على القلعة وأخذو السلاح منها فنهبوا الذخائر ، فاضطرت الحكومة لاستعمال القوة لحفظ الأمن ، وتقدم الجيش الفرنسى فى زحفه حتى وصل ميسلون عن طريق دير العشائر إلى الميماس ، وقطع خط الرجعة على العرب ، وصارت معركة ميسلون فى ٢٤ أكتوبر ١٩٢٠ وعاد المنهزمون إلى دمشق بعد أن قتل فى ميسلون من العرب من ألف ومائتين إلى ألف وخمسمائة رجل ، منهم يوسف العظمة وزير الدفاع فى حكومة فيصل (انظر ساطع الحصرى فى كتابه : يوم ميسلون) ، فقد فصَّل أسباب هذه المعركة ومقدماتها ونتائجها .

فدخل الجيش الفرنسى من الغد إلى دمشق (٢٥ تيموز ١٩٢٠ م) بعد أن نزح منها الكثير من أعيانها ومن مفكريها ومنهم صاحب هذه الرحلة بما تقرأ له من وصف دقيق لهذه الحالة وما بعدها فى جزء مهم من بلادنا العربية ، ولنترك القلم فى محبرته مستمعين إلى ما يقصه علينا كاتب هذه الرحلة فى تعبير أمين صادق بأسلوب آخاذ جميل .

عبد الرزاق محمد سعيد حسن كمال
عضو النادى الأدبى بالطائف
عضو نادى جده الأدبى

١ — ١١ — ١٣٩٨ هـ

من دمشق الى مكة

« ليلة ميسلون . فى القطار . فى حيفا . من حيفا إلى القاهرة » .
« من القاهرة إلى السويس . فى جدة . إلى مكة . فى المخلوان » .

ليلة ميسلون :

أَنا لاَ أَشْكُو وَنًى فى أُمَّتى   وبقَوْمِى كَانَ إِدْلاَلُ الفَخورْ !
إِنَّما تُوشِكُ أَنْ تُبْكِيَنِى   غَفْلَةُ القَادةِ فِينَا والصُّدُورْ !

رحماك اللهم ربى ورأفتك ، بأمة أسلمت زمامها المقادير إلى زعماء خبطوا بها خبط عشواء ، وقادة كانوا حطاب ليل ، ونذر ويل ، تقحموا بها مجاهل الأمور على غير هدى ، تسيرهم الأهواء والنزعات ، وتلعب بهم الأغراض والنزغات ، طالب منصب ، وعابد درهم ، وعاشق تاج ! لايبالون من أية الطرق كان لهم ما يبتغون ، أو يكون ؟

قضى الأمر ، وأراد التردد والضعف وعمى البصيرة ، أن تتفق وزارة الشام مع ملكها فيصل[1] بن الحسين على تسريح الجيش ، إجابة لرغبة القائد الفرنسوى الزاحف على ميسلون ، ونزولا على حكمه ، واستشعر أهل دمشق فى حكومتهم إذعاناً للطارق الداهم ، فأنفوا الاستسلام وأبوا إلا أن يتركوا أثراً من الدم فى صحيفة ذلك اليوم . . فثاروا !

واضطرب المتربعون على كراسى الحكم فى دمشق ، فعمدوا إلى قمع الثورة بالعنف ، فسادت الفوضى ظلام ليلة ٢٠/٢١ يوليو (تموز) ١٩٢٠ وأقبل الجند المسرحون منتشرين فى أحياء دمشق ، يهتفون للاستقلال والدفاع ، تحت رصاص الرشاشات التى كان يطلقها رجال الأمن فى المدينة ، وانصرف الغوغاء إلى نهب مافى مستودعات الحكومة من أرزاق وذخائر وعتاد ، وأصبح الناس فجر يوم الخميس (٢١ يوليو) والقتلى ممددة فى الشوارع والأزقة ، والجرحى محمولون إلى بيوتهم ومستشفياتهم

(١) ترجم له المؤلف فى الأعلام

ذلك حديث الأهلين . وأما الحكومة ،وكبيرها الملك فيصل ، فقد حسبت أنها أحسنت الصنع بتفريق ماكان مجتمعاً لها من قوة الجيش ، وسارعت إلى إعلام المعتمد الفرنسوى فى دمشق (الكولونيل كوس) بقبولها ما أراده الجنرال غورو . . إلا أنها لم تلبث أن تلقت جواب خطابها على غير ماكانت تخال . . كان الجواب تقدم القوة الإفرنسية المعسكرة فى « مجدل عنجر » على مقربة من « رياق » إلى الشرق . وعلمت حكومة الملك فيصل أن زلفاها من المغير ، لم تعد تنفعها ، فبادرت إلى استماع ما يقوله الملك فإذا هو يعلن الحرب . . !

أعلنت الحرب بين دمشق والجيش الافرنسى . . وليس فى ساحة ميسلون ، جبهة الدفاع ، غير مئة وستين جندياً لم يبرحوا أماكنهم حين تسريح الجيش العربى السورى ، ترافقهم كوكبة من الهجانة ، ومعهم ستة مدافع من عيار ٧,٥ ورشاشات لايزيد عددها على الأربع . . !

هذه هى القوة التى أعلن بها الملك فيصل حرب سورية على الافرنسيين وهى القوة نفسها التى ثبتت فى خنادقها ست ساعات أمام الجيش الزاحف المؤلف من أربعة آلاف جندى افرنسى وبين يديه ما استطاع نقله من عدد وذخائر ؟

اللهم ، وإن أنس لاأنسى اندفاع جماعات الأهلين ، هذا يحمل زاد يومين ، وذاك جعبة رصاص ،وذلك رافع علماً يقسم به أن سيموتدونه ؟

كانت وقعة ميسلون ، وتغلب الأكثرون ، وأصبح يوم الأحد (٢٥ يوليو ٩٢٠) وقائد الحملة الافرنسية (غودن) يستعرض جيشه فى شوارع دمشق وساحاتها ؟ .

ليس من شأنى هنا أن أعدد ما اقترفه قادة ذلك الجيش من قتل الأسرى صلباً على جذوع الشجر ورمياً بالرصاص وما حاولوا أن يكذبوا به على الخلق من بثهم صنائعهم فى بعض الفنادق ليرشقوهم بالرياحين ، فيقال : دمشق تفتح صدرها للمستعمرين . . ؟

وليس من شأنى أيضاً أن أسرد تفاصيل تلك الفاجعة ومقدماتها ونتائجها فى هذا الكتاب . ولكن حسبى أن أقول : إن صديقاً لى لاأسميه الآن ، رآنى عصر ذلك اليوم ، وقد خرجت لأبصر ما استقرت الحال عليه ، فأخبرنى بأن قائمة أسماء أطلع عليها خلسة ، يريد المحتلون سوءاً بمن فيها ، وأنه قرأ اسمى فى منتصفها . وحذرنى أن أبيت تلك الليلة فى منزلى . فشكرته ، وأطعته ؟

فى القطار :

أصبحت يوم ٢٦ يوليو (تموز (١٩٢٠ متهيئاً للسفر ، أخشى أن تقع على عين واش فيصدنى عن سبيلى ، فبعثت بحقيبتى إلى القطار ، وأقبلت — وهو على وشك السير — فلم يكد يهتز اهتزازة الانطلاق حتى كنت فيه ، وفى الصدر وساوس ، وفى النفس اضطراب ، لولا أن هون على علمى بأن يد الغاصب لم تزل بعيدة عن إدارة تلك السكة — سكة الحجاز — وأن المحطة لم تبرح فى مأمن من سيطرته حتى تلك الساعة .

شعر بى شاب ، أذكر أنى رأيته قبل ذلك ، فأقبل على مسلماً ، والقطار يجرى متجهاً نحو « محطة القدم[1] فعرّفنى أنه أحد موظفيه ، ودعانى إلى الطمأنينة ؟ فعجبت لأمره وتظاهرت بأن ليس هناك ما يدعو إلى الاضطراب . ولكن سرعان ما أدركت أنه واقف على دخيلة أمرى ، وأنه أخوف علىّ منى فنبهى إلى أن ضابطاً وأفراداً من الفرنسيين قد نيط بهم النظر فى راكبى هذا القطار ، وأنهم ربما كانوا ينتظرونه فى القدم ، وأردف ذلك بقوله : أما أنا فقد هيأت لك مكاناً تختبىء فيه . قلت : أين ؟ فأشار إلى موضع الفحم فى القاطرة . . وانصرف بعد أن شكرت له غيرته .

كنت لابساً فى ذلك اليوم بذلة بيضاء ، فجعلت أنظر إليها وأتساءل فى نفسى : كيف تكون هذه بعد دخول بيت الفحم ؟ ؟ وغرقت فى بحر من الخواطر والهواجس فإذا القطار يصفر ، فنظرت ، فإذا نحن على مقربة من محطة القدم . . . فعاودنى الذعر ؟

(١) أول محطة بعد دمشق فى خط دمشق — حيفا .

تخطينا المحطة وليس فيها افرنسي . وجاءنى ذلك الشاب يهنئنى . فسألته عن اسمه ، فلم يكتمه ، وأطرد لنا السير فى سهل « الكسوة »[١] الرحيب ، إلى أن قاربنا « المسمية »[٢] فلاح لنا عن بعد شبح جمع كبير من الخيالة قد اكتنفوا الخط الحديدى من جانبيه ، ودنونا ، فشهدنا بنادقهم ، وهدفها القطار ، فعلا ضجيج الركاب من الخوف ، وكان إلى جانبي ضابط عربى — من جيش الشريف — حورانى الأصل ، رأى مارأى الناس فألقى « فيصليته »[٣] عن رأسه ، وظهرت وفرته وجدائله[٤] وأطل من النافذة يصيح بلهجة القوم ، مشيراً لهم — والقطار متثاقل فى سيره — : أن كفوا ؟ فتعادى بعضهم نحونا ، وقد عرف صاحبنا أحدهم فناداه بإسمه ، فأجابه ذلك صائحاً « وايش جابلك[٥] معهم ؟ » فصاح به : « ماهنا حد ؟ » — وكنا قد بلغناهم . فأمالوا أفواه بندقياتهم واكتفوا بنظرات كانو يلقونها على كل عربة من عربات القطار .

وعرفنا بعد ذلك أن جمهور « الحوارنة »[٦] كان قد علم بما صارت إليه حال دمشق ، وأصبح يترقب زحف الافرنسيين إلى احتلال حوران ، فتهيأوا للدفاع ، وأزمعوا اعتراض قطار هذا اليوم إن كان فيه أحد منهم ووصلنا بعد نحوساعة إلى «أذرع »[٧] وقد بدأت مخاوفنا تتبدل أمناً ، وهواجسنا تنقلب اطمئناناً ، فجددها حادث لم يكن فى الحسبان ؟

ذلك أن خصاماً قديماً كان بين طائفتين من قاطنى بلاد حوران ، اتفق أن رجلا من إحداهما كان راكباً معنا فنزل يريد دخول القرية فاعترضه آخر من الطائفة الثانية ، فتنازعا وتلاطما ، وعمدا إلى السلاح ،

---

(١) بين دمشق وحوران جنوباً تبعد محطتها عن دمشق ٢٥ كيلو متراً .

(٢) محطة فى جنوب دمشق تبعد عنها ٥٦ كيلو مترا .

(٣) الفيصلية : قبعة كالخوذة كان يلبسها ضباط العرب فى سورية أيام امارة فيصل .

(٤) الجديلة فى عرف بادية الشام اليوم : الضفيرة . وفى اللغة : جدله أحكم فتله .

(٥) أى شيء جاء بك .

(٦) سكان حوران .

(٧) محطة فى حوران تبعد ٩٦ كيلو متراً من دمشق .

فانتصر للأول فتى كان لم يزل فى القطار فشهر مسدسه وأطلق منه بضع طلقات تهديداً لخصم رفيقه ومن كان قد انضم إليه يعينه ، فتألب عليهما جمع ، فاستدبر الرجلان القطار ، وتتابع إطلاق الرصاص حولهما ، وارتفع الصراخ وخشي الراكبون. وصاح صائح فينا « يارايط[1] ياشباب ؟ ».. فرأينا الحكمة فى ما رأى ، فأهوينا منبطحين ، نعفر ثيابنا بتراب الأقدام ؟ خشية أن تعلق بأحدنا رصاصة طائشة تلدها الفوضى العمياء؟. وانحدر أناس من القطار ، لايهتدون إلى أين يغتدون ؟ ومضى آخرون إلى سائقه فهددوه بالنار إذا هو لم يمض بقطاره ، فاضطر إلى موافقتهم وبرح بناموقف الفتنة . .

كل هذا حدث فى بضع دقائق وكان الوقوف المعتاد فى هذه المحطة ربع ساعة لحمل ما يراد نقله من حبوبها . ولم نبتعد عنها مسافة ٣٠٠ متر حتى رأينا دخاناً كثيفاً تصاعد من خلفنا وسمعنا دوياً لم نعرف حقيقته إلا بعد أن بلغنا المحطة التالية « خربة الغزالة »[2] وتقاطر علينا من بها مبتهجين بنجاتنا قائلين : إن لغماً قد انفجر بعد مضيكم فنسف خط المحطة . فحمدنا الله وذكرنا فضل حادثة الخصام التى فررنا منها وتمثل أكثرنا بقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » !

واستأنفنا المسير فبلغنا « أذرعات »[3] وأهل الشام يسمونها « درعاً » وأهلها والبداة يقولون « درعاة » فإذا مطعمها غاص بطائفة من أحرار سورية . علمت منهم أن الملك فيصلا عاد صبيحة اليوم نفسه إلى دمشق بعد أن كان قد انسحب منها إلى درعاة (أذرعات) فقلت : لعل له عذراً وأنت تلوم ؟

تناولت طعام الظهر مع طليعة المهاجرين . . وحدثت بعضهم بما شاهدته فى طريقى من دمشق . فلم يشك أحد منهم في أن فوضى جوران ستتصل

---

(١) لفظه تركية أصلها « يره ياط » أي « نم على الارض » ويريد بها العسكريون الانبطاح على البطن .
(٢) على ١١١ كيلو متراً من دمشق جنوباً .
(٣) على ١٢٨ كيلو متراً من دمشق جنوباً .

بأذرعات . فاتفق أكثرهم على الرحلة إلى حيفا . فقصدناها يزيد عددنا على العشرين ، بيننا خالد الحكيم ، وأمين معلوف ، وسعيد ، حيدر ، وفؤاد سليم وبهجة الشهابى ، وتوفيق اليازجى ، ورياض الصلح وتوفيق مفرج ومعين الماضى ومضت لنا ساعات فى القطار إلى أن بلغنا « سمخ » وهى الحد الفاصل بين المنطقتين الشرقية والجنوبية من سورية المجزأة . وإن شئت فقل الحد الفاصل بين مستعمرتى فرنسا وانكلترا فى سورية الممزقة . . ؟

طال وقوف القطار فى « سمخ » المحطة الجافة القاحلة ، فانتظرنا مكرهين ، مع المنتظرين ، وجاءنا بالأخبار من لم نزوّد . . فعلمنا أن حكومة حيفا قلقت لدنو هذا الوفد الكريم من أرضها . . فلم يسرها أن يسرح فى مغانيها ثوار فوضويون هايمون مطاردون منكوبون . . والتمستْ وسيلة للخلاص من شرهم . . فلم تجد ، فأوفدت لاستقبالهم سبعة عن عيونها وأرصادها يقال إن أحدهم مدير شرطة (بوليس) حيفا لاوفد ترحيب وتأهيل وتسهيل ؟ بل وفد استراق حديث والتماس هفوة وتحسس خبر ؟

قدم الوفد أفراداً غير مجتمعين ، وقد تهيأنا لاستقبالهم بانقسامنا إلى أربع جماعات لكل جماعة منا عمل ، فريق يمثل فصلا من رواية « العدل أساس الملك » من روايات كشكش . وفريق يتناشد الأشعار . وفريق يتغنى بأنواع الغناء « البلدى » . وفريق يراقب حركات الوفد القادم . وجعلنا آية دخول «أحد القادمين» فى إحدى جماعاتنا أن ترتفع أصواتها بما كانت عليه ..

وكان الظن أن سنلقى رجالا من ذوى المظاهر الخداعة يندسُّون بيننا ، فرأينا عمالا مساكين أحدهم مشقوق القميص وليس على منتصفه الأعلى سواه . والثانى منتفخ البطن وقد لبس سروالا رمادى اللون رث الشكل . وبقية الجمع على هذا النمط البديع . . فاستمررنا فى أعمالنا . وهم مبهوتون متحيرون . ولو نطقت ألسنتهم لسمعناهم يقولون : أيطرب هؤلاء بالتمثيل والغناء وقد ذهبت بلادهم وضاع طارفهم وتلادهم ؟ أم تراهم كسواهم من فوضوبى هذا العالم لانظام يجمعهم ، ولا قانون يردعهم ؟ أم هم قوم لايشعرون ؟

لم تكن مدة السير من سمخ إلى حيفا أكثر من ساعتين . ولقد برحنا الأولى منذ صعد إلينا أضيافنا أو مضيفونا . فبلغنا الثانية والليل ينتصف، بتنا بقيته فى بعض الفنادق . ثم تفرقنا فى الصباح ، زائرين ومزورين ، وجائلين ومنزوين .

فى حيفا :

رافقنى فى حيفا صديق حميم ؟ مغرم بمحادثتى ؟ مغرى بملازمتى ؟ مولع بمماشاتى زعم أن صداقتى معه غير حديثة العهد بل ترجع إلى تاريخ سرد لى مبادئه وخواتيمه . . ولكن ، قبح الله ذاكرتى فقد خانتنى . فكأنى لم أعرفه ولم أره قبل رحلتى هذه . وقد حاولت كثيراً ، وكثيراً حاولت كما يقول بعض كتابنا اليوم — أن أذكر شيئاً عن هذا الصديق العتيق فى أيامى الخالية فلم ألهم . فعدت إلى تقدير أن اجتماعنا كان فى غير هذا الجيل ولعله فى صورة غير صور البشر على رأى القائلين بالتناسخ . . ؟

رأيت فى هذا الصديق حباً للأدب وإكراماً للضيف عجيبين . فقد بلغنى وأنا لا أزال فى حيفا أن معروفاً الرصافى الشاعر المشهور قد أرست به إحدى البواخر فى ذلك الثغر وأنه لاينوى النزول به . فعزمت على زيارته . فنهضت باكراً . ومشيت متوارياً أريد الشاطىء فكأنى والصديق العتيق على ميعاد ! . . .

قال : أين وجهتك ؟ فقلت البحر ؟ قال : وما تصنع ؟ قلت : أزور صديقاً لى فقال : ومن هو ؟ قلت الرصافى — وما أتممتها ، حتى صاح صيحة خلت أن الله قد أراحنى منه بالإغماء عليه فيها . . وأردفها بقوله : الرصافى الأديب ، الشاعر هنا ؟ هلم إلى زيارته . . فلنخض البحر للتمتع بأدبه . . فمضينا . .

ووقفنا على الشاطىء فأردت أن نركب مع جماعات الراكبين . فأبى على ذلك وأسرع فنادى صاحب إحدى السفن الشراعية قائلا : الانفراد أفضل ؟ تفضل ياسيدى ؟ ليس من الجائز — وأنت ضيفى ؟ — أن أوافقك

على الجلوس فى ذلك المزدحم . فتمتمت كلمات ، ونزلنا بعد أن دفعت الأجرة جنيهاً . ولقينا الرصافى ، فسلمنا وتكلمنا والتحفظ ملء أفواهنا . . ؟

سألنى معروف عن بيت قلته فى دمشق :

لَا التاجُ يَنْفَعُه وَلَا اسْتِقْلَالُهُ إنْ لَمْ يُحَلَّ وِثَاقهُ وَعِقَالُهُ

فقال : لقد سمعت هذا البيت وعجبت منك كيف لم تردفه بثان ، فقلت : بل هو مطلع قصيدة . قال لم أسمع غيره وقد زدت عليه هذا البيت :

مِلِكٌ نزَانَزْوَ الغُرَابِ وَإنَّما فى الرَّأْسِ لَا فى رِجْلِه عَقَّالهُ !

فضحكت لما فى بيته من النكتة وانصرفت مع صاحبنا . . مودعين ؟

الصديق العزيز لم يكتف بأن لازمنى بضعة عشر يوماً فى حيفا ، بل أراد أن يخدمنى فى غيرها أيضاً . . وهذه غاية الوفاء والإخلاص فى الود ؟ ؟

علم منى أن فى نفسى الرحيل إلى مصر فوثب متطوعاً فكتب رسالتين إلى رجلين زعم أن له بهما صلة ود فى مصر ، أوصاهما بى ؟ فتناولت الرسالتين متظاهراً بالشكر . ولم ألبث أن مزقتهما بعد أن قرأتهما . .

وفى حيفا علمت أن الملك فيصلا ماكاد ركابه العالى يهبط دمشق آيباً إليها من « درعاة » حتى تناول فى قصره بأقصى « المهاجرين »[1] كتاباً بالافرنسية هذه ترجمته :

« دمشق فى ٢٧ يوليو ١٩٢٠ .

« من الكولونيل تولا[2] رئيس البعثة الفرنسوية إلى صاحب السمو الملكى « الأمير فيصل بدمشق :

« أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار الحكومة الفرنسوية وهو أنها ترجو « منكم مغادرة دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وبطانتكم « وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يبرح محطة الحجاز غداً « ٢٨ يوليو الساعة الخامسة . وأرجو ياصاحب السمو الملكي أن تقبلوا مزيد احترامى

ـ تولا ـ

---

(١) من احياء دمشق .

(٢) كان « تولا » مرافقاً (ياوراً) للملك فيصل .

ولما لم يكن لجلالته مناص من الموافقة ، أذعن مضطراً ، وبرح دمشق صباح ٢٨ يوليو متجهاً إلى درعاة حيث تلقى من رئيس وزارته (قبل ثلاثة أيام) علاء الدين بك الدروبى برقية يقول فيها :

« إن السلطة العسكرية تبلغ جلالتكم أنها تطلب خروجكم من حوران »، وأنها وضعت تحت أمركم قطاراً فإذا لم تفعلوا ذلك ضربت قنابل طياراتها (قرى حوران) . .

فرد عليه رئيس أمناء جلالته قائلا :

« إن جلالة الملك لايريد أن يصيب الأهلين ضرر ما بسببه » .

وتبع ذلك تحليق عدد من الطيارات الأفرنسية فى سماء حوران ألقت على أهلها منشوراً تنذرهم فيه بوجوب رحيل (الأمير) فيصل قبل انقضاء عشر ساعات وإلا أصلتهم نارها الحامية وخربت قراهم وبيوتهم . . فأبرق جلالته إلى حكومة دمشق بعزمه على مغادرة حوران مساء السبت (٣١ يوليو سنة ١٩٢٠) وأصبح يوم أول أغسطس (آب) فى حيفا .

أخبرنى من لا أشك بصدقه أنه رأى الملك فيصلا يتمشى فى منزله بحيفا ويتمثل قائلا :

أُعْطِيتُ مُلكًا فَلَمْ أُحْسِنْ سِياسَتَهُ
وَكلُّ مَنْ لَا يَسُوسُ الْمُلْكَ يَخْلَعُهُ..!

من حيفا إلى القاهرة :

عزَّ على حكومة حيفا بعد أن وقفت على حقيقة وفدنا الكريم ، واختبرت أخلاقه وآدابه مما نقله إليها أمثال صديقى — العتيق — أن تأذن لنا بالانصراف والبراح . وأبت إلا التعلق بأذيالنا واستبقاءنا إلى حين ، فكان مثلها معنا مثل الإنسان يبكى يوم يرى العالم ويبكى يوم يفارقه ؟

ألححنا بسؤالها الإذن فلم يُجد الإلحاح ، وتوسط فى الأمر ناس فلم ينفع التوسط ، قلنا : ومتى يحل العقال ؟ فقالت : **حتى يأذن الله واللنبى**[1] . .

---

(١) اللورد اللنبى المندوب البريطانى السامى بمصر ، وكان حاكم حيفا قد كتب اليه يسأله عما يصنع بالقادمين مع الملك فيصل وقد ترجم له المؤلف فى كتاب الاعلام .

فعمدت إلى الحيلة ، وقد سئمت الانتظار والتريث ، ورأيت من آثار برودة الدم الانكليزى مالا طاقة لى به ولاصبر عليه . . فتهيأ لى بعد التفكير والكد ، والتشمير عن ساعد الجد ، أن أختلس السفر خلسة والقوم فى غفلاتهم ، فكتمت الأمر إلى قبيل نصف الليل ، وحملت حقيبتى مهرولا إلى موقف القطار ، فقطعت جوازاً بالركوب (تذكرة سفر) فى الدرجة الأولى ، وما كانت عادتى أن أركب فى غير الثانية ولكن خلو الثانية من سرير للنوم ألجأنى إلى اختيار الأولى . . فنمت !

واستغرقت فى النوم — أو فى السرير — حتى أصبح الصباح واستوى المسافرون على مقاعدهم فى القطار ، وأنا مزمل بدثارى أراقب الذاهب والآيب أكاد أحلم يقظانا كما يقول السيد البكرى [1] شفاه الله :

قَدْ كنْتُ أَحْلمُ قَبْلَ اليَوْم فى سِنَة
فَصِرْتُ أَحْلُمُ بَعْد اليوْم يقْظَانَا !

تظاهرت بالنوم خشية أن يرانى من يعرفنى ولاسيما الصديق العتيق . . فيستوقفنى قبل أن أستلم الطريق ؟

وتحرك القطار فتحركت . ومشى فجلست . وليس فى خبر الرحلة من حيفا إلى القاهرة ما يجدر بى أن آتى عليه إلا وقفة صغيرة فى القنطرة : للحكومات حق فى أن تسأل الركاب عن الأماكن التى سينزلون بها . وفى عملها هذا فائدة للأمن وللصحة العامة . ولكن القوانين قد لاتراعى الأحوال التى يسمونها « الاستثنائية » فهى تعتبر كل قادم على بلد عارفاً بمحله ومرتحله منظماً برنامجه ، حاسباً حسابه . . ولا تلتفت إلى أن عدداً يكاد يبلغ حد الوفرة من المسافرين ، يضربون فى البلاد ضرب المقامر ، وهمهم أن يلقوا عصا التسيار ويبلغوا وجهتهم من الديار؟ وهناك لايبالون

(١) السيد توفيق البكرى شاعر فحل وأديب كبير أصيب بمرض فى أعصابه فكان هذا البيت آخر ماقاله من الشعر قبل دخوله مستشفى « العصفورية » فى بيروت ، وقد ترجم له المؤلف فى كتابه « الاعلام »

أين ينزلون . يأتون المدينة فيعترضهم صاحب فندق فيمضي بهم ، أوصاحب بيت فيمضون معه ، أويلتمسون فى فجاجها مأوى يؤويهم ماداموا فيها ..

ولقد كنت لسوء الحظ من الفريق الثانى فى رحلتى هذه — فقط — فأقبل المفتش يسألني أسئلته المعتادة حتى انتهى إلى السؤال عن المكان الذى أنوى النزول فيه . فحرت بماذا أجيبه . . وترددت قليلا . . ثم لاح لى أن أحد من أعرف فى حيفا كان قد سمى لىفندقاً بالقاهرة اسمه « ناسيونال » وآخر سمى لى فندقاً ثانياً اسمه « الكلوب المصرى » فذكرتهما للمفتش . فعجب ثم ابتسم ؟ فسألته عن سبب عجبه فقال : لقد سميت لى فندقين مختلفين فى حالها كل الاختلاف . وأبان لى ما بينهما من الفرق فى عرف المسافرين وأهل مصر فاعتذرت إليه بجهلى المكان الذى أختاره بعد بلوغ القاهرة . فقبل عذرى ولكنه (مراعاة للأصول) قيدنى فى زمرة من سينزلون فى « ناسيونال » وإن لم أزمع ذلك . .

وليست هذه الأحدوثة وحدها مما يدل على طرائق الموظفين فى تطبيق النظم والقوانين ، فإن أمام الباحث مواقف كثيرة يعلم منها أن معظم ما بين أيدى الناس من أنظمة الحكومات إنما وضع ليكون دليلا للموظف لاقانوناً . وأن باب الاجتهاد واختيار الأصلح لايزال مفتوحاً على مصراعيه أمام الموظفين.

ومن هنا يتبين ما على رؤساء الأعمال من الواجب الكبير فى اختيار ذوى النظر والدراية والأمانة من جمهور المتقدمين لتسلم الوظائف وتسنم المناصب ، وفى صغار الأمور صور من كبارها .

اجتزت القنطرة . وأقبلت على القاهرة . والدهشة من مناظرها الأولى قابضة على مقاليد عقلى . وإذا بصوت يرتفع منادياً باسمى . فانتبهت وأطللت من النافذة محدقاً فى من أرى . فسرى عنى بعض ما أنا فيه لقاء صديقى نصوحى البخارى معتمد حكومة سورية التجارى بمصر وأمينه (سكرتيره) عابدين الحشيمى . فلم أرفع عنهما بصرى حتى قرقرار القطار. واعتنقنا — على العادة — تسليماً وتقبيلا ؟

بت تلك الليلة فى الطبقة الخامسة من الفندق الخديوى (كيديفيال) ونهضت فى الصباح عاشر أغسطس (آب) سنة ١٩٢٠ فتجولت فى ما حول ذلك النزل من الشوارع والأسواق أرى ما يراه كل غريب مثلى هبط مصر قبل أن يعرف غيرها من كبريات المدن والعواصم . والخوف من أن أضل الطريق يشغلنى عن رؤية كثير مما أنظرُ إليه . .

فى القاهرة :

ليس التعريف بالقاهرة مما يستطرفه القارىء فأفرد له جانباً من هذا الكتاب . وله أن يطلع إن شاء على ألوف المصنفات فى لغة العرب وغيرها ، مما أشبع القول فيه بحثاً وتحقيقاً فى تاريخ حلقة الاتصال بين مدنية المشرق والمغرب فى عصرنا الحاضر ، ووصفها والتغنى بجمالها والإشادة بذكرها . أما أنا فما يعنينى إلا أن أنقل عن « مفكراتى » بعض ما اشتملت عليه مما يلذ غيرى ويفكهه وقد يفيده ؟

المطاردة

نادى باعة الصحف فى القاهرة معلنين عما فى صحفهم بأصواتهم المختلفة : « حكم الإعدام بالشام » فدعوت أحدهم فتسابقوا إلى ، ديدنهم فى كل يوم ، فتناولت إحدى تلك الصحف من أحدهم وأجلت فيها نظرى فاسمع — أيها القارىء الكريم — ما قرأت :

دمشق فى ١٢ أغسطس ١٩٢٠ .

تناقل الناس يوم أمس نبأ فزعوا منه بآمالهم إلى الكذب ، ومالبث هذا النبأأن أذيع حتى أخذ الناس يزدحمون أمام الجدران ليقرأوا إعلاناً علق عليها وفيه :

« قرر المجلس العسكرى التابع للفرقة الثالثة من الجيش الافرنسى فى الشرق » « والمنعقد فى دمشق فى ٩ أغسطس أن الأشخاص الآتية أسماؤهم مجرمون » « بالاتفاق والتحريض ، لكونهم عملوا الدسائس والتفاهم مع أعداء الحكومة ؛ » « الافرنسية لتسهيل مقاصدهم . لذلك حكم عليهم غيابياً

بالإعدام ومصادرة أملاكهم » « ويعتبر هذا الحكم نافذ الإجراء منذ ١٠ ١٠ أغسطس ١٩٢٠ » .

وهنا أورد الكاتب أسماءهم وأعقبها بقوله :

تلا الناس هذه الأسماء فتولاهم الوجوم ، وأخذوا يتعجبون لتقلبات الأيام وعبر الزمان ، ويعملون الفكرة فى ماهم مقبلون عليه من الحوادث الجسام . وقد عقد المجلس العسكرى جلساته فى دار المؤتمر السورى . وليس أصحاب هذه الأسماء هم المطلوبون وحدهم ، بل هناك أسماء أخرى تعد بالمئات فيها الدنادشة والعامليون وغيرهم اهـ .

وإليك الأسماء مرتبة كما جاءت فى الأصل مع التعريف بأصحابها :

١ — الشيخ كامل القصاب : من علماء الدين الناهضين وعضو فى اللجنة الوطنية بدمشق .

٢ — على خلقى : من ضباط الجيش التركى ثم العربى .

٣ — أحمد مريود : شاب متعلم ناهض من زعماء الوطنيين .

٤ — الأمير محمود الفاعور : زعيم عشيرة الفضل فى بادية الشام .

٥ — فؤاد سليم : من ضباط الجيش العربى

٦ — صبحى الحضرا : من ضباط الجيش العربى .

٧ — صبحى بركات : من زعماء سورية الشمالية .

٨ — منح هارون : مندوب اللاذقية فى المؤتمر السورى .

٩ — عونى عبد الهادى : أمين خارجية الحكومة السورية العربية .

١٠ — شكرى الطباع : تاجر . ومن أعضاء اللجنة الوطنية فى دمشق

١١ — سليم عبد الرحمن : من أهالى طول كرم بفلسطين .

١٢ — عمر البهلوان : تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية فى دمشق .

١٣ — عثمان قاسم : كاتب صحافى جرىء .

١٤ — سعيد حيدر : من علماء الحقوق ومندوب بعلبك فى المؤتمر السورى

١٥ — عبد القادر سكر : تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية فى دمشق .

١٦ — خليل بكر ظاظا : من ضباط الجيش العربى .

١٧ — حسين رمضان : من زعماء الأكراد فى دمشق .
١٨ — الأمير عادل أرسلان : مستشار الملك فيصل . وأحد الزعماء المعروفين
١٩ — محمد إسماعيل : قائد فرقة حلب فى الجيش السورى العربى .
٢٠ — رشيد طليع : مدير داخلية الحكومة السورية العربية ثم والى حلب
٢١ — إحسان الجابرى : رئيس أمناء الملك فيصل .
٢٢ — أحمد قدرى : طبيب الملك فيصل الخاص .
٢٣ — رفيق التميمى : مؤرخ . ومن أعضاء المؤتمر السورى .
٢٤ — توفيق اليازجى : صاحب جريدة الدفاع .
٢٥ — رياض الصلح : وجيه متعلم من المشتغلين فى القضية العربية .
٢٦ — توفيق مفرج : كاتب . من أعضاء المؤتمر السورى .
٢٧ — خير الدين الزركلى : صاحب جريدة المفيد — ومؤلف هذا الكتاب
٢٨ — محمد على التميمى : من كبار المحامين .
٢٩ — بهجة الشهابى : مدير شرطة دمشق .
٣٠ — نبيه العظمة : مدير شرطة حلب .
٣١ — شكرى القوتلى : من وجوه دمشق ومتعلميها .
٣٢ — خالد الحكيم : مهندس . وعضو فى المؤتمر السورى .
٣٣ — ياسين دياب : تاجر . ومن أعضاء اللجنة الوطنية فى دمشق .

وإليك أسماء من تناولهم الحكم نفسه ممن لم يذكروا فى هذه القائمة :

٣٤ — أحمد سامى السراج : صاحب جريدة العرب فى حلب .
٣٥ — منيب الناطور : صاحب جريدة الراية فى حلب .

وشمل الحكم نفسه الآتية أسماؤهم من أهالى جبل عامل :

٣٦ — صادق حمزة .
٣٧ — محمود أحمد بزى
٣٨ — رياض محمد حسن فرحات .
٣٩ — عبد المجيد محمد بزى

٤٠ — محمود فرح سليمان
٤١ — موسى بوزقلى .
٤٢ — الشيح عبد الله عز الدين .
٤٣ — طرفه حاج فياض شراره
٤٤ — محمد سويدان .
٤٥ — أدهم خنجر .
٤٦ — على حرب .
٤٧ — محمود قاسم .
٤٨ — عبد الحسين سرور .
٤٩ — نمر بليوز .
٥٠ — محمد تامر .
٥١ — سعيد يوسف تامر . .

وحكم بالحكم نفسه على زعماء الدنادشة من سكان « تل كلخ » :

٥٢ — مصطفى العبد الله .
٥٣ — أسعد الفياض .
٥٤ — خالد الرستم
٥٥ — عبد الله الكنج
٥٦ — حسن الابراهيم
٥٧ — أسعد الابراهيم
٥٨ — ذباج الأحمد

وهناك أحكام بالنفى والمصادرة كثيرة ، أتى على بعضها مكاتبوا الصحف ، حسبى أن أشير إليها .

جن جنون الافرنسيين فى سورية ؟ فلم يكفهم أن كانوا الجناة على استقلالها ، القاتلين حريتها ، الوائدين نهضتها ، العائقين لها عن السير فى سبيل الحياة ، الباذرين فى قلوب بنيها بذور البغضاء والشحناء . . بل زادوا

على ذلك كله مطاردة من شاء لهم الهوى أن يطاردوه من شبان سورية وأحرارها فأعلنوا أحكامهم الجائرة ؟

ليت شعرى ! أذلك مصداق البلاغ المشترك الذى أذاعته الحكومتان البريطانية والفرنسوية يوم ٧ نوفمبر ١٩١٨ — ونصه :

« إن الغرض الذى ترمى إليه فرنسا وبريطانيا العظمى بمواصلتهما فى الشرق تلك الحرب التى أثارها الطمع الألمانى هو تحرير الشعوب التى طالما ظلمها الترك .تحريراً نهائياً . وتأسيس حكومات ومصالح أهلية تبنى سلطتها على اختيار الأهالى الوطنيين لها اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم . وتنفيذاً لهذه النيات قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح أهلية فى سورية والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما فى البلاد التى يواصلون العمل لتحريرها . وعلى مساعدة هذه الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلا . . والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من النظامات . . وإنما همهم أن يحققوا بعونهم ومساعدتهم النافعة . . حركة الحكومات والمصالح التى ينشئها الأهالى لأنفسهم مختارين حركة منتظمة . وأن يضمنوا لهم قضاء عادلا واحداً للجميع . وأن يسهلوا انتشار العلم فى البلاد وتقدمها اقتصادياً بتحريك همم الأهالى وتشجيعها . وأن يزيلوا الخلاف والتفرق الذى طالما استخدمته السياسة التركية . . ذلك هو ما أخذت الحكومتان الحليفتان على نفسيهما مسؤولية القيام به فى البلاد المحررة » . اهـ

ليت فى الناس من يستطيع التوفيق بين مواد هذا البلاغ — على ما فيه من عرج وعوج ! — وبين ما تقوم به إحدى تينك الحليفتين فى أرق قطر سمتاه محرراً ؟

لندع هذا وذاك . ولنعد إلى ما كنا فيه . فمجال الجدال واسع ، وميدان المناقشة فسيح . وفى مساوىء الحليفتين هنا وهناك ما فيه الغنية عن الإسهاب .

قرأت خبر الحكم بالإعدام . وتأملت فى أسماء المحكوم عليهم . ورجعت إلى ذاكرتى أسألها عمن بقى فى قبضة المحتلين ومن كتبت له النجاة . فابتهجت بالنازحين وأشفقت على الباقين وأدركت أن هذه القائمة هى التى اطلع عليها من أو عز إلى بالرحلة يوم احتلال سورية . فهنأت نفسى بالسلامة إذ كنت من الناجين ؟

الحكم الغيابى بالإعدام رهيب الوقع على بعض النفوس . مثير لكامن الضعف فيها . ولكن سرعان ما يعلم المحكوم به عليه أن للوهم صولة وتضمحل . وللإرهاب دولة وتدول . زد على ذلك أن السورى بعد أن عرضت أمامه المشانق أربع سنين متواليات ، وصلب عليها من اخوانه وأخدانه العدد الوفير لم يعد حكم الإعدام مما يخيفه أويثبط عزمه . فليلتمس محتلو سورية طريقة ثانية لبث الرعب فى الأفئدة ، وإماتة الشعور الحساس فى النفوس ، وقتل الإيمان الوطنى فى القلوب . . ليلتمسوا أسلوباً آخر لايصيب الأجسام فإنها ذرات تفترق وتجتمع ، ولكن يصيب الأرواح فإن فيها المقاتل . . وهيهات ؟ عبثاً يحاولون وسدى ما يعملون . . ؟

أقمت فى القاهرة نيفاً وشهرين توافد فى خلالهما عليها أكثر من برح سورية إثر احتلال الافرنسيين لها . واتفق أن خطر لى ولزميل لى فى الصحافة أن نكتب خطاباً للملك حسين(١) ، نعرفه فيه ببلوغنا مصر ونسأله عما هو مزمع عمله لمقاومة ما أحدثه الاحتلال فى سورية من سوء المغبة . فكتبنا . .

ومضت أيام يسيرة فإذا بصديق لى يخبرنى أن معتمد حكومة الحجاز فى مصر يبحث عنى ويريدنى . ولم أكن ممن زاروه قبل ذلك اليوم . فذهبت إليه ، فعلمت منه أن الملك حسيناً يدعونى لضيافته ويسألنى هل أقبل الدعوة أم أوثر الإقامة بمصر . فأجبته بالانشراح إلى مشاهدة الأماكن المقدسة وزيارتها . فأبرق إليه بذلك منبئاً جلالته بأن سفرى سيكون فى الباخرة «منصورة» وأننى سأبرح السويس فى ٢١ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠ وقال: تهيأ . .

---

(١) ترجم له المؤلف فى كتابه « الأعلام » وأنظر صفحة ١٦٥/١٦٨

لم أكن أجهل أن أول شيء يجب على مزمع السفر أن يفكر فيه هو الحصول على جواز يبيح له الخروج من بلاد حكومة والدخول فى ثغور سواها ، وما كنت لأطمئن إلى الجواز الذى تخطيت فيه حدود فلسطين . فراجعت معتمد الحجاز وأوضحت له أن اضطرارى للإسراع فى مغادرة دمشق والخوف من أن ينالنى أذى حكومتها قبيل السفر . قد حالا دون الفوز بالجواز المقبول . ورجوت منه أن يحشرنى فى سواد التابعين لحكومته الهاشمية . فأشار إشارة السرور والرضى . وأمر فأخرج لى جوازاً دل على أننى حجازى النسبة (التابعة) دمشقى المولد ، سعيت به إلى دار الجوازات فى القاهرة فلم تسعفنى بتصديقه وإمضائه . وحجة موظفها فى ذلك ادعاؤه المعرفة الخاصة بى . فعاقنى عمله يسيراً وهيأ الله لى فرجاً اجتزت به المضيق فلم أبرز الجواز إلا فى جدة ؟

من القاهرة إلى مكة :

هممت أن أبرح القاهرة صباح ٦ محرم سنة ١٣٣٩هـ (٢٠ سبتمبر ١٩٢٠م) لإدراك الباخرة « منصورة » قبل موعد سفرها ، وكنت مقيماً يومئذ فى مصر الجديدة (هليوبوليس) فدعوت من حمل لى حقيبتى وخرجت أريد القطار الكهربائى (المترو) حتى بلغته وهممت بصعوده فأبى مفتشه علىّ أن أصحب معى الحقيبة ، معرضاً عن كل تصريح وتعريض ورجاء وتوسل وبذل وعطاء . وضرب جرسه ، فهب هبوب الريح وأنا أنظر إليه وللغيظ والحنق فى نفسى ما لهما .. فأرشدنى مقبل علىّ لتوديعى إلى أن هناك على مقربة من موقف « المترو » سيارات اعتاد أصحابها أن يقفوا بها ، وأسرع فعدا ، ثم عاد فبدا راكباً سيارة قفزت إليها ، وطارت بنا تعصف وتقصف حتى أقبلنا على محطة القاهرة ، ودخلنا ، فإذا دخان القطار مرتفع ، فشيعناه بالنظرات والحسرات . . ؟

أصبحت شديد الحرص على ألا تفوتنى هذه الباخرة ، لثلاثة أسباب ، الأول : أن معتمد الحجاز قد أبلغ جلالة مليكه أن حضورى سيكون فيها .

والثانى . أننى ودّعت الأصدقاء وودعونى . والثالث : أننى كنت قد أهملت حلق لحيتى نحو أسبوع فإن ظللت فى القاهرة ذلك اليوم أضطررت إلى إزالة ما توفر منها ؟ . وليس بالسهل تجديده ؟

فانطلقت إلى سيارة كانت على باب المحطة . فطلبت من صاحبها أن يسافرْ بى إلى السويس . فنظر إلى . . وكأنه أدركه العجب من هذا الطلب ؟

فقلت : كم تريد من الأجرة ؟ فقال : عشرين جنيهاً . . ؟ - قلت : ويحك ؟ عشرة تكفى . فلم يعبأ بجوابى . فانصرفت إلى غيره وبذلت اثنى عشرة جنيهاً فلم أفلح . وعسر على أن أفتتح الرحلة بمثل هذه النفقات الباهظة . فحوقلت وسبحلت وعدت أدراجى ؟

كدت أيأس من سفرى هذا فى يومى ذلك لولا أن شجعنى معتمد الحجاز على المضى فى قطار الظهر فمضيت ، وأنا على مثل اليقين من أن الباخرة ستفوتنى لعلمى بأن القطار يبلغ السويس بعد ربع ساعة من إقلاعها ولم أدر مما ينتظرنى فى محطة « النمسا » آخر محطة قبل السويس للذاهب من القاهرة . .

وصلت إلى محطة النمسا ، ففاجأنى إنسان يحمل ورقة كتب اسمى بها يسأل عنى فكدت أنكر نفسى ثم رأيت أن ألبيه ، فأجبته . فبادر إلى حقيبتى — ولا أعلم ما يريد منها — فانتزعها من القطار انتزاعاً وأسرع قائلا : الحقنى ياسيدى ؟ فنزلت أعدو خلفه . فبصرت بسيارة ينتظرنى فيها أحد تجار السويس فركبتها . وانطلقت بنا انطلاق السهم من بين قابين . ثم أخبرنى التاجر أن معتمد الملك كلمه بالهاتف (التليفون) وإننا بركوبنا السيارة سندرك الباخرة قبل مسيرها . وكان الأمر كذلك

اخترقت بنا « المنصورة » أمواج البحر الأحمر — وإن شئت فسمه بحر القلزم كما كان أسلافك يسمونه — وكانت هذه أول مرة ركبت بها البحر ، فجعلت أنظر يمنة ويسرة نظر الواله الحائر المشدوه . التمس مسافراً تطمئن إليه نفسى ، ولكن كان موسم الحج قد انتهى ، وكانت البواخر تذهب فارغة من مصر لتحمل من بقى من الحجاج فى جدة . فأوحشتنى

العزلة وكنت آنس بها . وضاق صدرى وماكنت لأعهده يضيق . فتناولت كتاباً ادخرته لمثل هذه الليالى فجعلت أقلب صفحاته لا أفهم ما ذا أقرأ . وعدت إلى المشى سبهللا فى طول الباخرة وعرضها ، والقمر المتلالىء فى كبد السماء ، سمير من لاسمير له ، وأنيس من فقد الألف والخليل ؟

مضى بعض الهزيع الأول من الليل وكأن الله أرسل إلى إنساناً لم أعرفه ولكنى ملت إليه مقبلا عليه ، فحييته . فأجابنى . وحادثته فلذ لى حديثه . وما مر على اجتماعنا بضع دقائق حتى أخذت اسمع منه شعراً وأدباً فازددت به أنساً . وسررت حين علمت أنه أحد المشتغلين فى الأدب واسمه « حسنى العامرى » وله كتاب مطبوع فى أخبار شعراء العصر . وهو يحفظ كثيراً من شعر البدو وقصصهم . وسألته لعل وجهته جدة . فأجابنى أن موعد نزوله من البحر الصباح ، فأسفت ؟

أصبح اليوم الثانى فمررنا بالطور . وفى الثالث اجتزنا ينبع . وأخيراً ، بلغنا جدة (بضم الجيم) فارست بنا الباخرة فى مكان بعيد عنها ، وأقبل عمال المرفأ وأصحاب الزوارق متسابقين . فجعلت أنظر لعل أحداً أعرفه فإذا بقسطنطين ينى من أدباء سورية يرحب بى . فنزلت . وكنت بعد عشرين دقيقة فى الشاطىء حيث انصرفت إلى دار ضيافة الملك ، والقيم عليها يومئذ قسطنطين .

تجردت فى دار الضيافة من ثيابى وتلفعت بإحرامين قطنيين وتوضأت ناوياً الإحرام واحتذيت قبقاباً حجازياً لايدخله من الرجل غير باهمها وتمشيت إلى السوق أتعثر وأتسكع إلى أن بلغت دائرة المكوس (الجمارك) ولقيت مديرها فسلمت عليه فعرفنى وكان قد علم بوصولى ، فبادر إلى هاتفه فضرب جرسه وتسمع ثم نهض قائماً يردد كلمة : لبيك ؟ لبيك ؟ فلم أشك فى أنه يحادث جلالة الملك ، فصبرت إلى أن انتهى وقد أخبره بحضورى فأبلغنى أن جلالته يأمر أن أبرح جدة فى ذلك المساء متوجهاً إلى مكة وأنه قد أمره بالمحافظة على راحتى والعناية بى ، فقلت فى نفسى : كانت **راحتى تقتضى أن أبيت فى جدة ولكن هكذا أراد الملك ولا مرد لإرادته فى الحجاز ؟**

وبعد ساعة واحدة كانت الشمس قد مالت للغروب ، وكان مدير المكوس قد أعد لى ركوباً يعرفه كل من يجتاز هذه المرحلة بين الثغر وأم صبح[١] فركبت يصحبنى خادم أو دليل — لا أدرى؟ — وعهدت إلى قسطنطين بارسال ثيابى وأمتعتى إلى مكة مع الجمالة ؟

تنقلت فى ذلك الوادى المكفهر بين رمال وتلال ، وقد أثر بى تتابع السير بحراً وبراً حتى كان منتصف الليل فنزلنا فى قهوة — أو مقهى كما يسميها بعض كتابنا — وراودت نفسى على الطعام فأبت إلا كأسين من الشاهى (الشاى) واستلقيت أهم بالنوم ، وطائى الأرض وغطائى السماء . فلم يعلق فى جفنى أثره حتى كان الخادم يوقظنى . فسألته عما بداله . فقال : الراحة هنا ساعتان ؟ فنهضت متلكئاً متكسراً ، أتوكأ على رفيق الطريق ، وأمسك لى رقبة البهيم يمنعه من الجرى إذ كان عنانه حبلا لففناه على عنقه؟ فركبت واستأنفنا السرى[٢] .

بزغت الشمس ، ومكة منا على قاب قوسين — فى ما تراءى لى — أو أدنى . فالتمست ممن معى أن يأذن بالراحة قليلا فأقنعنى بأن ما بيننا وبين مكة لايقل عن ساعتين ، وخوفنى مس حرارة الشمس إذا هى قاربت كبد السماء . فاستمر بنا السير متصلا بالسرى إلى أن كنا على أبواب أم القرى . . وهنا سألنى الدليل : أين تريد النزول ؟ فتذكرت ساعة القنطرة . . وسألته : أليس بمكة فندق؟ فقال : لا ؟ فقلت : لننزل فى الحرم؟[٣] .

---

(١) من اسماء مكة ويقال لها أيضاً : بكة وام القري والبلد الأمين وغير ذلك .

(٢) كان الطريق بين مكة وجدة تقطعه الدواب فى يوم وليلة ، والجيد منها تقطعه فى يوم واحد أو ليلة واحدة ، وأصبح الآن فى هذا العهد السعودى الزاهر تقطعه السيارة فى نحو ساعة واحدة ، وأصبح الطريق ممهدا ومعبدا ومزفتا وعلى حافتيه الأشجار والأزهار فى اتجاهين : طريق للذاهب وطريق للايب .

(٣) يوجد اليوم بمكة بحمد الله العديد من الفنادق الممتازة منها : فندق مكة بجوار الحرم ، وفندق التيسير ، وفندق الحرم ، وفندق شبرا ، وفندق الفتح وكلها بجوار الحرم ، كما يوجد بمنى فروع لبعض هذه الفنادق أيام الحج .

واخترقنا منازل مكة والضحى فى رأده . فبلغنا الحرم وأكرمت الدليل فانصرف بعد أن حملته ورقة كتبتها إلى مدير صحة الحجاز الطبيب نديم صلاح وكان قد سمى لى فى جدة .

دخلت الحرم من أقرب أبوابه إلىّ ، ودنوت من الكعبة فاستقبلنى أحد الجالسين حولها وقد رآنى محرماً فسألنى هل أريد الطواف ؟ فقلت : أما الساعة فلا . . وسقطت على حصباء البيت العتيق والألم من متاعب ليلتى آخذ من جسمى مأخذه .

أجلت النظر فى ذلك البناء المقدس فراقنى مشهد الطائفين حول قبلة عالم الإسلام . ولذنى مرأى الحمائم تزدحم وتقتحم وتروح وتغدو آمنات كل أذى ، راتعات فى كل جانب . حرم الله صيدها فتوالدت وتكاثرت وأنست بالإنسان فمنعها الله كيده وشره . وقديماً ضربت العرب أمثالها بأمنها وألفتها فقالت « آمن من حمام مكة » و« آلف من حمام مكة » . وقال النابغة شاعر الحجاز :

وَالمُؤمِنُ العَائِذَاتِ الطَّيرَ يمْسَحُهَا
رُكْبَانُ مَكَّةَ بيْنَ الْغِيلِ وَالسَّنَدِ !

وبينا أنا مستلق على الصعيد . أتقلب ذات اليمين وذات اليسار إذ طلع على شاب فى رداء أبيض ملتف بعباءة رقيقة أسود اللحية لم أعرفه إلا بعد أن رفع صوته بالترحيب . فأجبته والدهشة من لقائه ملء نفسى : يوسف ! يوسف ! (١) أأنت هنا ؟

واعتنقنا فكأننى أنسيت كل ما لقيت وجلس إلى جانبى فحدثته بخبرى منذ برحت دمشق وحدثنى بخبره منذ برحها . ثم أعلمنى أنه اطلع على ما كتبته إلى مدير الصحة فسبقه إلى . ولبثنا نتجاذب أطراف الحديث ، والحديث

(٢) يوسف ياسين من أدباء سورية ، لاذقى المولد . سكن الشام . وفارقها يوم الاحتلال ثم دخل فى خدمة الملك عبد العزيز آل سعود كاتبا ثم رئيسا لتحرير جريدة « ام القرى » ثم رئيسا للشعبة السياسية توفى سنة ١٣٨١هـ ١٩٦٢م .

شجون ، فقال : هلم لنطف حول الكعبة . فنهضت وقد قلّ ما كنت أشعر به من الألم . فلم نخط خطوات حتى سمعت زمجرة وتمتمة فالتفتُّ ، فرأيت أحد المطوفين – وهم كثيرون – وسمعته يقول : يريد هؤلاء أن يقطعوا أرزاقنا ؟ ففهمت أن نفسه حدثته بأن يوسف سيقوم مقامه فى الطواف بى حول الكعبة . . فضحكنا منه وأسرعت إلى نقده بما تيسر من النقد فقفل شاكراً ؟

فى المخلوان :

قال يوسف وقد انتهينا من الطواف وعدنا إلى الاستراحة والحديث : ألا تزور سيدنا ؟ فقلت : وعلى هذه الحال ؟ قال : نعم ؟ فقلت : لنفعل . وقمت وليس علىّ غير لباس الإحرام ، فمشينا دقائق معدودات انتهت بنا إلى « دار الحكم » وهى قصر فخم قدم البناء دخلناه وصعدنا درجاته ثم جلسنا فى بهوه وبادر المضايفى (١) واسمه سعد فقصد « المخلوان » حيث كان يخلو جلالة الملك بنفسه وزواره ، فأنبأه بنا فخرج الإذن بالدخول فدخلنا

المخلوان غرفة صغيرة فى جانبها الأيسر هاتف (تلفون) وفى وسطها بضعة كراسى خيزران ، ينحرف داخلها إلى يساره فيرى أمامه دكة مستطيلة ، فى صدرها نافذة كبيرة تطل على الشارع ، وعلى تلك الدكة يجلس جلالة الملك وبين يديه منضدة صغيرة عليها دواة بلورية وقلم من نوع القصب المعروف فى بعض سورية باسم « الغزّار » .

دخلت على جلالة الملك فنهض قائماً فأقبلت على يده لأقبلها فبسط يديه قابضاً بهما وجهى فقبلتهما من باطنهما وماكنت عالماً بشىء من أسرار تقبيل اليد فى ذلك القصر . وكان أول ماكلمنى به جلالته قوله : بلادكم يا ابنى ؟ هذه بلادكم يا ابنى ؟ فدعوت له . وأمرنى بالجلوس فجلست ، وهممت بالاعتذار لحضورى بثوب الإحرام فأدرك ذلك منى وقال : إن لباساً يختاره الله لحجاج بيته لهو أفضل اللباس ؟

(١) المضايفى فى عرف أهل الحجاز كرئيس التشريفات ، وهو الحاجب (المؤلف) .

وأخذ يسألنى عن حالى وحال بلادى وراحتى فى طريق . فكنت أجيبه . ثم أنتبه إلى ما أنا فى حاجة شديدة إليه من الراحة ، فصفق بيديه فسمعت صائحاً من خارج الغرفة يقول : خير[١] ؟ ودخل المضايفى ، فسأله الملك : هل هيأت كل شيء ؟ فقال : نعم فنظر إلى قائلا : ستر تاح اليوم فى غرفتك ونجتمع فى المساء . فقمت إلى يده فقبلتها مودعاً وهو يقول : مرحباً مرحباً ؟

وتوجه بى المضايفى إلى مكان فى القصر نفسه مؤلف من غرفتين وبهو . إحدى الغرفتين للنوم والإقامة والثانية للأمتعة . وجدار غرفة النوم مشرف على الشارع لابناء فيه وإنما هو نافذة واحدة كبيرة ذات تقاطيع خشبية لم أر من نوعها فى غير الحجاز . وأهل مكة لايكثرون من البلور فى نوافذهم بل لايكادون يعرفونه لاستمرار الحر عندهم صيفاً وشتاء . وكل جدران الغرف ، المطلة على الشوارع ، نوافذ من هذا االطراز .

ألقيت بنفسى على مقعد فى الغرفة فنمت ساعات متتابعات . وصحوت بعدها فإذا الشمس قد دخلت الكوى وبلغت موضع نومى فكانت هى التى أيقظتنى بلذعات وهجها .

فى القصر :

ذلك هو المكان الذى ظللت فيه مدة مقامى بمكة . أتناول فيه الفطور صباحاً وأنام الظهر بعد تناول الغداء وأقصد جوار « المخلوان » فى وقت الغروب . فأصلى المغرب مع الملك وحاشيته وعبيده ومن حضر من أبنائه وأحفاده فى مصلى خاص . يؤم بنا إمامه الشيخ ياسين البسيونى وهو مصرى الأصل مكي المولد والإقامة طاعن فى السن رضي الأخلاق والصفات . وبعد الصلاة نجلس للطعام على سفرة جلالة الملك فيترأسها أحد أبنائه أو أحد قدماء أضيافه أو كبير من رجال دولته . وأما الملك فيأكل فى المخلوان منفرداً

(١) يستعمل الحجازيون هذه الكلمة بدلا من « نعم » المصطلح عليها فى غير الحجاز جواباً من المنادى للمنادى . وهذا التعبير فى الحجاز أصح وضعاً وأرشق بيانا (المؤلف) .

إلا فى الولائم الكبيرة الجامعة . وبعد العشاء ننصرف إلى ردهة القصر فيتوافد زوار جلالته بينما يكون هو قد أخذ نصيبه من الراحة . ويدعونا فنذهب إليه فيستقبلنا جالساً ونقبل يده ونمكث نحو الساعتين ثم نعود أدراجنا .

وداع الأمير :

كان الملك حسين كثير التفكير فى أمر سورية وما صارت إليه أحوالها بعد رحيل ابنه الملك فيصل عنها . فرأى أن يوفد إلى جوارها أحد ابنيه على وعبد الله[١] وعرف ابناه ذلك ، فتقدم كل منهما إلى من يألف من جماعة السوريين المقربين من أبيهما ، يرغب إليه أن يحسن لجلالة الملك إيفاده وإيثاره على أخيه . وهكذا تردد الملك قليلا ثم كان لالتماس الملتمسين بعض الأثر فى نفسه فاختار ابنه عبد الله وأوعز إليه بالتهيؤ وأعلمه أنه سيكون وكيل أخيه فيصل فى ما حول سورية من الأراضى التى لم يحتلها الافرنسيون وأعلن جلالته أن عبد الله سيكون أمير معان . وهى آخر حدود الحجاز الشمالية . وأصبحنا يوم ١٦ المحرم ١٣٣٩ فنزلنا فى موكب حافل يتقدمنا جلالة الملك إلى ظاهر مكة حيث ضربت الخيام وتقاطر الناس للوداع من كل ناحية وصوب .

وهناك على منبسط من الأرض أمر الملك فمد بساط جلس عليه بعض حاشيته وضيفانه وكنت فى جملتهم وابتدأ الحديث فتكلم عن جبل « ثور » وكان قريباً منّا ، وأفاض فى أحاديث مختلفة إلى أن أقبل ابنه الأمير عبد الله مودعاً يصحبه نحو مئة وخمسين جندياً من بدو الحجاز واليمن . ناشرين لواء أحمر انتبه إليه الملك فقال مازحاً : غداً يقولون انا بلشفيك ؟

وتكلم أحد الجالسين فقال : إن العلم الأحمر اللون ، شعار قديم للإشراف سبقوا به البلاشفة وغيرهم . وختم الاحتفال بسفر الأمير ومن معه ركباناً على الإبل وهو أمامهم ممتطياً جواداً أصهب . وتفرقنا آيبين إلى منازلنا . داعين له ولمن معه بالتوفيق ، معللين الأنفس باللحوق به ولو بعد حين ؟

(١) قد ترجم لها المؤلف فى كتابه الاعلام .

ذكر الطائف :

لم تكن تفوتنى الفرصة كلما سنحت لى فأزور المعالم الأثرية والشعاب المعروفة فى تاريخ هذه البلاد . حتى كانت إحدى ليالى السمر فى مخلوان جلالة الملك فعرض ذكر مدينة الطائف ، وما هى ممتازة به عن سائر بلدان الحجاز . فتمنى أحد السامرين لويتاح لى ولبعض من هناك من شبان سورية أن نراها . فصادف ذلك قلباً خالياً فى الملك ، فتمكن . وكأنه كان يحدث النفس فى إراءتنا أجمل بقاع قطره ، وأفضل كور ملكه ، ليجمع بين الفضيلتين يرينا الطائف زهرة الحجاز ، ويريحنا أياماً مما نعانيه من لفح الحر ولذع القيظ فارتاح للإجابة ، وسألنى وسأل يوسف ياسين وغيره عن رغبتنا فأجبناه بالامتنان . فصفق بيديه أولا وثانياً . . فلباه المضايفى . فاستدناه ، وأمره أن يهيء لنا فى الغد بغالا شداداً . وأخبره بإزماعنا الرحلة إلى الطائف وعدد له كل ما يجب إعداده حتى أنواع الطعام وأكواب الشاهى ؟ وقال : موعدكم بالرحيل منتصف الليلة القادمة . فأثنينا ودعونا . وأتممنا حصتنا من الليل فى الكلام على الهدة ووادى نعمان وكبكب وسمار ووج وغيرها مما سنراه ونمر به فى رحلتنا هذه ، مبتهجين مغتبطين ؟

بين مكة والطائف

«بدء الرحلة . فى عرفة إلى شداد . إلى الكر . جبل كرا . فى الهدة . إلى الطائف»

بدء الرحلة :

المنحنى ، غار حراء ، العقبة ، منى ، مسجد الخيف ، غار المرسلات المزدلفة . مضيق الأخشبين ، مضيق المأزمين ، مسجد نمرة

ودعنا أبا قبيس وقعيقعان[1] ، واستقبلنا المحصب[2] والمنحنى ، قبيل فجر الأربعاء ثامن صفر سنة ١٣٣٩ لاقمر ولا هلال ، ننظر ولانبصر حتى إذا اجتزنا منازل أم القرى ، واتسع أمامنا رحب المنحنى ، كان لنا من نور الكواكب هدى . ونجوم السماء يعرف من ضيائها ابن البادية وساكن الصحراء ، ما لا يعرفه ابن الحواضر والمقيم بين المنازل المتراصة والدور المتلاصقة .

بلغنا المنحنى بعد دقائق معدودات ، وهو واد بين جبال ،أول ما يراه بارح مكة ، يستقبل منه جبل النور كما يسمونه اليوم ، أو جبل حراء كما كانت العرب تدعوه ، وهو الجبل الذى كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتعبد فى غاره قبل النبوة وقد صعدناه منذ أيام فإذا هو رفيع الذروة ، عالى القمة ، مشرف على كل ما حوله من جبال مكة وهضابها واوديتها وشعابها ، وفى أعلاه قبة مشيدة[3] غير قديمة البناء ، دون وذروته ذلك الغار المهيب الذى سماه أحد رفاقنا بالمدرسة الإلهية إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى به الحكمة ، وأنزلت عليه أول آية من آى القرآن الحكيم

(١) جبلان متقابلان فى مكة .

(٢) هو بطحاء مكة بينها و بين منى .

(٣) من قولهم شاد البناء : اذا طلاه بالشيد .

فيه . ولقد دخلنا الغار وهو لايزيد عن مترين طولا ومتر واحد عرضاً — خلافاً لما قاله صاحب الرحلة الحجازية[١] من أنه متران مربعان — وأعجبنا آنئذ بقاء الغار على حاله فى ترابه وحجارته لم يصبه ما أصاب أكثر الأماكن القديمة من التحوير والتغيير بل هو لم يزل كما كان منذ أربعة عشر قرناً ، غاراً فى جبل يمتاز عن أشباهه بارتفاع الجبل الذى هو فيه بحيث لا يرى المستتر به من حر الشمس وتساقط الغيث غير ما حوله من جبال لاتبين إلا كالشعاب ، وأودية لا تلوح إلا كقطع السحاب ، يشعر المقيم فيه بلذة الوحدة وصفاء الانفراد ، ولا يتمالك من الإغراق بالتفكير فى عجائب ما تحمل الأرض من طود شاهق ، وماء دافق ، وقفر سبسب ، ومرج أعشب !

وكان حراء عن يسارنا فى هذه الرحلة ، فواصلنا السير من المنحنى مارين بالعقبة وهي على نحو ميلين من مكة ، بويع عندها النبى صلى الله عليه وسلم سنة ١١ للنبوة أى قبل الهجرة بعامين ، وعند العقبة مسجد ، ومنها يرمى الحجاج جمرة العقبة بالحصيات السبع . وما وخط الشيب رأس الظلام حتى كنا على أبواب منى .

اخترقنا منى[٢] ، والناس على أهبة النهوض من الهجود ، ولم ننزل بها غير أن آثارها كانت تترجم لنا عما لهذه البليدة من الشأن فى أيام موسم الحج ، فرأينا مناخ المحملين الشامى والمصرى ، ورأينا مقر الأسرة المالكة فى أيام الحج ، ولاحت لنا منازل منى عامرة إلا من السكان فإنها تناهز ألفاً وخمسمائة دار لاتسكن فى غير مدة الموسم ، وفيها مسجد الخيف ويسمونه مسجد الحسين .

---

(١) هو محمد لبيب البتنونى ، وضعها وصفاً لرحلة عباس حلمى باشا الثانى خديوى مصر الاسبق .

(٢) أنظر الكلام على تحديد منى ومزدلفة وعرفات فيما نقلناه عن الهيئة العلمية فى تعليق على كتاب الارتسامات اللطاف الطبعة الثانية صفحة ٥٨ — ٦٧ .

قال النابلسي فى رحلته [١] : قال القطب الملكى فى كتابه الإعلام عند ذكر السلطان قايتباى من ملوك الجراكسة : « وفى أواخر سنة ٨٧٤هـ والتى قبلها بنى السلطان المذكور مسجد الخيف بناء عظيماً محكماً ، وجعل فى وسط المسجد قبة كبيرة هى حد مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى خيف منى ، وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبي (صلى الله عليه وسلم) وجعل للمسجد خوخة صغيرة إلى الجبل الذى فى سفحه غار المرسلات ، وهو الموضع الذى أنزلت فيه سورة المرسلات ، وفى هذا الغار مكان غائص فى الصخر يضع الناس رءوسهم فيه — قال النابلسي عند ذكر وصوله إليه : فوضعنا رأسنا لأجل البركة ، وكذلك الجماعة . . — وقال المكى فى الإعلام : « ذكر الحافظ ابن الجوزى أن فى مسجد الخيف على يمين الذاهب إلى عرفات فى هذا الغار — غار المرسلات — تجويفاً ، فى سقفه ، تزعم العامة أنه لان لرسول الله(صلى الله عليه وسلم) فأثر فيه تجويفاً . فيضع الزائر رأسه فيه تيمناً وتبركاً بموضع رأس النبي (صلى الله عليه وسلم) . ولم أقف على خبر أعتمده فى ذلك غير ماورد فى الأثر من نزول سورة المرسلات فيه . . »[٢] اهـ

وفى منى مذبحان كبيران تذبح فيهما الضحايا فى أيام منى أحدهما للإبل والبقر والثانى للضأن والمعز وفيهما صهاريج تمتلىء من ماء زبيدة ، يسمونها البازانات (الواحد بازان) .

وللشعراء فى منى شعر كثير ، يعجبنى منه قول العرجى :

نَلْبثُ حَوْلاً كُلَّهُ كَامِلًا   لَا نَلْتَقِى إِلَّا عَلَى مَنْهَجِ

(١) الرحلة الكبرى التى سماها « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » .

(٢) لا تقوم رواية صحيحة ثابتة ولا حسنة من أن تجويف غار المرسلات قد لان لرسول الله ص ، وماهى الا أكاذيب لفقها الدجالون لا بتزاز أموال الحجاج بغير حق فصدقها العوام وتتابعت عليها الحكايات والأكاذيب ، وقد أزيلت هذه الأوهام ، وكشف عن حقيقتها دعاة مخلصون فاستنارت الأفكار والعقول ولم تعد تقبل شيئا من الخرافات .

أَلْحُجُّ إِنْ حَجَّتْ ، وَمَاذَا مِنًى وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجُجِ !(١)

مررنا بمنى ووجهتنا المزدلفة فاجتزنا بمضيق بين جبلين متوازيين يسمونه « المهرول » لهرولة الحجاج به و « وادى النار » لأنه الموضع الذى رجم أصحاب الفيل فيه(٢) . ولم نبتعد قليلا عن هذا المضيق حتى لاحت لنا المزدلفة فاخترقناها وشهدنا المشعر الحرام وهو مصلى الإمام أيام الحج يصلى فيه العشاء والمغرب والصبح ،والمزدلفة هى مبيت الحجاج ومجمعهم للصلاة إذا صدروا من عرفات .

وفى مزدلفة صلينا الصبح واتجهنا نحو مضيق الأخشبين فاجتزناه . والأخشبان اسم جبلى هذا المضيق ، وفى معجم البلدان أنهما جبلان يضافان تارة إلى مكة (فيقال أخشبا مكة) وتارة إلى منى (فيقال اخشبا منى) .

ويلى مضيق الأخشبين مضيق آخر أوسع انفراجاً منه يسمونه المأزمين يقع بين المشعر الحرام وعرفة . وقد يجمع بعضهم بين المضيقين فيسميهما الأخشبين أو المأزمين .

---

(١) بل يعجبنى قول أحد التابعين فى التعليق على هذين البيتين لما سمعهما ممن أنشدهما له قال : «نستغفر الله ونتوب اليه بل الخير كله فى الحج ، وفى منى وأهله» . تأمل معنى هذه العبارة التى تزيد فى الايمان ، وترد على الشعراء الغاوين .

(٢) قال المؤلف : خبر الفيل مشهور ، وخلاصة مايروونه فيه أن ابرهة ملك اليمن بنى كنيسة بصنعاء وأراد تحويل العرب عن كعبة مكة اليها وهم بهدم الكعبة فجهز جيشاً من الحبشة تتقدمه الفيلة وسار بهحتى بلغ الطائف فبعثت معه ثقيف رجلا منها يدعى « ابارغال » يدله على الطريق فتقدمه حتى أنزله على المغمس وبه مرض أبو رغال ومات فرجمت العرب قبره — ولا تزال ترجمه إلى اليوم — وبعث ابرهة إلى سيد قريش يومئذ (عبد المطلب) يخبره أنه لم يأت لحربهم وإنما يريد هدم البيت فجاءه عبد المطلب فأكرمه أبرهة ونزل عن كرسيه احتراماً ، وكان جواب عبد المطلب « إن للبيت رباً يحميه » وأصر ابرهة على هدمه فانصرف عبد المطلب فجمع قومه وأخذ بحلقة باب الكعبة يدعو الله ويستنصره على ابرهة ثم انطلق بمن معه إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ماسيصنع ابرهة بمكة . واصبح ابرهة فتهيأ لدخول مكة فدهمتهم من البحر طيور ابابيل (جماعات) ترشقهم بحجارة من سجيل (طين — — متحجر) واقبل عليهم سيل من ورائهم لم يطيقوا دفعه ، فغرق منهم جمع كثير ، ونجا ابرهة بجماعة ممن معه وقد أصيب فى جسده فلم يبلغ صنعاء حتى هلك بها .

وفى هذا المضيق المنفرج افتر لنا ثغر الغزالة من وراء حجاب فتابعنا المسير إلى أن مررنا بمسجد نمرة ، وهو قبيل عرفة ، وبموضعه ضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سرادقه فى حجة الوداع . وأقبلنا على عرفة فنزلنا وتقيّلنا[1]

فى عرفة :

هنالك ، حيث ترتفع أصوات الحجيج بالابتهال إلى الله ، أيام الحج ، نزلنا فإذا السكون مخيم ، وإذا الجبال صامتة ، والديار خالية ، كأن لم تكن مشتبك الأقدام ، وملتحم الأقوام ، ومعترك الأجسام ، من أهل الإسلام ؟

عكفنا على نزل هناك ، كما يسميه بعضهم ، وهو بناء صغير من حجارة مرصوفة ، مسقوف بقضبان من الخشب تعلوها أغصان من شجيرات البر ، وأبالات من نبات الجبال . وسرحنا الطرف فى ذلك الوادى الأنيق ، وعلى مقربة منا سلسال صغير من ماء زبيدة أقبل عليه سكان عرفات يملئون قربهم ، ويسقون دوابهم .

وعرفة كما يقول البشارى (معجم البلدان — مادة عرفة (هى : قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور[2] حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة ، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطىء وبها سقايات وحياض وعلم قد بنى يقف عنده الإمام . ويقال لها عرفة وعرفات ، وكلاهما صحيح ، والثانى ليس بجمع وإن كان على صيغة الجمع » .

ونقل النابلسى عن الزركشى أن لعرفات أربعة حدود :

١ — ينتهى إلى جادة طريق السرف (وهو موضع قرب التنعيم) .

٢ — إلى حافات الجبل الذى وراء أرض عرفات .

٣ — البساتين التى تلى قرية عرفة (وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة إذا وقف بارض عرفة) .

٤ — ينتهى إلى وادى عرفة .

---

(١) التقيل والقيلولة : النوم فى نصف النهار . والحجاز يون اليوم يقولون « قيل فلان إذا نزل أو انفرد ليستريح وقت شدة الحر « المؤلف »

(٢) قال المؤلف : لم نر هذه الدور ولا آثارها فلعلها كانت فى زمنه واندرست

قال : وليس من عرفات وادى عرنة ولا نمرة ولا المسجد الذى يصلى فيه الإمام المسمى بمسجد ابراهيم . بل هذه المواضع خارج عرفات على طريقها الغربى مما يلى مزدلفة ومنى ومكة[1] .ا ه .

إلى شداد :

شجر الطلح ، وادى سمار ، وادى نعمان ، عين زبيدة ، جبل كبكب ، قهوة شداد .

مكثنا فى عرفة إلى أن بردت جمرة النهار ونهضنا قبيل العصر فجرينا فى واد فسيح تكتنفنا من جانبينا أشجار الطلح وأغصان السلم ، وقد قيل لنا أن السلم مادام دون الشجر فهوسلم ، فإذا ارتفع سمّوه طلحاً ، وهوالمعروف فى بلاد الشام بشجر العنبر والمسك ، كثير الشوك ، زهره أصفر مستدير كالأكر الصغيرة زكى الرائحة ، وورقه القرظ الذى يدبغون به .

ذلك الوادى الخصيب هو « وادى نعمان » الذى أكثر الشعراء من ذكره ، لم نكد نزجى إليه الرواحل صادرين عن عرفة حتى لاح لنا عن أيماننا واد آخر عريض الجانبين يسمونه « وادى سمار» وهو كثير الخير ، فيه قصر فخم للأشراف من ذوى زيد ، وفيه آبار كثيرة ، وكانت به عين جف ماؤها منذ سنين قلائل ، وقد أخطأ صاحب الرحلة الحجازية إذ عد سماراً بين عرفة ونعمان فى طريق الذاهب إلى الطائف ، وسمار لايفصل بينهما إنما هو على مرمى بندقية من جنوب عرفة يلمحه السائر منها إلى نعمان عن بعد ولا يمر به .

وتوسطنا وادى نعمان فإذا بئر يقولون أنها مبدأ عين زبيدة[2] والحقيقة

---

(١) انظر كتاب « الارتسامات اللطاف » للامير شكيب ارسلان الطبعة الثانية صفحة ٥٨ — ٦٧ وما نقلته عن الهيئة العلمية حول تحديد منى ومزدلفه وعرفات .

(٢) قال المؤلف : عين زبيدةاشهر عيون هذه الدياروأكبرها.افرد لهاالعصامى — المؤرخ عبد الملكبن حسين بن عبد الملك المكىالعصامىالمولود بمكة سنة١٠٤٩ ه والمتوفى بهاسنة ١١١١ ه — فصلا خاصاً فى جزء اطلعت عليه مخطوطاً بمكة وهو المجلد الثانى من كتابه « سمط النجوم العوالى فى انباء الاوائل والتوالى » ومجمل ماقاله فى شأن هذه العين أن السيدة زبيدة بنت جعفر ابن المنصور زوج هارون الرشيد العباسى رأت مايعانيه حجاج بيت الله الحرام من قلة المياه —

. . . .

فصرفت همها إلى شراء مزارع ونخيل فى أرض حنين كانت تسقى بمياه عدة عيون هنالك منها « عين مشاش » و « عين ميمونة » و « عين الزعفران » و « عين البرود » و « عين ثقبة » فابطلت المزارع ووصلت بين هذه الينابيع وساقتها بأقنية إلى عين نعمان وهذه منبعها ذيل جبل كرا فينصب الماء من ذيله فى قناة إلى موضع يقال له « الأوجر » من وادى نعمان . ثم امرت بايصال قناة نعمان إلى جبل الرحمة محل الموقف وجعلت الماء ينصب إلى البرك فى عرفات ثم مدت الماء من مزدلفة ومنها إلى بئر عظيمة تسمى بئر زبيدة ، ثم كانت تتخرب مجارى هذه العين فعمرها مظفر الدين صاحب اربل سنة ٦٠٥ هـ وعمرها بعده الشريف حسين بن عجلان . ثم ذكر العصامى اسماء من تداولوا عمارتها إلى عصره ..

واطلعت على رسالة للسيد عبد الله الزواوى ثم المكى المدرس بالمسجد الحرام ورئيس لجنة عين زبيدة سماها « بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الامين فيما يتعلق — بعين الجوهرة السيدة زينب أم الامين » فى ٥٠ صفحة ذكر بها عناية الملك حسين منذ ولايته امارة مكة المكرمة بهذه العين وأتى على تاريخها ، فقال ما محصله : أول من عثرت عليه ممن اعتنى بامر مياه مكة المكرمة معاوية ، وكان أهل مكة قبل ذلك يشربون من الآبار الموجودة بها وحو اليها ، فأجرى معاوية عشر عيون فى الحرم. ثم جاء عبد الله بن عامر بن كريز فجمع العيون وصرفها فى عين واحدة وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها ماء العين . ثم تخربت هذه العيون وأصيب الناس بشدة إلى ان كانت دولة بنى العباس فعنيت زبيدة باجراء عين حنين إلى مكة وانفقت على ذلك ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال ذهباً (١,٧٠٠,٠٠٠) قال : ومنبع هذه العين فى ذيل جبل شامخ يقال له « طاد » وهو من جبال الثقبة فى طريق الطائف يجرى ماؤه إلى أرض يقال لها حنين — وهو واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا — ثم أوصلتها إلى مكة . وأمرت أيضاً باجراء عين وادى نعمان إلى عرفة ، وهى عين منبعها ذيل جبل كرا ينصب منه فى قناة إلى الأوجر فى وادى نعمان . فأجرتها إلى عرفة وأقامت لها أحواضاً وقنوات . ثم كانت تتخرب الاقنية بعد ذلك فيتعهدها الخلفاء والسلاطين . فمن عمرها المتوكل على الله جعفر بن المعتصم على أثر زلازل سنة ٢٤١ هـ التى غارت بها عيون مكة فأرسل المتوكل مائة ألف دينار أجريت بها عين عرفات إلى مكة . ومنهم مظفر الدين صاحب اربل عمرها سنة ٥٩٤ هـ ثم المستنصر العباسى سنة ٦٠٥ هـ ثم الامير جوبان نائب السلطنة بالعراقين أرسل الامير بازان بخمسين ألف دينار فعمرها سنة ٧٢٦ هـ — وعمرها بعد ذلك سنة ٨١١ الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد الاسرة الهاشمية المالكة ثم عمرها الملك المؤيد أحد ملوك الجراكسة وتطوع لها بالفى مثقال ذهباً سنة ٨٢١ هـ ثم عمرها الملك الاشرف قايتباى الجركسى سنة ٨٧٥هـ وعمرها آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغورى سنة ٩١٦ هـ وعمرها السلطان سليمان سنة ٩٣١ هـ وعمرتها فاطم هانم كريمة السلطان سليمان سنة ٩٦٩هـ وانفقت عليها مبالغ طائلة من

أن ماء هذه البئر يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعاً من الأمطار والسيول ، وقد جعلت بين هذه البئر وعين زبيدة قناة هى إحدى القنوات التى تصب فى العين ويتألف منها ماؤها بمكة . وقد أقيمت فوق بئر نعمان قبة يراها السالكون ، والماء منخفض عن الأرض نحو ثلاثين متراً .

ووادى نعمان خصيب التربة كثير السيول ، وفى سفوح جباله زروع مختلفة تسقى بماء المطر منها المباطخ (جمع مبطخة : وهى مزرعة البطيخ) وأهل الحجاز يسمون البطيخ الأخضر « الحبحب» ويسمون البطيخ الأصفر (الخربز» وهو المعروف بالشمام فى مصر وفلسطين ، إلا أنه من النوع المستدير لاالمستطيل وقل أن يكبر حجم الواحدة منه كما فى الشام وغيرها ، ولايكثر فيه الشديد الحلاوة بل يلثونه بالسكر أو يذرون السكر عليه ليحلو طعمه . ومن زروع هذا الوادى ما يسمونه « الدبة » وهو المعروف فى بلاد الشام باسم « القرع » ومنها الكوسى والخيار والقثاء والبندورة (القوطة) وما شابه هذه الأنواع من المزروعات الضعيفة التى تنمو مسرعة بقليل من ماء السماء . وأكثر حاصلاته « الدخن » لعناية البدو المقيمين فى أطرافه بأكله وهم يرون فيه خواص أعظمها أن قليله يشبع ويسمونه « مزاحم الجنبية » إشارة إلى إشباعه حتى يضيق زنار آكله فلا تعلق به الجنبية ؟

وهذا الوادى عظيم الشبه على ما ذكر لى بوادى سمار فى بقاعه ، وزراعته وأكثر حاصلاته .

بيت المال تنيف على خمسمائة ألف دينار ذهباً استمر وكلاؤها يشتغلون فى عمارتها إلى سنة ٩٧٩هـ ثم عمرت على يد حسن باشا المعمار سنة ١٠٢٠ هـ ثم على يد محمد بك صاحب جدة سنة ١٠٦٦هـ وعمرها الشريف بركات بن محمد بن ابراهيم سنة ١٠٩٢ ثم عمرت سنة ١١٠٥ هـ وهنا انقطع خبرها إلى سنة ١٢١٩ هـ فتخربت فعمرتها الحكومة ثم عمرها محمد على باشا والى مصر سنة ١٢٤٢ ثم أصلحت سنة ١٢٧٨ هـ على اثر سيل عظيم . ثم بدأ باصلاحها محمد شروانى باشا والى الحجاز سنة ١٢٩١ وعاجلته المنية فاتم العمل الشريف عبد الله باشا ، ثم تداول اصلاحها اهل الخير والاحسان برئاسة امراء مكة ، وألف لها الملك حسين سنة ١٣٢٦ هـ لجنة للنظر فى اصلاحها كلما طرأ عليها طارىء . وقد تخربت عدة مرات بعد ذلك وأصلحت وزيدت فيها احواض وبرك اهـ

سلكنا وادى نعمان الفسيح ، والشمس آخذة بالانحدار ، والنسائم تحمل إلينا شذى نبته العطر فتذكرنا بقول شاعر زينب :

تَضَوَّعَ مِسْكًا بُطْنُ نَعْمانَ أَنْ مَشَتْ
بِهِ زَينَبٌ فى نِسْوةٍ عطِراتِ
وَلَيْسَتْ كَأُخْرَى أَوْسَعتْ جَيْبَ دِرْعِهَا
وَأَبْدَتْ بَنَانَ الكَفِّ لِلْجَمَرَاتِ
وَعَلَّتْ بَنَانَ المِسْكِ وَحْفًا مُرَجَّلًا
عَلَى مِثْلِ بدْرٍ لَاحَ فى الظُّلُماتِ
وقَامتْ تُرَائِى يَومَ جمْعٍ فَأَفْتَنَتْ
بِرُؤْيَتِهَا مَنْ رَاحَ مِنْ عَرَفَاتِ !

وفى أواخر وادى نعمان أو بعد منتصفه رافقنا عن يسارنا جبل قيل لنا : هذا كبكب ؟

عادت لنا الذكرى ، ذكرى العصور الأولى ، أيام كانت هذه الهضاب والآكام ، والبقاع والتلاع ، مسرح أنظار شعراء الجاهلية والإسلام ، يروحون فيها ويغدون ، بين غزل يطير فى عالم الخيال ، وشج يندب الآثار والأطلال ، وفخور يرى النجم دونه ، ويحسب الناس يعبدونه !

على مقربة من ذلك الجبل الشامخ تمثل لنا امرؤ القيس وقد خيره أبوه بين الشعر وتاج الملك ، فأبى التاج ، وانفرد بعصائب التفّت حوله ، يشبب ويتغزل ، ويحن ويفاخر ، ويذكر أحباباً له انفردوا إلى ظلال كبكب فيقول :

تَبصَّرْ خَلِيلِى ، هَلْ تَرى مِنْ ظَعائِنٍ
سَوَالِكَ نَقْبًا بَيْنَ حَزْمَىْ شَعَبْعَب

فَرِيقَانِ : مِنْهُمْ قَاطِعٌ بطْنَ نَخْلَةٍ
وآخَرُ مِنْهُمْ : جازِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ !

وسواء أكان يعنى كبكب هذا أم يريد كبكباً آخر (كما يقول ياقوت فى معجمه) فقد دانينا نجد كبكب وتمثلنا بقول حامل اللواء ؟

وسمعت أحد فضلاء الحجاز يقول : إن (كبكبا) هو أحد الجبلين المعنيين بقول الشاعر :

أَيَا جَبلَىْ نَعْمَانَ بِاللهِ خلِّيَا نَسِيمَ الصَّبا يَخْلُصْ إِلَىَّ نَسِيمُهَا

وفى ذروة كبكب قبيلة معروفة يدعونها به فتسمى الكباكبة (وواحدها كبكبى) وهى مشهورة بقص الأثر ، وسيأتى ذكرها فى الكلام على الفراسة فى البادية . وفى كبكب هذا يقول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلى :

كِيدُوا جَمِيعًا بِآنَاسٍ كَأَنَّهُمُ أَفْنَادُ كَبْكَبَ ذَاتُ الشَّثِّ وَالخُزُمِ (١)

وماكدنا نبلغ آخر كبكب حتى بدت لنا عن يميننا إمارة عمران حديث **فعلمنا أننا وصلنا قهوة شداد . وشداد اسم مناخة ــ أونزل كنزل عرفات ــ يأوى إليها الصاعدون إلى الطائف والمنحدرون إلى مكة ، وهى على نحو ثلاث ساعات من عرفات ، وست ساعات من مكة للراكب . وفيها مركز للهاتف (التلفون) يربط الطائف بمكة وهو مفيد لتوطيد دعائم الأمن فى تلك المسالك .**

نزلنا شداداً والشمس تميل إلى الغروب ، فود عنا بهاذلك الألق المتورّد وأرحنا داوبنا حتى عاود الظلام كرّته ، وحيانا هلال التسع بمحياه الباسم ، فصلينا المغرب ونهضنا للسرى ، وعن يميننا إلى جنوب شداد جبل يسمونه « دماغة » وعن يسارنا إلى شمال شداد أواخر كبكب ، وأمامنا إلى الشرق جبل يدعونه « تفتف » .

---

(١) الافناد : جمع فند وهو طرف الجبل وماتدنى منه . والشث : نبت طيب الريح بدبغ به . والخزم : نوع من الشجر .

من شداد إلى الكر :

خريق الرأس ، الجرف أو أبو الحراجل ، حراجل الكر
كلمة فى أسماء المواضع ، قرية الكر

سرينا ، والليل رضيع ، والفصلُ ربيع ، آخذين إلى اليمين قليلا ، فاخترقنا بعد اليسير من المسير ، وادياً يدعونه (« خريق الرأس » بالقاف لابالفاء ــ خلافاً لما فى الرحلة الحجازية ــ وهو واد متسع تكثر فيه أشجار الطلح ولكنها لاتعوق السالك . اجتزناه بنحو ساعة وارتفعنا قليلا إلى واد آخر يسموته « الجرف» وفيهم من يسميه « أبو حراجل » وقد تبادر إلى ذهنى عند سماعى لفظ الحراجل أن أصلها الأحراج ــ لكثرة ما هناك من احراج الطلح والسلم ــ وزيدت فى آخرها اللام إلحاقاً ، ثم علمت أن الحراجل فى عرفهم جمع حرجلة وهى عندهم الحجارة المتراكمة[1] وفى هذا الوادى وما يليه كثير من هذه الحجارة فى الطريق وعلى جانبيه . ولفظ « الجرف» أصح تسمية لهذا الوادى لما جاء فى معجم ياقوت من قوله : « الجرف موضع قرب مكة كانت به وقعة بين هذيل وسليم » ــ تخطيناه فى نحو نصف ساعة وانتقلنا منه إلى واد آخر صعب السلوك ، كثير « الحراجل » عبثت فيه يد السيول يسمونه « حراجل الكر » إضافة إلى المكان الذى هو وجهتنا فى هذه الرحلة ، وقد عانينا الصعاب فى اجتياز هذا الوادى ، المشتبكة أشجاره الشائكة ، بحيث كان يتعذر على الراكبين منا أن يتجاورا فى طريقهما . وللبغال عادة سيئة فى مثل هذه المضائق ، فإنها تزدحم متسابقة وهى تتكسع فى الوعر ، فيصطدم الراكب بالراكب ، وكثيراً ما مزق الشوك أطراف ما تحتنا من فرش وضعت لننام عليها إذا مسنا النعاس ، ولولا شدة التحفظ والاحتياط والانتباه للعبث أيدى الأشواك بأطراف ثيابنا وبصماداتنا[2] .

---

(١) والحرجلة فى اللغة : الأرض الحرة (المؤلف) .

(٢) الصمادة بضم الصاد فى عرف اهل الحجاز اليوم : مايوضع على الرأس دون العقال ويسميها أهل الشام الكوفية أو الكفية . وفى اللغة الصماد ــ ككتاب ــ مايلفه الانسان على رأسه من خرقة او منديل دون العمامة (المؤلف) .

وليس فى طريقنا من شداد إلى الكر ما يجدر بالوصف لأن أكثره على نسق واحد رمال وحجارة وأشجار شائكة ، وتنقل من واد إلى واد يفصل بين أحداهما والآخر فارق لايشعر به غير الخبير بتلك المناهج ممن اعتادوا سلوكها ، وسمعوا من أفواه البدو أسماءها . وهؤلاء يطلقون على كل جبل وثنية وتلعة وسبيل اسماً يعرفونها به ، ولم أر كبير فائدة فى تتبع أسماء لاأذكر شاعراً متقدماً أشار إليها ، ولا مؤرخاً ذكرها ، بل يمكننى أن أقول أنها أسماء غير ثابتة لأنك بينما تعرف هذه العقبة تدعى بكذا إذ تجدها بعد أعوام قد اختلف اسمها بحادث يطرأ عليها ، أو وحش يظهر فيها ، أو واقعة قتال تحدث بها . ولا ينحصر هذا الحكم بهذا المكان ، بل يراه متعقب الأخبار والأسماء يصح على أكثر أماكن البادية فى الحجاز وغيره ، اللهم إلا فى المواضع الكبيرة المشهورة التى يعسر فيها تغلب الأسماء الحادثة على أسمائها المعروفة بها فهى ، تثبت طويلا محفوظة بينهم بالتداول والتوارث — . والمسافة من أول هذا الوادى « حراجل الكر » إلى قرية الكرّ تقرب من ساعة .

أقبلنا على الكر بعد سرى ساعتين ونصف من شداد ، فإذا هناك بضعة **بيوت كلها على نسق ما وصفناه فى عرفة . والكر قرية على سفح جبل كرا ، ماؤها لابأس به . أوينا إلى أحد أكواخها الحجرية أو أعشاشها البشرية ؟ فبتنا تلك الليلة وللتعب فى أجسامنا أثر زال فى الصباح .**

جبل كرا :

نهضنا صبيحة يوم الخميس تاسع صفر ، نرفع أبصارنا إلى **جبل كرا** ، لنبصر ذروته فلا نرى ؟

وركبنا بادىء ذى بدء نحو نصف ساعة ترتفع بنا الدواب صعداً فى طريق وعرة وعثة كانت قد جددت عمارتها عام مقاتلة الوهابية فى أيام محمد على باشا المصرى ، ثم خربها السيل فبقيت آثار العامر منها ، وهو حجارة ملساء لاتملك الدابة حافرها ولا الإنسان قدمه فى سلوكها إلا بشق النفس . وأما الخرب فحجارة وصخور متراكمة على غير نظام . وقد حاول بعض

الرفاق أن يكابر فيصبر على الركوب فقلت له : لاتنس أن روحك الساعة فى حافر بغلك : إن زلق هويت ، وإن هويت فأنت ميت ؟ — فنزل ، وأخذنا نصعد ذلك الطود المتعلق بقرص الشمس يداعبها وتنفر منه؟ تارة نتسلق ، وطوراً نحبو ، وآونة نجلس ثوانى أو دقائق ، حتّى بلغنا منتصفه وقد تغير الهواء فرقّ وأنعش ، ورأينا شجر العرعر وهو من فصائل الصنوبر ، والأثب وهو أشبه بشجر الكينا ، والتين البرى . وقلّ السلم والطلح . وفى هذا الجبل نمور وضباع وذئاب لم نرها — والشكر لله — وتقل فيه السباع ، وتكثر القردة (السعادين) وقدر رأينا فى طريقنا سرباً منها . ونباتاته كثيرة الأنواع منها العطرى والصباغى .

وواصلنا الصعود حتّى جاوزنا ثلثيه ، واشتد بنا الظمأ فأبصر بعضنا عيناً من الماء تنبع على يسار الصاعد يسمونها « المعسل » قيل لنا أنها دائمة النبع لاتجف صيفاً وشتاء فنزلت إليها أبل الصدى ، فرأيت ماءً يسيراً بارداً فيه أثر من طعم الطحلب ، وهى صغيرة لاتتجاوز دائرتها المترين وعدنا إلى الصعود ، فرأينا قبل ذروة الجبل حوضاً غير كبير يجتمع فيه ماء **المطر منحدراً مما فوقه من معلاة الجبل وهو جاف لا أثر للماء فيه . وما بلغنا قمة كرا إلا بعد ثلاث ساعات من ابتداء صعوده أى من مغادرتنا الكر ، وقد يخيل للإنسان أن نزوله عن كرا أسهل من صعوده ، والحقيقة أنهما سواء لأن المصعد يتسلق ، والمنحدر يزلق ، ومدة اجتيازه واحدة صعوداً وانحداراً .**

وللشعراء والأدباء لطائف فى وصف كرا منها قولهم « صعود كرا يحرم من الكرى ؟ » ولم أجد فى ما بين يدى من كتب التاريخ وصفاً مسهباً لهذا الجبل[1] إلا أن ياقوت يقول : «كرا — مقصور — ثنية بين مكة

---

(١) كتب عن هذا الجبل سيدى الوالد وصفا مطولا فى مجلة العرب الغراء السنة الثامنة صفحة ٨٦٧ / ٨٧٧ وفى السنة التاسعة صفحة ٣٧ / ٤٥ ستة ١٣٩٤ هـ بعنوان : طرق الطائف إلى مكه وانظر هامش صفحة ١٢١ . . كما قرأت له قصيدة لها نحو أربعين عاما وصف فيها هذا الجبل قبل اصلاحه مطلعها :

والطائف » وقال فى موضع آخر : « وبالطائف عقبة وهى مسيرة يوم للطالع من مكة ، ونصف يوم للهابط إلى مكة ، عمرها حسين بن سلامة وهو عبد نوبى وزر لأبى الحسن بن زياد صاحب اليمن فى حدود سنة ٤٣٠ ﻫ فعمر هذه العقبة عمارة يمشى فى عرضها ثلاثة جمال بأحمالها . . » اﻫ — ولعل هذه العقبة هى عقبة كرا ، وما قبله فإن فيها طريقاً تسلكها الجمال أظنها هى التى عمرها حسين بن سلامة وقد خربت ، فجدد عمارتها محمد على (كما تقدم) ثم خربتها السيول الآن إلا قليلا منها .

بلَغَ النَّجْمَ فَانْتهَى وتَرامى وأَضَلَّ العُقُولَ وَالأَفْهَامَا
وَبدَأَ أَجْرِدًا كَثِيبًا عَمِيقًا يَسْتَفِزُّ الْقُلُوبَ والأَوْهَامَا

كما قال فيه من قصيدة بعد إصلاحه وافتتاحه سنة ١٣٨٥ ﻫ

كَرِّرِ الحجَّ لِلْحِمَى والزِّيارهْ تُدرِكِ اليَوْم مِنْ كَرى أَوْطَارهْ
كَانَ طَودًا فَصار سهلًا فَسِيحًا جدَّد اللهُ سُبْلهُ وَمنارَهْ
كَان صعْبًا فَصار روْضًا أَنِيقًا أَنطَق اللهُ بِالشَّذَا أَطْيارهْ
وهُنا شِيحُهُ وتِلْكَ خُزاماهُ تُحلِّى بشَامَهُ وعَرارهْ
وهُنَا صخْرُهُ يُدلُّ بِفخرٍ كَنْتَ لِلدَّهْرِ بأْسهُ وفَخارهْ
وهُنَا أَوْ هُنَاكَ فيْضٌ مِن المَاء يُروِّى لَنَا أَزْهارهْ
رُبَّ بانٍ طَرِيقَهُ خَلَّد اللهُ لَهُ مُلْكَهُ وأَعْلَى اعتِبارهْ
قَدْ أَتى بِالْجمِيلِ والأَثرِ النَّافِعِ يرْجُو مِن الإِلَهِ انتِصارهْ
ويُوالى لَهُ الدُّعاءَ أُناسٌ سلكُوا نَهْجهُ ودارَوْا مدارهْ
رَبِّ إِنَّ الإِنْسانَ أَضْعفُ مخْلُوقٍ ولكِنْ أَعْمالُهُ جبَّارهْ
إِنْ أُتى صادِقُ العزْمِ مِنْهُ بِيقينٍ ضَاعفَتْ عَزْمهُ واقْتِدارَهْ
إِنَّ خيْرَ الأَعْمَالِ ما يتَبقَّى شَامِخًا تَقْرأُ الورى أَسْطارهْ

وكرا ، مقصور فى رواية ياقوت وأما الشعراء فيمدونه ، قال أحدهم وهو من مروياته أيضاً من أبيات :

كَأغلبَ مِنْ أسودِ (كَراءَ)وِردٍ يَشُدُّ خَشَاشَهُ الرَّجُلُ الظَّلُومُ

فى الهدة :

قبائلها ، فواكهها ، مولد الحجاج ، بنو صخر ، جبلا الحبل وشعار.

ولما بلغنا قمة كرا ،ظهرت أمامنا قرى الهدة فاتجهنا إلى إحداها على غير تعيين ، فنزلنا للراحة وتناول الطعام ، وأجلنا النظر فى ذلك السهل المرتفع فإذا سكانه من متحضرة البدو يعمل بعضهم فى زراعة أرضه ، وبعض يؤجر نفسه لنقل أكياس الحبوب وغيرها . وقرى الهدة سبع على عدد القبائل النازلة فيها وتسمى بأسماء قبائلها وهى : الغشامرة . وبنو صخر . والقصران . والأغربة[١] والأخولة[٢] واللمضة . والبنى[٣] .

والهدة مرتفعة عن سطح البحر ٦٥٠٠ قدم وفى الرحلة الحجازية ١٧٦٠ متراً . ولاعتدال مناخها يكثر فيها شجر التين والرمان والسفرجل والصبر (ويسمونه البرشومى وهو التين الشوكى) واللوز . وفيها كثير من الورد يستخرجون ماءه على طريقة التقطير . وماؤها عذب بارد لم نشرب مثله فى مكة ولاجدة . وأمطار قرى الهدة قليلة جداً فقد عرفنا عند نزولنا بها أن السماء لم تمطرها من عامين إلا رذاذاً أو رشاشاً .

ومن غريب الصدف أن نزولنا كان فى قرية بنى صخر تلك القرية التى لايزال بعض العارفين يتناقلون أن مولد الحجاج بن يوسف الثقفى كان

(١) وهم يلفظونها « لغربه » بكسر اللام وسكون الغين وكسر الراء « المؤلف » .

(٢) ويلفظونها « لخولة » بكسر اللام وسكون الخاء وفتح الواو واللام الثانية « المؤلف » .

(٣) إن الغشامرة والقصران وبنى صخرهم من قبائل قريش لا من قبيلة ، ثقيف وأما الكمل واللمظة والخولة ، والغربة ، فهم بطن من النمور ، والنمور فرع من ثقيف وانظر تفصيل ذلك فى تعليق على الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف – الطبعة الثانية نشر مكتبة المعارف بالطائف صفحة ٣٣٦ – ٣٤١ وانظر هامش صفحة ١٤٧ – ١٥١ من هذا الكتاب .

فيها[١] وهذه القرية بضعة بيوت قديمة ، ولكنها ليست بأثرية . وقد سألنا من بها عن علاقتهم ببنى صخر القاطنين فى بلاد الشام فقالوا : إنهم أبناء أعمامنا وكانت هذه منازلهم ، وقد نزحوا منذ عهد طويل على أثر قتال نشب بيننا وبين مجاورينا ، ولم يبق منهم هنا غير رجل وعائلته فأنسل أسرتنا التى ترونها الآن . ولاريب فى أن قلة عدد بنى صخر فى الهدة تدل على قرب عهد بنى عمهم بالجلاء ، فإنهم هنا قد لايزيدون عن الخمسين رجالا ونساء ، فلعل بنى صخر الشاميين هاجروا منذ مائتى سنة أو نحو ذلك . وهم يسقون أراضيهم بماء الينابيع والآبار ، يستخرجونه إلى سطح الأرض بالسوانى : وهى أبقار تربط بحبال وتربط فى تلك الحبال قرب ، فتذهب الأبقار خطوات وتعود ، فإذا أقبلت على البئر نزلت القرب فيه فامتلأت ، وبذهابها تصعد القرب فتفرغ ماءها فى حوض على طرف البئر .

وفى جوار الهدة جبلان شاهقان يسمون أحدهما « الخبل » والثانى « شعاراً » ويؤكد الخبيرون أن البحر الأحمر يرى بالعين المجردة من « شعار » صباحاً وكذلك سهول تهامة ، وبين البحر وشعار مسيرة يومين ونصف .

وقد سمى القلقشندى فى صبح الأعشى الهدة وادياً ، قال : ومن أودية مكة « الهدة » وهى واد على القرب من بطن مر ، على مرحلة ونصف من مكة وهى بيد بنى (جابر) ؟ (— وبطن مرّواد فى شمال مكة على مرحلة منها يمر به حجاج مصر والشام ، وبه عيون ومياه تجرى ونخيل كثيرة ، وفواكهها وبقولها تحمل إلى مكة اهـ .

---

(١) رجح حضرة الوالد — ان مولد الحجاج بن يوسف كان فى قرية الصخيرة شرق وادى ليه والطائف لافى قرية بنى صخر بالهدة وذلك ان صاحب معجم البلدان أشار إلى أنه ولد فى (قرية كوثر) وقد اندرست هذه القرية ولم تعد تعرف وينم عليها انها بالصخيره ماعرف أن هناك عين ماء مدورسة بها كانت تدعى عين كوثر .

(قال الشاعر يهجو الحجاج وقد لقبه بكليب) .

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه صبية الكوثر

وانظر معجم البلدان لياقوت عند رسم (كوثر) .

وقال ياقوت : الهدة موضع بين مكة والطائف وهو ممدرة أهل مكة ، والمدر طين أبيض يحمل منها إلى مكة تأكله النساء (كذا) ويدق ويضاف إليه الإذخر يغسلون به أيديهم . وقال فى موضع آخر : هدى منقول عن الفعل الماضى من هدى يهدى إذا أرشد : موضع فى نواحى الطائف ا هـ .

أقول : والشائع اليوم على ألسنة مجاورى الهدة هو تسميته « الهدى » بالقصر والتعريف وليس فى كلام ياقوت ما يفهم منه تعريفه بأل مقصوراً ، كما أن ثقات المؤرخين لم يذكروه بغير التعريف وهاء ساكنة فى آخره أو تاء معقودة .

إلى الطائف :

كرا الصغير ، وادى المحرم ، جبل مسرة ، الطائف

نهضنا من الهدة بعد صلاة الظهر نتابع السير ووجهتنا الطائف . فلم نجتز مسافة تذكر حتى انحدرنا قليلا ثم أخذنا نصعد جبل كرا الصغير (كما يسمونه) وهو ذروةشاهقة فى طريقنا ، وشتان ما الكبير والصغير ؟ ومنه عدنا إلى الأنصباب فانحدرنا نزولا : اضطررنا فى أوله أن نترجل عن دوابنا مسيرة ربع ساعة نزلنا بها نحو ثلثمائة قدم عن ارتفاع الطائف، وركبنا فاستلمنا وادياً صغيراً انتهينا منه إلى « وادى المحرم » وفيه مسجد خرب وابنية يسيرة ، ومن هذا الوادى يحرم القادمون على مكة من أهل الشرق واليمن وحضرموت وعمان حجاً أو اعتماراً ، ولذلك سمى المحرم . ثم وصلنا إلى جبل يسمونه « مسرة » وقد يعرّفه بعضهم فيقول « المسرة » وهو سلسلة جبال ، بلغنا أولها بعد مسيرة ساعة ونصف من الهدة . ولعلها جبال السراة المشهورة فإنى لم أجد اسماً للمسرة فى ما عثرت عليه بمكة من كتب تخطيط البلدان . ومن أحد منعرجات هذا الجبل ظهرت لنا أعالى منازل الطائف، فلم نفتأ مواصلين السير بين الجد والمهل حتى بلغنا الطائف، ونزلنا فى دار مدير شرطتها .

الأمن :

عشية الثلاثاء ١٤ محرم ١٣٣٩ بينما كانت الشمس تلقى على المشرق نظرات الوداع رأى أهل جدة (على ساحل البحر الأحمر) شابين يبرحان مدينتهم ووجهتهما مكة . أحدهما مكتس برداءى الإحرام ، حاسر الرأس ، تعبث النسمات ببرديه ، وقد ركبا حمارين شديدين فمضيا مستظهرين المدينة مستقبلين الجبال والرمال . سأل المحرم رفيقه بعد أن ابتعدا عن جدة مسيرة نصف ساعة : ما إسم هذا الجبل الذى نراه أول جبال طريقنا ؟ فقال : الرغامة . واستمرا فى مسيرهما .

لم يجريا أكثر من ساعتين فى ذلك القفر الخالى ، والليل باسط جناحيه ، حتى لاح لهما بدويان يحملان بندقيتين ، يمشيان الهوينى ، مقبلين عليهما ، فجزع المحرم فى نفسه وأوجس خيفة ، وجعل يستعيذ بالله ويتلو ما تيسر له من آى الكتاب . ومرا بالبدويين ففاتاهما مائة متر أو أكثر ، والمحرم يترقب رصاصة من أحدهما تتناقل صوتها الأطواد الثابتة ، والأودية الرحبة ، ولكن البدويين اخترقا سبيلهما مكتفيين بنظرتين ألقياهما عليه وعلى رفيقه ، ولم ينبسا ببنت شفة .

وبعد أن امتدت مسافة الشوط بين الفريقين تحرك لسان المحرم فى حديثه مع رفيقه يعرض له بذينك المسلحين اللذين كانا يستطيعان سلبه وإياه ما معهما من نقود ومتاع ، فأدرك رفيق المحرم ما داخله فدعاه إلى الطمأنينة وقال : ثق ياسيدى انك آمن حيث سرت . قال المحرم : إذاً فما شأن هذين ؟ — قال : هما عسس فى هذا البر ؟

فعجب المحرم من أمر لم يكن يتوقعه ، واستمر فى حديثه فقال لرفيقه : وهل عهدكم بمثل هذا الضبط بعيد ؟ فهز رأسه قائلا : منذ حكم سيدنا ؟[١] .

لم تبرح ذكرى هذه الساعة نفسى منذ أول ليلة دخلت بها الحجاز محرماً ولقد ذكرتها حين كنا نخترق — فى رحلتنا هذه من مكة إلى الطائف — الأودية والهضاب ليلنا ونهارنا . وكنت أرى كثيراً من أمثال ذينك — من العسس — فآنس بهم ؟ وأذكر كلمة الرفيق الأول : ثق ياسيدى أنك آمن حيث سرت ؟

(١) كان الامن فى الحجاز قبل الدولة الهاشمية مضطربا والاعتداء على الاموال وسفك الدماء من قبل البدو وصل إلى الحد الذى بلغت معه الفوضى مبلغها ، وحينما جاءت الدولة الهاشمية أرادت وضع حد لهذه الفوضى وجدت واجتهدت ولكنها عجزت قوتها عن تأديب البدو وردعهم الذين تعودوا السطو والاخلال بالامن ، ومن أمثلة ذلك ماكان يجرى فى طريق المدينة من قبائلها من سطو ونهب على الحجاج والزائرين وهذا لايجهله أحد ممن أطلع على سير التاريخ أو عاصر تلك الاحداث ثم انظر صفحة ١٦٠ — ١٦١ من هذه الرحلة ورغبة المولف السفر إلى مكه عن طريق اليمانية ثم صدوفه عن طريقها لعدم توفر الامن فى طريقها . والمعجزة الكبرى التى تم بها استتباب الامن فى ربوع هذه الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا واينما سرت تلك هى التى تمت على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله وضاعف أجره — فلقد كانت الجزيرة التى يظللها حكمه مضرب المثل حقا فى الامان والاطمئنان وانظر رحلة الامير شكيب ارسلان فى كتابه الارتسامات اللطاف صفحة ١٧٢ وتعليق عليها فى صفحة ١٩٧ — ١٩٨ الطبعة الثانية ·

الطائف

« نظرة الشاعر والباحث ، تسميته ، فتحه ، خروج الترك ، آثاره ، أعلامه ، داخله ، طرقه إلى مكة ، عكاظ ، خلاصة ، ما حوله ، قبائله ، الرحلة الحجازية » .

إذا جال الشاعر جولته الأولى فى الطائف . ورأى ما حول مدينته من ربيع ونبات . وينابيع وجداول . وفواكه وأزهار . وحدائق وبساتين . لم يشك بصدق ما يتلوه فى مقدمات تواريخ الفاكهى(١) والعجيمى(٢) والميورقى(٣) . وأشباههم ممن نقل هؤلاء عنهم ، كياقوت(٤) وابن أبى الصيف(٥) أو نقلوا عن هؤلاء وأولئك ، كالقارى(٦) وغيره إذ يراهم متفقين .

---

(١) عبد القادر بن أحمد بن على الفاكهى المكى المتوفى فى أواخر القرن العاشر له كتاب فى الطائف سماه « عقود اللطائف فى محاسن الطائف » قال المؤلف : اطلعت عليه مخطوطا عند قاضى الطائف الشيخ عبد الله كمال ، وهذا الكتاب فى أحد عشر كراساً ، وفى هذه النسخة نقص قليل ، كتبت سنة ١٢٨٦ اهـ . من تعليق المؤلف ، كما ترجم له المؤلف فى كتابه «الأعلام»

(٢) إمام الحرمين الشيخ حسن بن الشيخ على العجيمى المكى من علماء أواخر القرن الحادى عشر له رسالة صغيرة ممتعة فى الطائف سماها « اهداء اللطائف من اخبار الطائف » قال المؤلف : اطلعت عليها مخطوطة اهمن تعليق المؤلف ، كما ترجم له المؤلف فى كتابه « الآعلام » .

(٣) الشيخ احمد بن على العبدرى ثم الميورقى المالكى الطائفى الوجى مسكنا توفى فى آخر ذى الحجة سنة ٦٧٨هـ . ودفن بمقبرة تجاه ركن المسجد العباسى من خارجه ، له رسالة فى الطائف سماها « بهجة المهج فى بعض فضائل الطائف ووج » قال المؤلف : رأيتها مخطوطة اهـ . من تعليق المؤلف ، كما ترجم له المؤلف فى كتابه « الأعلام »

(٤) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى صاحب « معجم البلدان » وهو أشهر من أن يذكر وله كتب كثيرة وليس هذا مكان الافاضة فى ترجمته توفى سنة ٦٢٦هـ .

(٥) مفتى الحرمين أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن على ابن أبى الصيف اليمنى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ له كتاب فى الطائف سماه « زيارة الطائف » قال المؤلف : رأيت بعضهم ينقل عنه ولم اعثر على نسخة منه وقد ترجم له المؤلف فى كتابه « الأعلام » .

(٦) قال المؤلف : الشيخ عبد الحفيظ القارى عن علماء الطائف المتأخرين له رسالة فى تاريخ الطائف لم يزد فيها على ما فى كتب سابقيه إلا بقوله عند ذكر ما كان فى الطائف من المآثر والمزارات : وقد اندرس اكثر المآثر التى ذكرها المؤرخون » . كتب هذه الرسالة سنة ١٣٠٨ هـ . وقد ترجم له الوالد فى مجلة العرب السنة (الثانيه صفحة ١٠١ — ١١٤ عند الكلام على مؤرخى الطائف .

أو يكادون يتفقون . على أن الطائف قطعة نقلت إلى الحجاز من الشام . وفيهم من يقول من اليمن . يستدلون على هذا بخصبها واختلافها عن غيرها من بقاع الديار الحجازية بطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وجمال نضرتها ، وحسن خضرتها .

لنفرض أن هؤلاء وفى جملتهم بعض أصحاب المعاجم العربية كانوا يعتقدون حقيقة أن جبريل انتزعها من الشام أو اليمن ، وطاف بها على البيت الحرام ثم ألقاها فى هذه البقعة بعد أن اقتلع البلدة التى كانت فى موضعها وقذفها إلى المكان المحمولة تلك منه ، فذهبت الأولى بحرها وجفائها الموروثين عما جاورها من بادية الحجاز ، وأتت هذه بما كان لها من طيب المناخ ، وجمال المنظر وقوة الإنبات !

ولنفرض أن القلقشندى كان على ثقة من أن الطائف انقطعت من الشام فى طوفان نوح وحملها الماء وطافت بالأرض حتى أرست فى هذا الموضع . .

لنفرض أنهم كانوا يعتقدون هذا الوهم حقيقة ، فلا يمنعنا ذلك من أن نراه اليوم خيالا شعرياً جميلا مقبولا ! وما بين أيدينا وتحت أنظارنا من آداب العرب والإفرنج مفعم بأنواع المجاز الجارى مجرى الحقيقة ، مملوء بضروب الأمثال الموضوعة وضع التشبيه والتمثيل . فلنقل معهم إن الطائف من غير أرض الحجاز ، وأن الملائكة قد حملوها من أقاصى الديار ، لتكون جنة هذه الأقطار !

ولنقل ونحن فى هذه البقعة من بقاع الحجاز إننا فى مصيف من مصائف الشام ، أو مخلاف من مخاليف اليمن ، أو جنة من جنان مصر . فليس على الخيال حرج ، وللشاعر أن يشبه ماشاء بماشاء ما اتفق له وجه الشبه .

وقد يأخذ الشاعر إخذ المؤرخ الإفرنجى «سيديو» فيقول معه : «الطائف بستان مكة» ؟ وربما عاد إلى دواوين الأدب فأعجبه منها قول عروة بن حزام وقد خرج من سور الطائف ونظر إلى واديه «وج» فإذا حمامة ترفرف على أحد أغصانه :

أَحقًّا يا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ بِهٰذَا النَّوْحِ أَنَّكِ تَصْدُقِينَا
غَلَبْتُكِ بِالْبُكَاءِ لأَنَّ لَيْلِي أُوَاصِلُهُ وَأَنَّكِ تَهْجَعِينَا
وَإِنِّى إِنْ بَكَيْتُ بكَيْتُ حقًّا وَأَنَّكِ فى بُكَائِكِ تَكْذِبِينَا
فَلَسْتُ وإِنْ بَكَيْتُ أَشَدَّ شَوقًا ولَٰكِنِّى أُسِرُّ وَتُعْلِنِينَا
فَنُوحِى يا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ فَقَدْ هَيَّجْتِ مُشْتَاقًا حَزِينًا !

ذلكم هو الطائف فى نظر الشاعر المفتون بجمال الطبيعة ، المأخوذ بمحاسنها .

وأما الباحث فإذا عرف الطائف وأنعم فيه نظره ، رأى غير ما يراه الشاعر من شأنه وموقعه ومكانته .

للباحث فى الطائف كلمات ثلاث : الأولى فى موقعه العسكرى والسياسى . والثانية فى مكانته الاقتصادية . والثالثة فى شأنه التاريخى . ولا أرى بأساً فى الإشارة بإيجاز إلى هذه الأمور الثلاثة :

١ — موقعه العسكرى والسياسى : غير خاف أن حكومة الحجاز الحاضرة والحكومات التى خلت من قبلها ، لم تختر الطائف ليكون مقر جيشها النظامى إلا بعد أن عرفت عظم شأنه بوقوعه الفاصل المدنى بين سهول العراق من شرقه ، وديار الحجاز من غربه وأصقاع اليمن من جنوبه . فهو وما يليه من أراض واسعة وأودية وجبال وسهول يعد أمنع ثغور الحجاز البرية وأشدها حاجة إلى ما فيه من قوة . وهو مجتمع القبائل ، ومحتشد العشائر . قال الفاكهى فى تاريخ مكة : « كان لمدينة الطائف خطر عند الخلفاء فى ما مضى وكان الخليفة يوليها رجلا من عنده ولا يجعل ولايتها لصاحب مكة » . وروى غيره من أصحاب التواريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفى كان قد اتخذ الطائف معسكراً لجيشه فى محاربته لعبد الله بن الزبير يرسل منه الجند إلى مكة فصيلة اثر فصيلة .

ولأمراء مكة وأشرافها عناية خاصة به . فهو مصيفهم ومتنزههم يمكثون فيه شهرين أو ثلاثة أشهر من كل عام يبتعدون عن قيظ مكة .

وينظرون فى شأنه عن كثب . وكان الملك حسين قبل النهضة لاينقطع فى كل سنة عن الإقامة فيه أكثر الصيف تفد عليه به وفود القبائل فيتفقد أحوالها ويستميل شذاذها . حتى كانت النهضة فاكتفى بأن يوفد كل سنة أحد أبنائه فينوب عنه هناك .

وفى أخبار جاهلية العرب أن الطائف لما عمرت ونمت كرومها وكثرت خيراتها حسدت القبائل سكانها بنى ثقيف . فشنت عليهم الغارات . وأقبل نحوهم الغزاة حتى اضطروا إلى إحاطة مدينتهم بسور يمنع العادى ويصد المقتحم . فأقاموه واتقوا ماكانوا يحذرون . وضعفت عن قتالهم العزائم فتركتهم قبائل العرب وشأنهم حتى قيل أنهم بمناعة بلدهم ووفرة خيره أغبط الناس عيشاً . وضربت الأمثال بامتناع الطائف على من اقتحمه — قال أبو طالب ابن عبد المطلب :

مَنَعْنَا أَرْضَنَا مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَمَا امْتَنَعَتْ بِطَائِفِها ثَقِيفُ
أَتَاهُمْ مَعْشَرٌ كَيْ يَسْلُبُوهُمْ فَحالَتْ دُونَ ذَلِكُمْ السُّيوفُ

٢ ـــ مكانته الاقتصادية : الطائف أحد أبواب الحجاز التجارية الكبيرة وأرضه أغنى أراضى الحجاز بعد وادى فاطمة . يحمل ما يزيد عن أهله من حاصلاته وفاكهته إلى مكة وغيرها . ويكثر فيه السمن والصوف لكثرة القبائل الضاربة فى قراه والمخيمة فى أطرافه وكلها تعيش من أوبار إبلها وحليب نوقها . وللماشية والاذواد فى هذه البلاد قيمة كبيرة لأن ما تنتجه قد يعدل ما تأتى به المزارع الخصبة والبقاع المنبتة . ومتى كثر العاملون فى تربية المواشى استفادت البلاد من خيراتها ، فكيف بالطائف وأكثر قبائله لاعمل لها إلا إصلاح شأن ماشيتها ، واستدرار أخلافها ، والانتفاع من أثمان صوفها ووبرها . والعادة أن المدن القريبة من منازل البداة يعود عليها من التجارة معهم ما لاتفوز به المدن البعيدة عنهم فالطائف من هذه الوجهة أكثر استفادة من غيره لأن القاطنين حوله وفى قراه من أبناء البادية وأرباب الماشية وأصحاب المزارع أكثر ممن حول سواه من مدن الحجاز وأوفر ثروة وأنعم عيشاً .

وللمؤرخين إعجاب شديد بكروم الطائف وزروعها، وناهيك بمثل سليمان بن عبد الملك الأموى يدهش من كرم فى قرية من قرى الطائف. نقل صاحب معجم البلدان فى كلامه على الوهط (إحدى قرى الطائف يأتى ذكرها) [١] أن سليمان مر بها بعد حجه فأطال النظر إليها وسأل: لمن هذا الكرم؟ فقيل: لعمرو بن العاص فقال: هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لأحدمثله ! !

وفى كتب السيرة النبوية أن المسلمين لما بلغوا أطراف الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا واديه «وجّاً» أعجبهم سدره فلهجوا به وقالوا: ياليت لنا مثل هذا ! ثم قالوا: يارسول الله أفى الجنة سدر كسدر وج؟ ؟ فأنزل الله تعالى: «.. وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود» أى لا شوك فيه !

ويدل ما ينقله المؤرخون أيضاً على أن أهل الطائف كانوا فى جاهليتهم أهل قصف ولهو وغنى ويسار، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما صالحهم اشترط عليهم(١) أن يسلموا ويقرهم على ما فى أيديهم من أموالهم وركازهم(٢) أن لايرابوا(٣) أن لايشربوا الخمر.

قال البلاذرى فى فتوح البلدان: وكانوا ـ أى ثقيف ـ أصحاب ربا. ونقل عن المدائنى أنه كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا فيه للتجارة فوضعت عليهم الجزية. ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف.

٣ ـ شأنه التاريخى: وأما شأنه التاريخى فإنه من أقدم البلاد العامرة فى الحجاز حتى إنك لترى المؤرخين وعلماء تخطيط البلدان يخبطون فى تاريخه على غير هدى، فياقوت يقول: إن الطائف كان يسمى وجاً باسم وج بن عبد الحى من العماليق ويذكر أن وجاً هذا هو أخو أجأ الذى سمى به جبل طىء وهما من الأمم الخالية. وابن عباس ينقل عنه أن الطائف بنى فى زمن ابراهيم عليه السلام عصر بنيت الكعبة. وابن الكلبى يروى أن الطائف هى بلد الثمرات التى رزقها الله ابراهيم نبيه حين دعاه: «.. فاجعل

(١) أنظر صفحة ١٤٦

أفئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات » وأكثر المفسرين على أن الطائف هو إحدى القريتين الواردتين فى قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يروى أن القريتين هما مكة والطائف. إلى آخر ما هنالك من أخبار وأقوال . . وسواء أصح ذلك كله أم اتفق حدوث بعضه ، فإن للطائف شأناً فى تاريخ الحجاز غير يسير . ولئن كان أكثر أصحاب الرحلات والخطط لم يسهبوا كل الاسهاب فى الكلام عليه ، فذلك لأن هؤلاء إنما كانوا يكتفون من الحجاز بأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة وأطرافها القريبة منها ويزورون قبر النبى عليه الصلاة والسلام . فيرون فى مكة والمدينة وما بينهما الغنية عن قطع المراحل وزيارة الطائف وما إليه من جهاته الأربع . خذ مثلا صاحب معجم البلدان وابن بطوطة وابن جبير وصاحب نفح الطيب وغيرهم من أكثر الرحالين وجوابى الآفاق والمؤلفين فى هذه الأبحاث فإنهم لم يزوروا الطائف ولا عرفوه إلا بما يسمعون عنه من الأقدمين أو ممن عاصرهم ، معرفة رواية لاشهادة ، وخبر لااختبار .

أما مؤرخو الطائف المتأخرون كالفاكهى والعجيمى وأمثالها ، فإنهم لم يجدوا بين أيديهم من المادة التاريخية ما يزيدون به على ما يتلونه فى تواريخ سابقيهم إلا شذرات ونتفاً من أسماء بعض قرى الطائف وآبارها .

هذه علة الغفلة من المؤرخين عن التعرض للطائف بالإطالة المعهودة فيهم عند الكلام على أمثاله من البلاد التاريخية القديمة .

ولقد عانيت ما عاناه متأخرو الكاتبين عن الطائف بعد أن اندرس جُل ما فيه من آثار ومعالم ، فظفرت باليسير من الكثير ، وبالنزر من الوفر ، ولعل من سيكتب عنه بعدى يزيد على ما لم أعثر عليه ، فإن البحث فى الطائف ما زال قاصراً عن التعريف بحقيقته . وليكشفن العلم للناس فى الغد ، ماهم غافلون عنه اليوم[١] .

---

(١) لسيدى الوالد كتاب فى تاريخ الطائف اسماه (الطائف – جغرافيته – تاريخه – انساب قبائله) لايزال مخطوطا وقد اوشك على الانتهاء منه لطبعه وهو المرجع لى فى بعض هذه التعليقات .

تسمية الطائف :

لم أجد حتى الآن ما أعول عليه فى تحقيق الباعث على تسمية هذه الديار بالطائف ، وأهل التاريخ يتناقلون أخباراً فيها ما هو أشبه بالأوهام منه بالحقائق ، ولعل أقرب ما ينقلونه من الصحة رواية القلقشندى وياقوت أن اسمها القديم « وج» ثم أقامت بها جموع ثقيف وبنوا عليها حائطاً مطيفاً بها كالذى يسمونه الآن بالسور ، (وقد جددت عمارته مؤخراً) فسميت الطائف من إطافة الحائط بها . ويوردون فى اسم من ارتأى بناء ذلك الحائط قصصاً منها : أن رجلا من أهالى حضرموت من [قبيلة اسمها] الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك ، قتل ابن عم له يدعى عمراً ، وفر من حضرموت لاجئاً إلى من يؤويه حتى بلغ وجاً ومعه مال كثير ، فأتى مسعود بن معتب الثقفى فقال : أحالفكم على أن تزوجونى وأزوجكم وأبنى لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لايصل إليكم أحد من العرب فيه ! قالوا : فابن . فبنى بما معه من المال طوفاً ، فسميت الطائف ، وتزوج إليهم الدمون فزوجوه . وفى معجم البلدان (ج ٦ ص ١٢) قصة يرويها عن ثقيف والنخع تنتهى بمثل ما انتهت إليه هذه القصة من شاء فليتلها فيه ، فإنى لا أجد فائدة من الإطالة فى مثل هذا .

فتح الطائف :

« بدء الدعوة إلى الإسلام ، حصار الطائف ، إسلام ثقيف » .

لا أريد الإفاضة فى الكلام على فتح الطائف فى زمن النبوة لأن هذا مما يجده المطالع فى أكثر كتب السير والفتوحات، ولكنى سأوجزه فى إيراد قصة وفود النبي على ثقيف قبل استفحال شأن الإسلام لما فيها من بيان ماعاناه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بدء ظهور دعوته ، وأختمها بما انتهت إليه حال ثقيف فى الإسلام :

قال علماء السير : لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس من ثقيف[١] نصرته بعد أن أخرجه قومه من مكة (وذلك فى شهر شوال من السنة العاشرة للنبوة) عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادات قومهم وهم ثلاثة إخوة : عبد ياليل ومسعود ، وحبيب : أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفى . وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح . فجلس رسول الله إليهم وكلمهم فيما جاء به من طلب القيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ؟ وقال الآخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ ! وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، إن كنت رسولا من الله كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى أن أكلمك !

فنهض رسول الله وقد يئس من خير ثقيف ، واستكتم الثلاثة ما دار بينه وبينهم ، خيفة أن يبلغ ذلك قومه فيزيدهم عليه . فلم يفعلوا ، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه

(١) قال المؤلف : ثقيف : أهل الطائف فى العصر الاسلامى ، واما اليوم فلا منازل لهم فى بلده وانما ينزلون فى بعض القرى المجاورة له كالمثناة والسلامة وقروة والعقيق والمليساء . وقد وهم صاحب « تاريخ سيناء » فضبط اسم القبيلة بالتصغير (ثقيف) والصواب فتح الاول وكسر الثانى .

ونقل صاحب « تحفة اللطائف » أن ثقيفاً بطن من هوازن من العدنانية ينسبون إلى اب لهم لقبه ثقيف واسمه قسى بن منبه بن بكر بن هوازن اه قلت : ان كثيرا من ثقيف نزلوا بداخل الطائف وشاركوا سكانه بل شاركهم سكانه حتى أصبحت أسرهم تعد أقلية بين الكثير من سكانه داخل الطائف ، أما اختصاصهم فى السكنى بالمثناة والسلامة وقروة والعقيق والمليساء ، فليس كذلك بل لاتكاد تلمح جماعة منهم فى تلك الاماكن ماعدا (المليساء) فيسكنها جماعة الحمدة من ثقيف ومع هذا فقد سكنها معهم بعض الاشراف وغيرهم ومساكن ثقيف المختصة بهم مثل الشفا يسكنه بنو سفيان وقبيلة طويرق تسكن غربى الطائف أو شماله الغربى فى المبيرز ومحشكه . . . . وقبيله النمور من ثقيف أيضا مجاورون لطويرق ويسكنون غربى الطائف بوادى المحرم وفى بلادهم المعروفة بلاد النمور ، أما قبيلة عوف من ثقيف فسكناهم بوادى ليه . وبنو سالم من ثقيف سكناهم بواديهم المعروف وادى بنى سالم شرقى الطائف وفى الجنوب الشرقى منه ، أما قبيلة ثماله ويعدونها بطنا من ثقيف فسكناهم بواديهم المعروف شرقى جنوب الطائف وادى ثماله وانظر تعليقى على الارتسامات اللطاف الطبعة الثانية صفحة ٣٣٦ - ٣٣٩ .

إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه . فجلس – وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يصنعه سفهاء أهل الطائف – فتحركت له رحمتهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه عداس فقالا : يا عداس ؟ خذ قطفاً من هذا العنب إلى ذلك الرجل وقل له يأكل منه . ففعل عداس ما أمراه به . فلما وضع العنب بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ودعاه ليأكل مد إليه النبي يده قائلا : بسم الله الرحمن الرحيم . ثم أكل . فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام لايقوله أهل هذه البلدة ؟ فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أى بلدة هو ومادينه ؟ فتسمى له وقال : أنا رجل نصرانى من أهل نينوى . قال رسول الله : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ – قال عداس : أوتعرف شيئاً عنه ؟ . قال : ذلك أخى كان نبياً وأنا نبى ! فأكبّ عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه ، وأسلم . وابنا ربيعة يبصرانه عن بعد ويعجبان من أمره . فلما جاءهما قالا له : ويلك ياعداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ؟ قال ياسيدى ما فى هذه الأرض خير من هذا ؟ لقد أخبرنى بخبر ما يعلمه إلا نبى . فقالا له : ويحك ، لايصرفنك عن دينك ؟ فثبت على إسلامه .

وهذه الزيارة هى أول زيارة قدم بها النبي صلى الله عليه وسلم الطائف ولا يزال المكان الذى أسلم فيه عداس معروفاً فى المثناة يزار[1] .

ثم عاد رسول الله من ليلته فبات فى مكان يدعى « بطن نخلة » وانصرف من صبيحته إلى مكة فدخلها بعد أن أجاره مطعم بن عدى . ولم يدخل الطائف بعدها حتى فتحت ، مكة وكانت غزوة حنين وفاز بها المسلمين فقصد الطائف ماراً « ببحرة الرغا » من « لية » ونزل أمام حصن الطائف ، فحصر ثقيفاً أربعين ليلة وذلك سنة ثمان من الهجرة . وضرب سورهم بالمنجنيق وسير إليهم الدبابات ، فألقوا عليها سكك الحديد محماة بالنار ، فقتلوا بعض من بها

(١) ليست زيارة هذه الآثار من الزيارات المشروعة ، بل ربما غالى بعض الجهال فيها بالاعتقاد الفاسد حتى خرج بها إلى الشرك بالله ونحمد الله على انتشار العقيدة الصحيحة ونبذ الأوهام والخرافات

لأنها كانت تصنع من جلود الإبل والبقر ويدخلون جوفها فتقيهم من السهام والحجارة ، كما رأيت فى هامش على كتاب تحفة اللطائف لجار الله المكى [١]

ولما لم يسلموا أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للجيش بالرحيل وعاد به إلى أن بلغ الجعرانة (وهى قرب مكة) فقسم بها غنائم حنين وكانت الغنائم قد أرصدت بها .

ولما كان العام الثانى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من ثقيف إلى المدينة فأسلموا ، وفشا الإسلام فى ثقيف . وكانوا بعد وفاة النبى عليه السلام من أثبت الثابتين على الإسلام حتى كانوا يقتلون من يرتد منهم ؟

خروج الترك :

« ثورة الحجاز ، مهاجمة الطائف ، الاستيلاء عليه ، عرب البادية فى حروبهم » .

لما اشتدت وطأة الترك على العرب وقام الشريف حسين بن على بنهضته ، موالياً للحلفاء ، ومعاهداً لهم ، على ما سأجمله فى ما يلى من هذا الكتاب عهد إلى ثانى أبنائه الشريف عبد الله بمهاجمة الطائف وإجلاء الترك عنها ، فقصدها عبد الله يوم الخميس ٧ شعبان ١٣٣٤هـ وتم له فتحها يوم ٢٦ ذى القعدة من السنة نفسها بعد أن قاومت ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً . وآب إلى مكة فنشر فى جريدة « القبلة »[٢] حديثاً مع مديرها . هذه خلاصته :

قال الأمير عبد الله : قصدت الطائف فى ٧٠ هجاناً عقيلياً ، فوصلتها يوم ٩ شعبان ١٣٣٤ وعلمت أن الترك قد شعروا بحدوث أمر فى الحجاز فاستطعت أن أمحو هذا الحس من نفوسهم بعد أن اجتمعت بغالب باشا[٣]

---

(١) قال المؤلف جار الله هو : محمد عبد العزيز بن عمر العلوى الهاشمى المكى . من علماء القرن العاشر . زار الطائف مع أبيه سنة ٩١٥ هـ والف كتابه هذا «تحفة اللطائف فى فضائل ابن عباس ووج والطائف » وهو يقع فى مئة صفحة قسمه إلى أربعة أجزاء صغار رأيت منه نسخة مخطوطة فى مكة وعلى ظاهرها : « هذا التاريخ غير المذكور فى الكشف» يريد كشف الظنون وقد ترجم له المؤلف فى كتابة «الأعلام» .

(٢) قال المؤلف : الجريدة الرسمية لحكومة الحجاز تصدر بمكة مرتين فى الاسبوع .

(٣) قال المؤلف : والى ولاية الحجاز وقائد جيشها التركى يومئذ ، كان مصطافا فى الطائف فى داره =

= فى داره وأبديت له سرورى وشكرى من حسن سلوكه معنا . . وتوجهت من داره إلى معسكرى فى « الوجريات » بجهة « القديرة » من قرى الطائف . وهناك اجتمع لى جمع قسمته إلى ثلاثة أقسام ، أعظمها قسم قبائل « عتيبة » فى الشمال الغربى للطائف ، ويدخل فيه الشرق كله ، والقسم الثانى وهو الجنوبى مؤلف من قبائل عوف وثمالة وبنى سفيان وهذيل ، والثالث وهو الغربى مؤلف من قبائل قريش وطويرق والنمور . فقطعنا الأسلاك البرقية وهاجمنا الطائف صباح الإثنين ١١ ، شعبان ثم حاصرناها فخرجت قوة الترك إلى جبال « أم الشيع » و « المداهين » و « شرقرق » فى شمال الطائف ، وهضبة « أم السكارى » فى الجهة الغربية . وبعد خمسة أيام وصلت إلينا أسلحة جديدة من البنادق وخرجت قوة من الترك فاستولت على هضبة « الشهداء » شرقى الطائف وهضبة « دقاق اللوز » فوجهت إليهم ثلة من الخيالة بقيادة الشيخ فاجر بن شليويح الروقى ، فأخرجناهم بعد أن قتلنا منهم ٤٨ جندياً ، وأمرت قسماً من هذيل الطلحات وآل حجة من بنى سفيان فأغاروا على هضبة « أم السكارى » وقتلوا حاميتها وضبطوها ، فانسحب الترك من جبال « أم الشيع » و « المداهين » و « شرقرق » إلى هضاب « الشريف » وجبال « أبى صحفة » و « معشى » و « عكابة » ، وفى العشر الثانى من رمضان وصل إلينا ستة مدافع وست رشاشات ، ثم جاءنا فى العشر الثالث من شوال المدفع الضخم من طراز « هاوتزر » ، ويوم ٢٢ ذى القعدة اضطر القائد التركى للالتجاء إلى بيت عربى فى الطائف فأصلينا هذا البيت ناراً حامية ، فاضطر للتسليم ، وأمضى بقبول الشروط فى قرية « المليساء » على أن يخرج هو ومن معه من الضباط — وكانوا نحو خمسين ضابطاً — إلى شبرة فى ظاهر البلد ، ثم تذهب إحدى القوى العربية إلى الثكنة الكبرى فى الطائف ، فينسحب جنود الترك من مواقعهم العسكرية ، ويدخلون الثكنة فيشبكون بنادقهم فى أحد جوانبها ، ويجلسون فى غرفها . وتم ذلك كله فى اليوم التالى ، فكان دخولنا الطائف يوم ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٣٩ هـ وقد حافظنا على عائلات الأسرى وبعثنا إليها بالمؤمن الكافية ، ولم نجرد الضباط من سيوفهم ، ولم نأخذ منهم مسدساتهم ،

وجىء بهم إلى مكة ثم إلى جدة حيث سيقوا إلى معاقل الأسرى وكانت قوة الترك فى الطائف ثلاثة آلاف مقاتل جرح منهم ٣٠٠ وقتل منهم ١٧٠٠[1]

ثم تكلم عن طرائق أهل البادية فى حروبهم فقال : نشأ العرب فى وسط السلاح ، ومهروا فى أساليب الحرب ، وهم لايحاربون إلا متفرقين لئلا يؤذيهم رصاص البنادق وشظايا القنابل ، ومن أبهج أحوالهم أنهم فى أثناء نشوب المعارك يتفرغ بعضهم للقتال ، ويشتغل بعضهم بتهيئة الطعام ، ويجلس بعضهم لشرب القهوة ، ويتسلى بعضهم بألعابهم وأغانيهم ، حتى كأن هؤلاء الجماعات لا يدرون شيئاً من أمر المعارك الناشبة فى جانبهم ، وبعد قليل يذهب المستريحون بسلاحهم إلى ساحة القتال ويعود المحاربون إلى المعسكر للاستراحة كأنهم لم يكونوا فى حرب .

ولهم فى أثناء القتال مهارة عجيبة فى الاختفاء وراء الحجارة الصغيرة ، والانبطاح على الأرض ، والتقلب من مكان دون أن يرى الأعداء أشخاصهم . ولهم فى كل هذه الأحوال رشاقة وخفة يد فى إطلاق الرصاص ولا تكاد رمية أحدهم تخطىء غرض صاحبها . والعربى وقت الحرب قائد نفسه ، له الحرية فى اختيار المكان الذى يرى السلامة فيه ، من حيث ينال مأربه من عدوه . ولا يتقيد إلا بالخطط العامة التى يعطاها . وكان الأعداء لايستطيعون التفريق بين أحجار الأودية وأجسام العربان ، بل ربما كان يخيل لهم أن الرصاص يأتيهم من الصخور والأحجار لا من بنادق الرجال .

وأكثر ما يحارب العرب وقت الظهيرة . وإذا أرادوا الهجوم اختاروا له منتصف الليل ورجحوا وقت احتجاب القمر . ولهم حروب سهلية وحروب جبلية ، فالحروب السهلية يمتطون فيها الخيل والهجن لسرعة الانتقال ، وأكثر عربنا مهارة فى ذلك قبائل عتيبة . وأما الماهرون فى حرب الجبال فهم ثقيف وقريش وبنو سفيان والنمور وطويرق وهذيل وأشباههم من عرب الحجاز .

---

(١) ان روايات المشاهدين المعمرين تخالف كل المخالفة ماكتبه المؤلف فيما رواه عن الامير عبد الله ، فلقد كان الاتراك – أكثرهم – يدينون بالاسلام ، وفى معرة هذه الحرب جرى عليهم من الاهانات بعد الانتصار عليهم ماوددنا تفاديه ولكنها الحرب . وحكومتهم باعلانها تمسكها بمبدأ حزب الاتحاد والترقى وخلع خليفتهم ثم دخولها الحرب فى جانب الالمان أوجدت فى النفوس كثيرا من التشويش والفوضى .

آثار الطائف

« مساجده ، المقابر والأنصاب ، الخطوط القديمة فى جباله ، الأصنام »

الطائف قليل الآثار القديمة لكثرة ما طرأ عليه من نوازل الحروب والسيول ، وإنى لذاكر ما رأيته تاركاً الزيادة عليه لمن يتوسع فى بحثه عنه ويكون له من الوقت والوسائط والمعرفة بأنواع الخطوط القديمة كالكوفية والمسمارية والمسند ما يكفى لتتبع كل أثر قديم فيه . أما الشاخص اليوم من آثاره فينحصر فى ثلاثة مواضع : المساجد ، والمقابر ، والجبال . وإليك مجمل ما عثرت عليه فيها :

الأول — المساجد القديمة البناء : وهى فى شكلها وحجارتها وهندسة بنائها جديرة فى أن تؤخذ رسومها ، إلا إننى لم يكن معى ما أصورها به ، كما أنه ليس فى الطائف رسام ما هر أعتمد عليه فى هذا الشأن ، فمنها :

١ — المسجد العباسى : وهو مسجد الحبر ابن عباس وله الشأن الأكبر فى مساجد الطائف ومزاراته وقد دفن فيه جماعة (يأتى الكلام على بعضهم فى ذكر أشهر المدفونين فى الطائف) وهو متسع مستطيل ينسب إلى ابن عباس لأنه مدفون فيه . وقد كان ومازال موضع عناية زائريه ، كلما تخرب منه جانب عمر . قال العجيمى : ومن جملة من كانت لهم يد فى عمارته الملك المظفر يوسف بن عمر بن على ابن رسول ، صاحب اليمن سنة ٦٧٥هـ والمستضىء بأمر الله العباسى سنة ٥٩٢هـ وأمير الحاج المصرى رضوان بك سنة ١٠٤٧ هـ والشريف زيد بن محسن بن الحسن بن الحسين ابن أبى نمى سلطان مكة (كذا) جدد عمارته سنة ١٠٦١ هـ قال : وقد زادت القبور فى المسجد العباسى وكثرت حتى امتلأ نصف صحنه بها ، ولولا نهى الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه لتواصل وصار جميعه مقبرة . وكانت صلاة الجمعة تقام فى مسجد الجمعة فى « السلامة » حتى اتفق فى أيام هذا الشريف أن كثر القادمون على الطائف فأمر ، بإقامة الصلاة فى

المسجد العباسى وذلك فى ٣ جمادى الأولى سنة ١٠٥٤هـ ، ثم قال : وكانوا لا يقيمون الجمعة فيه لاعتباره مقبرة لامسجداً .

وجاء فى كتاب أشراف مكة وأمرائها[١] إن والى الشام محمد باشا العظم عهد إلى الشيخ محمد العنتبلى سنة ١١٩٣ هـ بأن يزيد فى مسجد الحبر ، فزاد فيه ٣٢ ذراعاً طولا ومثلها عرضاً . وكان ذلك فى أيام إمارة الشريف سرور بن الشريف مساعد بن الشريف سعيد فلما اطلع على هذه الزيادة جدد فى المسجد عقدين فى العام نفسه . قال صاحب هذا الكتاب : وفى ٢٨ رجب سنة ١١٩٣ توجه الشريف سرور بأهله إلى الطائف من مكة ونزل فى قرية السلامة . وفى نصف شعبان أخرج له الهلال القديم الذى كان على قبة الحبر منذ بنيت هذه القبة على يد المستنجد بالله يوسف العباسى سنة ٥٥٥ هـ وكان الهلال صفراً مموهاً بالذهب ، فوضع الشريف سرور بدلا منه هلالا أبدع فى صنعته ، زنته ٦٠٠ أوقية من الفضة النقية ثم سوده الندى فأمر بتمويهه بالذهب ، وبعد زمن غير طويل أخرجه ووضع آخر أكبر منه يقارب وزنه قنطاراً وموهه بالنضار سنة ١١٩٦ هـ[٢]

٢ — مسجد عداس فى المثناة : ينسب لعداس أول من آمن فى الطائف ، وقد مرّ ذكره فى فصل فتح الطائف . وهو مدفون فى هذا المسجد . وفى تاريخ الميورقى أن هذا المسجد أقيم فى المكان الذى آوى إليه النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم به عداس ودفن فيه . قال : ووقف له أحد أهل الخير بستاناً لخدمته .

---

(١) قال عنه المؤلف : مخطوط ، فيه تراجم جماعة من اشراف مكة وامرائها ابتداء من سنة ١١٦٥هـ إلى سنة ١٢٢٠هـ وهو مرتب على السنين ، بارد السجع ، ضعيف الانشاء ، وفى آخره اخبار كثيرة عن حرب الوهابية وكانت فى أيامه كما يظهر من كلامه. رأيت منه نسخة فى دار الكتب العامرة بمكة ، فى نيف و ٢٥٠ صفحة ناقصة الاول والآخر والوسط ، وليس فيها مايعرف منه اسم المؤلف .

(٢) وفى سنة ١٣٧٨هـ بدأت حكومة « المملكة العربية السعودية بعمارة المسجد العباسى عمارة كاملة اعادت بناء منارته وأبوابه وزادت فى مساحته نحو الغرب اكثر من ضعفه وتم فى سنة ١٣٨١ هـ

وفى اللطائف للحضراوى[1] ما يؤخذ منه أن هذا المسجد كان يعرف قبل زمنه باسم « مسجد السنوسى » وعرف فى أيامه باسم « مسجد الربيع » قال : وهو مشرف على السلامة . أما اليوم فما زال الكثيرون يعرفونه بمسجد الربيع ، وأدباء الطائف محافظون على تسميته باسمه القديم « مسجد عدّاس » . وهو من قديم الآثار والمزارات .

٣ — مسجد ينسب للنبى صلى الله عليه وسلم : أول من بناه عمرو ابن أمية بن وهب بن معتب بن مالك لما أسلمت ثقيف . ثم خرب فجددت عمارته زبيدة بنت جعفر العباسية . قال الفاسىّ فى شفاء الغرام : وجدت بخارج الجدار القبلى من المسجد العباسى حجراً مكتوباً فيه : « أمرت السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر أم ولاة عهد المسلمين بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة ١٩٢ » وقال الحضراوى : المسجد المنسوب للنبى صلى الله عليه وسلم هو الآن (أى بعد سنة ١٣٠٠ﻫ) تحويطة صغيرة طولها يزيد عن ذراع ملاصقة للجدار القبلى من القبة الأخيرة الواقعة فى آخر المسجد العباسى على يمين الداخل من بابه الشرقى . اﻫ — ولا يزال إلى يومنا على هذه الصفة .

هذه أشهر المساجد القديمة فى الطائف .

الثانى — المقابر والأنصاب : وهنا يجد المنقب كثيراً من الخطوط القديمة منها الكوفى والنسخى وما بينهما . وجلها يرجع عهد كتابته إلى القرنا لخامس والرابع للهجرة وفيها ما هو قبل ذلك ، يدل عليه أنه مهمل من النقط ، وتقرأ فى ظاهره صورة من مرور الأعصار والأزمان . وأكثر هذا النوع بل كل ما رأيته منه عار عن تاريخ كتابته إلا ماجاء فيه من أسماء الرجال المدفونين فى تلك المقابر ، فإن فيهم القديم والحديث ، ولم أر بين هذه القبور ما يرتدّ زمنه إلى أوائل العصر الإسلامى ، لأنهم فى ذلك العصر

(١) قال عنه المؤلف : الحضراوى : هو الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الحضراوى من علماء مكة المكرمة توفى بعد سنة ١٣٤٠ بقليل وأسم كتابه « اللطائف فى تاريخ الطائف » جمعه من عدة تواريخ ، وهو فى خمسة كراريس رأيت منه نسخة مخطوطة بمكة ناقصة قليلا من آخرها . وقد ترجم له فى كتابه « الأعلام »

لم يكونوا يعنون بنقش الأنصاب (وهى المعروفة الآن بالشواهد — جمع شاهدة) بل كانوا يدفنون الميت ويهيلون عليه التراب، ويكتفون بوضع حجر عليه، وإشارة إلى أنه موضع دفنه ليزوره أهلوه وأقرباؤه. أما الاهتمام بشأن المدافن واللحود فقد حدث بعد الجيل الأول من أجيال الإسلام، كما يظهر لمن تتبع آثار الرمم البوالى، والعصور الخوالى.

ولم تكن العرب فى القرون الثلاثة: من أواخر القرن الأول إلى أواخر القرن الرابع للهجرة تعنى بكتابة شىء على قبورها غير آيات من القرآن الكريم، وتابعها على ذلك أبناء المئات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فجعل أكثرهم يكتب الآية ويتبعها باسم المدفون، وفيهم من يكتب نسبه وشأنه وتاريخ وفاته إن كان من ذوى الأنساب أو الزعامة والشأن. وفى أبناء هذه المئات من يضيف إلى الآية والنسب والتاريخ أبياتاً من الشعر الجيد يصح التمثل بها فى باب الزهد بالحياة والحنين إلى لقاء وجه الله.

فمن نوع ماكان يكتب بعد القرن الأول: نصب رأيناه خارج سور الطائف فى المقبرة العامة، استدللنا من خطه واكتفاء ناقشيه بالآية على أنه مما كتب بين المئة الثانية والثالثة.

وأما ماكان يكتب بعد الرابعة: فرأينا كثيراً منه. أحده: نصب فى هذه المقبرة أيضاً نقشت عليه آية الكرسى، وفى أدناه «هذا قبر يوسف ابن الحكيم رحمه الله» وليس عليه تاريخ ولكن الخط جميل واضح على القاعدة الكوفية. وثانيه: نصب لم يكتب عليه شىء من آى القرآن الكريم بل اكتفى فيه بذكر الإسم والنسب والتاريخ وهو: «هذا قبر يحيي بن شجاع بن يوسف بن عبد الله بن على بن (غير واضحة لعلها الكبير) توفى سنة تسع عشرة وخمسمائة».

وفى مكة كثير من هذا النوع أجمله وأوضحه نصب رأيته محفوظاً فى دار الحكم (قصر الملك) طوله شبران وعرضه شبر واحد كتب فى أعلاه «بسم الله الرحمن الرحيم: قل يا عبادي الذين أسرفوا — الآية» وتحتها

« هذا قبر الأمير مفرج بن الحسين بن يحيي بن فليته بن القاسم — إلى — ابن موسى الجون — إلى — ابن الحسين بن على . توفى يوم الجمعة الرابع من ربيع الآخر سنة ست وثمانين وخمسمائة » وعلى أطراف الآية والنسب أبيات يقرأ منها :

هِيَ الْحَيَاةُ إِذَا سَرَّتْ أَوائِلُهَا ... فَفِي عَواقِبِها التَّفْرِيقُ والنَّكَدُ
إِذَا الزَّمانُ بِصَرْفِ الدَّهْرِ مَدَّ يَدًا ... فَمَنْ لَهُ بِتَصارِيفِ الزَّمَانِ يَدُ
وَالمَوْتُ يَخْتَرِمُ الأَحْيَاءَ عَنْ أَمم ... غصْبًا فَلَا دِيَةٌ فِيها وَلَا قَوَدُ

وبعد هذه الأبيات بيتان أحدهما ممحوّ والآخر :

رَحلْتُ وَكنْتُ مَا أَعْدَدْتُ زَادًا ... ومَا قَصرْت فى زَادِ الْمُقِيمِ

وعلى جانب النصب من أعلاه هذان البيتان :

تَرَحَّمْ بِفَضْلِكَ يَا واقِفًا ... وَأَبْصِرْ مَكانًا دُفِعْتُ إِلَيْهِ
تُرَابُ الضَّرِيحِ عَلَى صَفْحَتِيَّ ... كَأَنِّيَ لَمْ أَمْشِ يَوْمًا عَلَيْهِ !

وفى أسفله : « عمل عبد الرحمن بن أبى حرمى عفى الله عنه » .

ومن أراد مثل هذا فى قبور الطائف ومكة وجد كثيراً من أشباهه تختلف خطوطها بين الوضوح والغموض والجودة والرداءة ، اكتفى منها بما قدمته .

الثالث — جبال الطائف : وهنا ما تضيق الصفحات عن استيعابه ، فإن فيها ما هو ملىء بالكتابات القديمة والمتأخرة والحديثة . منها بالعربية ومنها بحروف أظنها المسمارية ، ومنها برسوم كأنها كتابة ، ولعل فيها ماكتب قبل الإسلام .

من ذلك صخرة كبيرة مرتفعة تستقبل القادم عليها من الطائف وهى على مسيرة ثلاثة كيلو مترات من باب الحبر فى الطائف ، صعدنا إليها فإذا كتابات ونقوش وفيرة قرأنا بعد الجهد من كتاباتها : « إن الله وملئكته

يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً — وفى آخرها — محمد بن مهدن » وأظنها من آثار القرن الثالث أو الرابع ، وهناك كتابات أحدث منها لم أتعرض لها ، أما القديم فيها فهو صور حيوانات متناسقة أو شكت نقوشها أن تزول ، ويغلب على الظن أنها مما نقش أيام عبادة التماثيل والهياكل والصور والأصنام . منها صور لانعرف لها حقيقة غير أنها أقرب إلى صورة الفيل لولا أن شكل الخرطوم كنصف دائرة فى رأسه منحنية إلى الداخل من طرفيها . يجاورها غزال ووعل وفرس وربما تكررت هذه الصور .

ومن الكتابات الكثيرة فى هذه الصخرة وما حولها من الصخور الكبيرة الضخمة ، ما هو فى سطرين أو عدة سطور ، وبعضها فى دائرة ، وكثير منها لم نستطع قراءته ، وأما الواضح أو الأقرب إلى الوضوح ، فمن كتابة القرن الخامس أو السادس لمشابهته خطوط الأنصاب السابق ذكرها المكتوبة فى ذينك العصرين .

وقبل هذه الصخور جبل يسمونه « أم السكارى » يزعمون أن سبب تسميته اتخاذ العرب إياه فى الجاهلية موضعاً لاحتساء الشراب ويؤيدون هذا بكثرة ما حوله من الكروم فى وادى المثناة والسلامة ، ولم أجد له ذكراً فى المعاجم العربية القديمة . أخبرنى قاضى الطائف بأن عليه أسطراً تاريخها سنة ١٨٨ ﻫ فصعدته وهو على الجانب الغربى من المثناة فرأيت كتابات كثيرة ولم أر التاريخ الذى ذكره لى ، ولكنه يؤكد أنه رآه . وعلى إحدى صخور هذا الجبل رأيت كتابة تقرب حروفها من اللاتينية ، فنقلتها ولم أهتد إلى من يترجمها لى .

وهناك جبل آخر يبعد عن الطائف مسيرة ساعة إلى جهة الغرب الجنوبى منه يسمونه « الردّف » ويعللون هذه التسمية بترادف حجارته وصخوره بعضاً فوق بعض ، والكثيرون يسمونه « السداد » باسم القرية التى هو فيها وسميت بذلك لأنه كان فيها ثلاثة سدود لمنع السيول ، خرب اثنان منها وبقى الثالث متداعياً .

وفى هذا الجبل ما هو أكثر فائدة مما تقدم ، فقد رأيت فيه خطوطاً متعددة أكثرها غير مقروء يلوح لى أنها من كتابة القرن الثانى أو بعده بقليل . وفيها ما هو قبل ذلك .

ويظهر أن عبد الله بن على بن أبى محجن الثقفى كان كثير الولوع بالنقش فى هذا الجبل ،فقد رأيت له فيه أثرين غريبين ، أحدهما هذا نصه :

« عبد الله بن على بن أبى محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة » .

ونص الثانى :

« عبد الله بن على بن أبى محجن يسأل الله القتل فى سبيله على بركته » .

ومما قرأته فى صخور هذا الجبل :

« عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن يشهد أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » .

وهذه الخطوط الثلاثة يظهر أنها من أواخر القرن الأول للهجرة أو أوائل الثانى .

هذا ما رأيت إثباته مما اطلعت عليه من آثار الطائف القديمة ، وهناك أقوال فى آثار أخر لم تصح عند الباحثين ، كصخرة خارج سور الطائف إلى الجهة الغربية منه ، فيها حفر على نسق واحد يقال إنها مواطىء أقدام الغزالة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بثابت كما حققه الحافظ ابن الأثير ، وكخرق يسير فى جانب صخرة بعد قصر « شبرة » للذاهب من الطائف شرقاً يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم أو علياً رضى الله عنه خرقها بأصبعه ليضع فيها زمام راحلته . . . وهذا غير صحيح أيضاً . وإنما ننفى صحة هذين الأثرين — خلافاً للشائع — لأنهما بعيدان عن المعقول وغير ثابتين فى المنقول . وفى كل بلد من أمثالهما ما يرده البحث فلا نتعرض للإطالة فى وصفهما .

الأصنام :

وقد يلحق ببحث الآثار الكلام على أصنام العرب فى الجاهلية ، وإن كنت لم أعثر لها على أثر ، غير ما نقل لى وأنا فى الطائف عن هيكل « العزى »

من أنه كان محفوظاً هنالك حتى كانت وقعة الوهابية ومحمد على باشا، فعثر الوهابيون عليه فكسروا رأسه ومددوه فى الطريق على باب المسجد العباسى إلى أن زال منذ عهد قريب . وروى لى أن فى طريق السيل (بين مكة والطائف) أثراً شاخصاً يراه المار به عن بعد فى صورة إنسان ، منقوشاً على صخرة ، وحين يقترب منه لايشهد غير أثر تخطيط ونقوش هى أقرب إلى الغموض .

وقد كانت قبائل ثقيف قبل الإسلام تعبد صنمين أحدهما اللات، والثانى العزى ، كما كان لكل قبيلة فى العرب صنم يعبده جهلاؤها ، ويتقرب فيه إلى الله عقلاؤها ، وإتماماً للفائدة أذكر أشهر هذه الأصنام بإيجاز ما استطعت :

١ ــ اللات : قال علماء التاريخ : هو صخرة بيضاء مربعة كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحجاج فى زمن الجاهلية الأولى . ثم اعتقدت ثقيف أن إلهها دخل فى تلك الصخرة ، فبنوا عليها بنياناً وعبدوها ، وجعلوا لها سدنة ، وطافوا حولها ، وضاهوا بها الكعبة ، وجعلوا لها كسوة ، وحرموا الصيد فى واديها . فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها بالنار، وقال ياقوت : هى اليوم (أى فى عصره) تحت مسجد الطائف . فلعل ذلك ما بقى من الصخرة بعد إحراق البناء الذى فوقها وهدمه . وقيل أن أصل اسمها «اللاه» فأبدلوا الهاء بالتاء قبل الإسلام .

٢ ــ العزى : تأنيث الأعز . يظهر من كلامهم أنها كانت على شكل امرأة ، نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها . وكانت فى واد من نخلة الشامية (على ليلتين من مكة) إلى يمين المصعد إلى العراق . اتخذها رجل يسمى ظالم بن أسعد فبنى عليها بيتاً ، وهى أحدث من اللاة ومناة ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح . ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها

يوماً فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومى[1]، وكانت قريش تخصها بالإعظام ، وقد حمت لها شعباً من وادى حراض يقال له سقام ،يضاهون به حرم الكعبة . . وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر. وكان من الناصبين فى عبادتها أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية — وكان عزيزاً فى قريش يعتمُّ بمكة فلا يجسر أحد أن يعتمَّ بلون عمامته . ولما قوى ساعد الإسلام بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى العزى فكسر رأسها وقتل سادنها دبية بن حرمى السلمى .

٣ — مناة : صنم كان بيثرب (المدينة المنورة) يقال إنه أقدم أصنام العرب . وكان أشد الناس تعلقاً به الأوس والخزرج ومن يحذو حذوهم من عرب يثرب وما جاورها ، فكانوا يحجون (إلى الكعبة) ويقفون مع الناس المواقف كلها ولايحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا ، لايرون لحجهم تماماً إلا بذلك . وكانت قريش وجميع العرب تعظم مناة حتى خرج النبى صلى الله عليه وسلم سنة ثمان للهجرة (وهو عام الفتح) فبعث أبا سفيان بن حرب فهدم مناة وأخذ ما كان لها ، ووجد عندها سيفين كان الحارث بن أبى شمر الغسانى أهداهما إليها ، أحدهما يسمى مخذماً والثانى رسوباً ، وهما من أسياف العرب المشهورة . ولم أجد وصفاً لمناة .

٤ — هبل : قيل إنه كان من عقيق أحمر ، على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب ،ووضعته فى جوف الكعبة . أول من نصبه خزيمة بن مدركة ، وقد يسمونه « هبل خزيمة » . وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ،أعظمها عندهم : هبل . وعبدته بنو كنانه — وكانت تعبد ما تعبده قريش — وقد كسر مع أصنام الكعبة يوم فتح مكة .

---

(١) سألت الوالد عن درجة هذا الحديث فقال : هذا خبر موضوع ومكذوب لايصح نقله عن احد من أهل العلم .

٥ ــ ودّ : تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، نقش عليه حلتان متزر بحلة ومرتد بأخرى ، عليه سيف ، قد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبل . كان لبني وبرة في دومة الجندل (المعروفة الآن باسم الجوف على شرق سورية إلى الجنوب) . وكانت سدانته لبني القرافصة بن الأحوص الكلبيين . هدمه خالد بن الوليد .

٦ ــ سواع : صنم كان لهذيل في ينبع . سدنته بنو لحيان .

٧ ــ يغوث : صنم قديم ، كان لمذحج على أكمة في اليمن تعرف بأكمة مذحج ثم نقل إلى نجران .

٨ ــ يعوق : صنم قديم أيضاً كان لهمدان في اليمن قيل في قرية تدعى خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة . قال ياقوت : ولم أسمع لهمدان ولا لغيرها شعراً فيه وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير فدانوا معهم باليهودية أيام تهوُّدِ ذي نواس فتهوّدوا معه .

٩ ــ نسر : من الأصنام القديمة . كان في موضع من أرض سبأ في اليمن فعبدته حمير ومن والاها ولم تزل تعبده حتى تهودت مع ذي نواس .

١٠ ــ إساف : من قديم الأصنام كان بمكة على الصفا وكسره الصحابة يوم الفتح .

١١ ــ نائلة : صنم قديم أيضاً كان منصوباً على المروة بمكة وهو في شكل امرأة وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوا به . كسر يوم الفتح .

١٢ ــ ذو الخلصة : صنم مشهور اختلف المؤرخون في مكانه وهيأته . ومن أقوالهم ــ ولعله الأقرب إلى الصحة ــ أنه مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيأة التاج ، كانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة . وكان سدنتها بني أمامة من باهلة . وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة تعظمها وتهدى لها . هدمها جرير بن عبد الله وأضرم في بنيانها النار بعد أن أسلم

اعلام الطائف

« شهداء وقعته ،بعض المعروفة قبورهم فيه،رجال ثقيف،نساء ثقيف».

تهاون المؤرخين المتقدمين فى الكلام على الطائف أضاع على ابن هذا العصر تراجم كثير من أبنائه فى الجاهلية والإسلام وما بعده إلى يومنا . ولما كانت القاعدة المعمول بها ، أن مالم يكن كله ، فليكن جله أو أقله ، رأيت أن اسمى هنا أشهر من ولدوا فى ديار الطائف ،أو دفنوا فيه ممن توصلت إلى معرفتهم بالنقل أو بالأثر .

شهداء وقعته :

يحسن بى أن أبدأ هذا الفصل بالكلام على من ثبت استشهادهم فى الطائف من الصحابة رضوان الله عليهم فى غزوة النبى صلى الله عليه وسلم لثقيف عام ثمانية للهجرة . وهم اثنا عشر رجلا وبعض المؤرخين يضيف إليهم عبد الله بن أبى بكر الصديق لأنه جرح فى غزوة الطائف وتوفى فى المدينة متأثراً من جرحه فيكونون ثلاثة عشر : سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، وواحد من بنى الليث ، وآخر من ثقيف .

١ ـ عبد الله بن أبى بكر الصديق : لم يمت فى الطائف وإنما جرح فى غزوته ، واندمل جرحه مدة حتى إذا كان فى المدينة انتكث الجرح فتوفى بها .

٢ ـ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى : أمه صفية بنت المغيرة عمة خالد بن الوليد . أسلم قبل فتح مكة بيسير وقتل شهيداً يوم الطائف .

٣ ـ عرفطة بن عبد الله ابن أمية : أحد ثلاثة كانوا يعرفون بزاد الراكب لأن من سافر معهم كان زاده عليهم . توفى شهيداً فى هذه الوقعة على الأرجح .

٤ – السائب بن الحارث بن قيس القرشى : أحد المهاجرين إلى الحبشة قتل فى هذه الوقعة .

٥ – عبد الله بن الحارث بن قيس: من المهاجرين إلى الحبشة أيضاً . قتل فى الوقعة نفسها وهو أخو السائب وبهما انقرضت ذرية أبيهما الحارث .

٦ – طلحة بن عبد الله بن ربيعة : قتل فى وقعة الطائف بسهم من أحد أهليها .

٧ – ثابت بن الجزع ، ويسمى ثعلبة ، الأنصارى الخزرجى السلمى : شهد العقبة وبدراً وقتل بالطائف شهيداً .

٨ – الحارث بن سهيل بن أبى صعصعة الأنصارى ، قتل فى هذه الوقعة

٩ – المنذر بن عبد الله الأنصارى من الخزرج : من شهدائها .

١٠– رقيم الأنصارى : من شهدائها .

١١– رجل من بنى الليث لم يذكروا اسمه : من شهدائها .

١٢– عروة بن مسعود الثقفى : من شهدائها .

١٣– عبد الله بن عامر بن ربيعة : من شهدائها .

وفى تراجمهم والمواضع التى توفوا بها خلاف لاحاجة بى إليه .

بعض المعروفة قبورهم فيه :

١ – ابن عباس : أشهر من دفن فى الطائف ذكراً . صاحب المسجد العباسى فيه ، الصحابى ، ابن عم صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . جد الخلفاء العباسيين . قال صاحب دستور الأعلام : ابن عباس الهاشمى الفقيه المفسر ترجمان القرآن وربانى هذه الأمة ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . وقال غيره : ابن عباس أحد الستة المكثرين من حفظ الحديث عن رسول الله الراوين الألوف ، وهم : أبو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وابن عباس ،

وأنس ، وعائشة . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : ما رأيت أحداً أحضر فهما ولا ألب لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس . وكان علي يقول في ابن عباس : إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق ؟

وكان أبيض وسيماً جسيماً مشرباً بصفرة طويلا صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء ويلبس الخز ويعتم بعمامة سوداء يرخيها شبراً . توفى سنة ٦٨ﻫ وقد كف بصره .

٢ — عبد الله بن عون : أحد أمراء مكة وأشرافها من ذوى عون . الشريف عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون . وبقية النسب معروفة قال زيني دحلان في الجداول المرضية : ولى إمارة مكة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٧٤ﻫ وكان في الآستانة برتبة الوزارة ، فوصل مكة سنة ١٢٧٥ ﻫ واستمر إلى أن توفى سنة ١٢٩٤ ﻫ وهو بالطائف في بستانه المسمى بشبرة وعمره سبع وخمسون سنة ومدة ولايته عشرون سنة إلا ثلاثة أشهر ، ونقل إلى قبة ابن عباس فدفن فيها .

٣ — الشريف جعفر : من أمراء مكة أيضاً ، وهو الشريف جعفر بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن . ولى الإمارة سنة ١١٧٢ ﻫ ثم تنازل عنها بعد شهر إلى أخيه مساعد وتوجه إلى الطائف فمكث به إلى أن توفى سنة ١١٧٨ ﻫ .

٤ — ابن الحنفية : أبوالقاسم محمد بن علي بن أبي طالب . المعروف بابن الحنفية نسبة لأمه ، وتمييزاً لسبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة عنه . كان عالماً ورعاً ، شديد القوة ، له فيها أخبار عجيبة (أنظر وفيات الأعيان) ولد سنة ٢١ وتوفى سنة ٨١ ﻫ والمؤرخون مختلفون في موضع وفاته ودفنه ، وأهل الطائف لايشكّون في أنه بمقبرة ابن عباس . على أن في جملة الأقوال أنه مات في الطائف .

٥ — الميورقي المؤرخ : أبو العباس الشيخ أحمد الميورقي ، توفى سنة ٦٧٨ ﻫ سبقت لنا كلمة عنه . دفن في مقبرة ابن عباس . قال ابن

عراق فى نشر اللطائف : وفى جبانة ابن عباس قبر الشيخ أبى العباس الميورقى ، وبقربها شجرة سدر تسمى الحدباء كانت قريش تعقد الرأى تحتها (وقد زالت الآن)".

٦ — عون الرفيق : الشريف عون الرفيق (باشا) ابن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون . ولى إمارة مكة فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ ووصل مكة يوم ١٠ ذى الحجة وظل متربعاً فى دست الإمارة إلى أن توفى فى الطائف عام ١٣٢٣ هـ فدفن فى مقبرة الحبر بن عباس .

وهناك آخرون من المعروفة قبورهم فى الطائف ، أضربت عن ذكرهم إيجازاً .

رجال ثقيف :

١ — زياد : من أشهر المولودين فى ديار الطائف زياد بن عبيد[١] وهو المعروف بزياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين فى نسبته . كنيته أبو المغيرة ، وأمه سمية[٢] ولد سنة الهجرة . وأسلم فى عهد أبى بكر وكان كاتب أبى موسى الأشعرى فى إمرته على البصرة . ولما توفى على بن أبى طالب كان زياد عامله على فارس فتحصن فى قلعة وعصى معاوية . فألحقه معاوية بنسبة وأثبت أنه أخوه من صلب أبى سفيان . وصالحه على ألفى ألف درهم (٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم) فجمع له زياد إمرة العراق . قال ابن حزم فى الفصل : امتنع زياد وهو قفعة القاع لا عشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم ، فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة وحتى أرضاه وولاه ؟ وقال الذهبى كان زياد لبيباً فاضلا حازماً من دهاة العرب بحيث يضرب به المثل ، وقال الشعبى : ما رأيت أحداً أخصب نادياً ولا أكرم مجلساً ولا أشبه سريرة بعلانية من زياد . وقال الأصمعى : أول من ضرب الدنانير والدراهم ونقش عليها اسم الله ومحا عنها اسم الروم ونقوشهم زياد . وقال العتبى :

---

(١) قال المؤلف : عبيد مولى للحارث بن كلدة الثقفى .

(٢) قال المؤلف : جارية الحارث بن كلدة .

إن زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بحضرة السلطان . وقال الشعبي .: أول من جمع له العراق وخراسان وسجستان والبحران وعمان زياد . وهو أول من عرف العرفاء ورتب النقباء ومشى الأعوان بين يديه ووضع الكراسى وربع الأرباع بالكوفة والبصرة وخمس الأخماس .

وقال الأصمعى : الدهاة أربعة : معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلة ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

ولى العراق وحاول ضم الحجاز إليه فعاجله الموت سنة ٥٣ هـ ولم يخلف غير ألف دينار وقميصين وازارين ، لا دار له ولا عقار .

٢ — الحجاج : ومن مواليد ديار الطائف الحجاج الثقفى . قال الذهبي فى تاريخه : هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود الثقفى (أمير العراق) ولد سنة ٤٠ للهجرة . وروى عن ابن عباس وسمرة ابن جندب وأسماء بنت أبى بكر الصديق وابن عمر . وكان له بدمشق أمر. ولى إمارة الحجاز . ثم ولى العراق عشرين سنة .

قال أبوعمرو بن العلاء : ما رأيت أحداً أفصح من الحسن والحجاج والحسن أفصحهما . وقال يزيد بن أسلم الثقفى : كان الحجاج على مكة فكتب إليه عبد الملك بن مروان بولايته على العراق ، فخرج فى ثمانية أوتسعة على النجائب . وقال عبد بن شوذب : ما روئى مثل الحجاب لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه . كان سفاكاً سفاحاً للدماء . عاش خمساً وخمسين سنة وتوفى ليلة ٢٧ رمضان سنة ٩٥ هـ . قال ابن خلكان : مات الحجاج بواسط وأجرى الماء على قبره فاختفى واندرس . والشائع اليوم أن مولده فى قرية بنى صخر من قرى الهدة وقد مرت لنا كلمة فى هذا الشأن . وخطبه معروفة أشهرها البتراء .

٣ — ابن أبى العاص : أبو عبد الله عثمان بن أبى العاص بن بشر الثقفى أحد الوافدين على رسول الله من ثقيف وكانوا بضعة عشر رجلا هو أصغرهم سناً لايتجاوز عمره إذ ذاك ٢٧ سنة . توسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم الخير

والنجابة فاستعمله على الطائف فكان أول أمير عليه فى الإسلام ، ولم يزل فى عمله مدة حياة النبي وأقره أبو بكر ،ولما انتهى الأمر إلى عمر أبقاه سنتين ثم نقله منه وولاه عمان والبحرين سنة ١٥ ﻫ وفى أواخر أيامه رحل إلى البصرة فمات بها سنة ٥١ وقيل ٥٥ ﻫ .

٤ — الحكم بن أبى العاص : أخو عثمان السابق ذكره ، قيل كانت له صحبه . وولاه أخوه عثمان البحرين فافتتح فتوحاً كثيرة . قال ابن سعد فى الطبقات : ولما كان أخوه على الطائف كتب إليه عمر : أقبل واستخلف أخاك الحكم . فاستخلفه حتى عاد . ولما ولى عثمان عمان والبحرين فى أيام عمر عهد إلى أخيه الحكم بولاية البحرين فأدار شؤونها . ولعله توفى بها .

٥ — عبد الله بن عمرو : بن غيلان الثقفى . أدرك الجاهلية ، وأسلم قبل حجة الوداع . ثم رحل من الطائف إلى الشام فاتصل بمعاوية فكان من كبار رجاله ، وولاه البصرة بعد موت زياد فأقام عليها أميراً ستة أشهر.

٦ — عبد ياليل : بن عمرو بن عمير الثقفى . من عظماء ثقيف ووجوهها فى الجاهلية والإسلام . تقدم ذكره فى فتح الطائف وإسلام ثقيف ، أرسله قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رحيله من حصار الطائف يفاوضه فى إسلامهم وبيعتهم فاستصحب معه وفداً منهم ، واتفق مع النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم هو ومن معه وعاد إلى ثقيف فأسلمت كلها .

٧ — جبير بن حية بن مسعود الثقفى ، ابن عم المغيرة بن شعبة ، وابن أخى عروة بن مسعود . شهد الفتوح فى عهد عمر ، وكان يسكن الطائف يعلم الصبيان فيه ، ثم قدم العراق فاستقر كاتباً فى الديوان ثم ولاه زياد أصبهان وعظم شأنه . ومات فى خلافة عبد الملك بن مروان .

٨ — الأخنس الثقفى : أبو ثعلة أبىّ بن شريق . يلقب بالأخنس . من شجعان ثقيف كان حليف بنى زهرة ، أسلم وشهد حنيناً . ومات فى أول خلافة عمر .

٩ — الأسود بن مسعود : من شعراء ثقيف ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومدحه بأبيات .

١٠ ــ أسيد بن جارية : بن أسيد الثقفى . كان حليفاً لبنى زهرة ، أسلم يوم فتح مكة وشهد حنيناً وأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم مئة من الإبل .

١١ ــ أمية بن أبى الصلت : الشاعر الجاهلى المشهور . من حكماء العرب وعقلائهم كان له نظر فى الجاهلية بكتب الأديان ، وتزهد فلبس المسوح ،وتعبد على دين إبراهيم وإسماعيل، وحرم على نفسه الخمر ، وتجنب عبادة الأوثان ، وأدرك بدراً ورثى قتلاها . وشعره كثير ، وهو من ثقيف ، مات أيام حصار الطائف وهو فيه ، عام تسع .

١٢ ــ يوسف الثقفى : بن محمد بن يوسف . ابن أخى الحجاج . عده صاحب « الأرج المسكى »[١] فى جملة من ولوا أمر مكة المكرمة غير الإشراف . وذكر أنه وليها من قبل الوليد بن يزيد بن عبد الملك عام ١٢٥هـ . وفى « أتحاف فضلاء الزمن »[٢] ما يؤكد هذا وزاد عليه أن ولايته دامت إلى انقضاء دولة الوليد سنة ١٢٦ هـ ولم يذكرا تاريخ وفاته .

١٣ ــ خفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفى . وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم وأنشد قصيدة أورد ابن حجر فى الإصابة بعض أبياتها .

١٤ ــ العرجى : الشاعر المشهور ، عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان ابن عفان القرشى الأموى . قيل له العرجى لأنه كان يسكن قرية العرج فى الطائف . وفى العقد الثمين[٣] أن محمد بن هشام بن إسماعيل كان والياً

(١) قال المؤلف : الارج المسكى والتاريخ المكى ــ للعالم الامام عبد القادر الطبرى الشافعى المكى ،كتاب فى مجلد غير ضخم . منه نسخة مخطوطة بمكة .

(٢) قال المؤلف: اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ــ للشيخ محمد بن على بن فضل بن عبد الله بن محمد ابن يحيى بن مكرم بن المحب محمد الطبرى الحسينى المكى أمام المقام الابراهيمى الملقب بالجمال الأخير ، توفى سنة ١١٦٣ هـ ودفن بالمعلى فى شعبة النور . وكتابه هذا من أجل مارأيت فى موضوعه ، أتى فيه على ذكر امراء مكة المكرمة وغيرهم من ابناء الحسن (رض) وهو مجلد كبير رأيت منه نسخة بمكة حسنة الخط حديثته .

(٣) قال المؤلف: العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين للمؤرخ الامام الحافظ ابى الطيب محمد تقى الدين ابن احمد بن على الحسنى الفاسى المكى المتوفى فى منتصف القرن التاسع للهجرة. كتابه عظيم الفائدة حافل باخبار مكة وهو فى عدة أجلدات كبار ، رأيت نسخة منه بمكة واضحة الخط . « قلت : وقد طبع هذا الكتاب فى ثمانية مجلدات بمطبعة أنصار السنة بالقاهرة على نفقة الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله » .

على مكة لهشام بن عبد الملك فسجن العرجى فى تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر. فلم يزل فى السجن إلى أن مات ولم يذكر تاريخ وفاته .

١٥ — السائب الثقفى : السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر . روى الكلبي عن ابن عباس أنه لم يكن فى العرب أمرد ولا أشيب أشد عقلا من السائب بن الأقرع . دخلت به أمه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام فمسح رأسه ودعا له . ثم استعمله عمر (رضى الله عنه ووجهه إلى نهاوند ، وشهد فتحها . وكان عاملا لعمر على المدائن . ثم ولى أصبهان ومات فيها .

١٦ — سفيان بن عبد الله : ابن أبي ربيعة الثقفى . أسلم مع الوفد . وكان عاملا لعمر على صدقات الطائف عام ٢٤ هـ وقيل أنه كان أحد عمال النبي صلى الله عليه وسلم فى الطائف .

١٧ — الحارث بن كلدة : طبيب العرب ، الحارث بن كلدة بن أبي علاج بن أبي سلمة الثقفى . وفد على كسرى قبل الإسلام وقصته مشهورة . واختلفوا فى إسلامه . وكان فى الطائف أيام حصاره ، والراجح أنه مات قبل حجة الوداع لما يذكرونه من أنه لم يبق من ثقيف فى حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم ، وشهد أكثرهم . وكان الحارث يعالج مرضى المسلمين إذا جيء بهم إليه . وفى ترجمته طول .

١٨ — المغيرة بن شعبة : ابن أبي عامر بن مسعود بن معتب الثقفى : الأمير الداهية من كبار أمراء العرب فى صدر الإسلام . اشتهر بجودة آرائه حتى قيل له مغيرة الرأى . أسلم قبل عمرة الحديبية ،وشهدها وشهد بيعة الرضوان ، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق . وأصيبت عينه فى وقعة اليرموك ففقدها . وولاه عمر البصرة ففتح ميسان وعدة بلاد غيرها . ويذكر أنه أول من وضع ديوان البصرة وأول من سلم عليه بالأمرة ، وكان من قبله عمالا لا إمارة لهم ، ثم نقله عمر إلى الكوفة . وأقره عثمان ثم عزله . ولما قتل عثمان اعتزل المغيرة القتال إلى أن حضر مع الحكمين فبايع معاوية بعد اتفاق الناس على بيعته . وولاه معاوية الكوفة فاستمر على إمرتها حتى مات سنة ٥٠ هـ

١٩ — الشريد بن سويد : الثقفى من سكان الطائف ، قيل كان اسمه مالكاً والشريد لقبه . رحل إلى مصر فى الجاهلية مع المغيرة بن شعبة ثم كانت له صحبة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستنشده شعر أمية ابن أبى الصلت فيرويه ، وشهد بيعة الرضوان .

٢٠ — طريح بن إسماعيل : ابن عقبة الثقفى : شاعر مجيد ضاع شعره . أدرك عصر النبوة فأسلم . ولما صارت الدولة إلى بنى أمية وآل الأمر إلى الوليد بن يزيد فى الشام وفد عليه وتوسل له بالخؤولة لأن أم الوليد ثقفية ، فاختصه الوليد نديماً فكان أكثر شعر طريح فى مدح الوليد . وعاش إلى خلافة المهدى بن المنصور العباسى ، فقصده وأراد الدخول عليه ليسمعه شعره فأبى المهدى . ومات فى أيام الهادى .

٢١ — غيلان بن سلمة : ابن معتب بن مالك الثقفى . شاعر خطيب فصيح ذو شأن وفد على كسرى فى خبر طويل . أسلم بعد فتح الطائف وأسلم أولاده وهم أربعة : عامر وعمار ونافع وبادية . مات فى آخر خلافة عمر .

٢٢ — عامر بن غيلان : ابن سلمة الثقفى . أسلم مع أبية بعد فتح الطائف ورحل إلى الشام مع خالد بن الوليد . وكان عامر فارس ثقيف يومئذ . توفى بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ ورثاه أبوه غيلان .

٢٣ — ابن أبى عقيل : عبد الله بن أبى عقيل الثقفى . كان شجاعاً حازماً ، نزل بالكوفة ، وهو أحد أربعة بعث بهم عمر سنة ٢١ هـ مادة : (نجدة) للأحنف بن قيس فى مرو الشاهجان . ذكره الطبرى فى تاريخه .

٢٤ — عثمان بن ربيعة : من شجعان ثقيف بعثه عثمان بن أبى العاص حاكم الطائف عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى من تجمع من الأزد فى شأن الردة فحاربهم وهزمهم وقال فى ذلك من أبيات :

وَأَبْرَقَ بَارِقٌ لَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَادَتْ خُلَّبًا تِلْكَ الْبُرُوقُ !

٢٥ — عمرو بن شبيل : من ولد عتاب بن مالك الثقفى : شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة . وفى معجم الشعراء للمرزبانى أنه مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وله شعر لم يحفظ .

٢٦ ــ عمرو بن مسعود بن معتب الثقفى . أخو عروة الصحابى المشهور . كان صديق أبى سفيان بن حرب فى الجاهلية، ينزل عليه أبوسفيان إذا أتى الطائف ، وعاش إلى أن أسنّ ، ووفد على معاوية وهو شيخ كبير فأنشده أبياتاً وكان شاعراً .

٢٧ ــ قارب بن الأسود : ابن مسعود بن معتب الثقفى . كان قائداً شجاعاً صاحب رأى . حمل راية الأحلاف يوم حنين، وقيل بل حمل راية ثقيف فى الأحلاف فلما تبين الوهن فيهم قال لقومه : أعصبوا رايتكم بشجرة ليحسب من رآها أنكم لم تبرحوا وانجوا على خيلكم ، ففعلوا فنجوا . أسلم فى وفد ثقيف وقيل قبله .

٢٨ ــ القاسم بن أمية : ابن أبى الصلت الثقفى : كان شاعراً . وأدرك مقتل عثمان بن عفان فرثاه .

٢٩ ــ كنانة بن عبد ياليل : من رؤساء ثقيف يروى أنه الوحيد الذى أبى أن يسلم منهم . ولما أسلمت ثقيف خرج إلى نجران ثم توجه إلى بلاد الروم فمات بها على دين الجاهلية بعد السنة العاشرة من الهجرة .

٣٠ ــ مالك بن عمرو : من خطباء ثقيف وشعرائها . وجهه أبوبكر بعد الردة رسولا إلى مسيلمة باليمامة ، فخطب عنده خطبة بليغة دعاه فيها للرجوع إلى الحق فغضب منه وهمّ بقتله ، فنجا .

٣١ ــ شرحبيل بن غيلان الثقفى . أحد من أوفدتهم ثقيف بإسلامها إلى رسول الله وكان وجيهاً فى قومه ، من ذوى الرأى والعقل ، مات سنة ٦٠ هـ .

٣٢ ــ عروة بن مسعود : الثقفى ، الصحابى المشهور . قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من الطائف فأسلم، وسأل النبى أن يأذن له بالإياب إلى قومه يدعوهم للإسلام فأذن له بعد أن أنذره بشر يصيبه منهم . وكان عروة وجيهاً فى ثقيف ذا منزلة وشأن فلما عاد إلى الطائف صعد إلى علِيَّة له، ودعا قومه إلى ماجاء به فرموه بالنبل فقتلوه. قيل له وهو يلقى الموت : ما ترى فى دمك؟ فقال : كرامة أكرمنى بها الله، وشهادة ساقها

إلىّ ، ليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا بين يدى رسول الله فأدفنونى معهم . فلما مات دفنوه بين شهداء الطائف السابق ذكرهم وعدّ منهم . وكان مقتله سنة تسع من الهجرة .

٣٣ — الحكم بن مسعود : بن عمرو الثقفى : أخو أبى عبيد . شهد وقعة الجسر مع أخيه سنة ١٣ هـ واستشهد بها .

٣٤ — عبد الله بن مسعود : أخو الحكم وأبى عبيد . استشهد معهما فى وقعة الجسر .

٣٥ — أبو عبيد بن مسعود : بن عمرو الثقفى ، والد المختار الثقفى . كان قائداً من كبار الغزاة . آخر ما عرف عنه قيادته الجيش فى وقعة الجسر سنة ١٣ هـ واستشهد فيها . واتخذ يومه تاريخاً ، يقال : قتل فلان يوم جسر أبى عبيد .

٣٦ — المختار الثقفى : ابن أبى عبيد الثقفى . فى ترجمته أعاجيب ، كان شجاعاً مقداماً ، وخطيباً حازماً ، وداهية صليب العود . له مثالب ومناقب . ولد عام الهجرة ورحل من الطائف مع أبيه فى أوائل أيام عمر حين ندب الناس إلى العراق . فاستشهد أبوه وأخوان له يوم الجسر ، وأقام المختار فى المدينة منقطعاً إلى بنى هاشم . ثم كان مع علىّ بالعراق ، وسكن البصرة بعد على . ونفاه بنو أمية إلى الطائف بلدته ، فمكث إلى أن قام عبد الله بن الزبير فى طلب الخلافة ، فجاءه إلى مكة ، فسيره إلى الكوفة ، وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير أمور اتسع خرقها ، فانفرد المختار بجيشه وقاتل مصعباً حتى تغلب مصعب فقتله سنة ٦٧ هـ فى الكوفة ، وكان يجهر بالمطالبة بدم الحسين . وادعى النبوة(١) . وقتل المختار كل من اشترك بقتل الحسين .

---

(١) لايصح ادعاؤه النبوة ، بل كان المختار وزيراً للعلويين بالعراق وممثلا لهم ونصير بنى هاشم بالحجاز ، وتنسب إليه فرقتان كبيرتان من فرق الشيعة : هما : الكيسانية ؛ والمختارية وقد تفرع عن الكيسانية فرقة (الهاشمية) التى لعبت دوراً رئيسياً فى قيام الدولة العباسية ، وانظر كتاب « قبيلة ثقيف ورجالها فى التاريخ » طبع نادى الطائف الأدبى .

٣٧ — أبو محجن : الثقفى الشاعر الفارس المشهور . شهد حرب القادسية وخبره فيها معروف وسكن اذربيجان حتى مات .

من نساء ثقيف :

١ — بادية بنت غيلان : تقدمت ترجمة أبيها غيلان الثقفى . من النساء المعروفات فى التاريخ والحديث . أسلمت حين أسلم أبوها ، ورأت النبى صلى الله عليه وسلم وروت أحاديث عنه وعن عائشة .

٢ — رقيقة الثقفية : أسلمت حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف فى المرة الأولى وكتمت إسلامها حتى ماتت قبل فتح الطائف .

٣ — زينب : بنت أبى معاوية بن عتاب الثقفية ، امرأة عبدالله بن مسعود الثقفى . وروت بضعة أحاديث . وروى عنها غير واحد .

٤ — الفارعة بنت أبى الصلت : أخت أمية بن أبى الصلت الشاعر المشهور قدمت على النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح الطائف ، وكانت ذات لب وعفاف وجمال . وكان يعجبه أدبها ويستنشدها شعر أخيها فتنشده .

٥ — ميمونة بنت كردم : امرأة من ثقيف لها سمعة : رأت النبى صلى الله عليه وسلم وسمعت منه وروت الحديث .

داخل السور :

سور الطائف ، أبوابه ، حاراته ، منازله ، سكانه ، قلعته ، ثكنته ، أميره ، مدارسه ، أدباؤه .

إذا أطلق لفظ الطائف أريد به البلدة وما حولها من قرى وجبال وأودية حتى منتهى الحدود من كل جانب . ولذلك اخترت العنوان « داخل السور » دفعاً للالتباس وحصراً للكلام فى المدينة نفسها .

أحيط الطائف بسور يضم داخل البلدة من جميع أطرافها ، وليس هذا بالحائط الذى يقال إن الطائف سمى لإطافته به منذ عرفت هذه الديار فى

العصور الغابرة ، بل إن ذلك قد اندرس وأقيم هذا بعد عام الألف حول أكبر قرية فى ديار الطائف، وما برح الأمراء والأشراف وغيرهم يتعهدونه بالإصلاح والترميم والبناء حتى بقى إلى الآن حافظاً مكانه.

ولسور الطائف ثلاثة أبواب تغلق كل يوم بعد الغروب ، ويجوز أن تفتح إلى الساعة الثالثة من الليل (نحو التاسعة زوالية) لفريق مخصوص من الناس أو لمن كان معروفاً لدى الشرطة : حفظة الأبواب . وأما بعد الثالثة فقلّ أن تفتح لأحد . والأبواب الثلاثة هى :

١ ــ باب الحزم : وهو الشرقى الموصل إلى شبرة .

٢ ــ باب الريع : وهو الغربى الموصل إلى السلامة والمثناة .

٣ ــ باب ابن عباس : وهو بجانب مسجد ابن عباس يقع على الجهة الجنوبية إلى الغرب من الطائف .

وهذه الأبواب (أو البيبان كما يقولون) يرجع عهدها إلى زمن بناء السور على الغالب، وقد جددت عمارته قبل قدوم محمد على باشا المصرى إلى الحجاز (وكان قدومه سنة ١٢٢٨ هـ) وبقيت الأبواب تعرف بأسمائها إلى اليوم .

والطائف ثلاث حارات (ج : حارة ــ وهم يجمعونها على حواير) .

الأولى : حارة فوق : وهى وراء باب الريع للداخل على البلدة .

والثانية : حارة أسفل : وهى مسكن الأمراء والأشراف وتقع خلف باب الحزم .

والثالث : حارة السليمانية : وهى على مقربة من باب ابن عباس يراها الداخل من هذا الباب على يمينه .

وأوسع هذه الحارات وأكثرها سكاناً حارة أسفل، ثم حارة فوق ثم السليمانية . وقد تخرب فى أيام الثورة الأخيرة على الترك كثير من بيوت حارة أسفل .

وكانت منازل الطائف قبل الحرب تناهز ألفاً وخمس مئة منزل . وفى أوائل الحرب اشتدت أزمة العيش فيه فبرحه بعض سكانه . ثم كانت الثورة فتهدم جانب عظيم من القصور والأبنية وتداعى جانب غير يسير مازال إلى اليوم، يراه الناظر شاخصاً فى الفضاء، وقد جرد من الأثاث والبلور وتباعد عنه الناس مخافة سقوطه . فلا أصحاب هذه المنازل يعنون بها فيعمروها، ولا هى تسقط فيستفاد من أرضها. وقد أخبرنى رئيس بلدية الطائف أن الدور العامرة الآن المسكونة قد لا تزيد على ألف دار.

وأما سكان بلدة الطائف عدا القرى المحيطة بها والقبائل الضاربة قريباً منها أو بعيداً عنها . فهى الآن لا تقل عن خمسة آلاف، وربما كان عدد الراحلين عنها قبل الثورة يقارب عدد الباقين اليوم .

وقد زرنا قلعتها وهى غير قديمة ، بنيت منذ نيف ومئة عام ، طول المعمور منها نحو خمسين متراً وعرضه نحو ٢٥ متراً . وكانت ذات طبقتين (دورين) فلما نشبت الحرب بين العرب والترك اضطر الأتراك لرفع مدافعهم إلى أعلاها، وأقاموا وراء كل جدار منها جداراً ملاصقاً له يقيهم قنابل مقاتليهم من الجبال المحيطة بالطائف، بحيث تكون الجدران بضخامتها كالحصون . وبعد أن أتموا بناء الجدران وأصعدوا المدافع ، رأوا أن الثقل اشتد على البناء الأسفل وخافوا انهياره ، فعمدوا إلى السقف الأعلى فخربوه تخفيفاً ، وأزالوا نحو مترين من ارتفاع جدران الطبقة الثانية فأصبحت القلعة الآن ذات طبقة واحدة أى الطبقة السفلى . وأما الثانية فبقى نحو نصفها ولا سقف لها ، وفيها رأينا الغرفة التى كانت سجن مدحت باشا زعيم أحرار الترك المشهور وهو مدفون فى الطائف .

وزرنا الثكنة العسكرية أيضاً وهى واسعة جداً طولها نيف وثلاث مئة متر وعرضها نحو ٢٥٠ متراً وليس فيها أبنية مرتفعة اكتفاء بمبانيها السفلية وهى مأوى الجند النظامى الآن .

وعرفنا فى الطائف حاكمه الشريف شرف بن راجح بن فواز بن ناصر وقد علمت من أحد العارفين أن حكومة مكة جعلت لهذه الأسرة الولاية على الطائف بالتوارث منذ زمن غير قريب ، ثقة بها واعتماداً على إخلاصها .

وهنا يجدر بى أن أذكر كلمة عن اسم كانت تعرف به هذه البلدة ثم نسى ، فقد اتفق أهلها اليوم ومن جاورهم من سكان القرى بل كل من عرف الطائف على اختصاص البلد بهذا الإسم . والصواب أن يقال إن الطائف هو أسم عامّ لجميع ما يدخل فى حدوده من قرى ومزارع وأودية . وقد كانت هذه البلدة قرية أنشئت حديثاً بعد سنة ألف للهجرة على أثر خراب قرية السلامة القريبة منها . ثم اتسع بنيانها وكانت تدعى قرية « الهضبة » ولما كبرت تنوسى هذا الإسم وأطلق الناس عليها اسم الطائف كما يطلق اسم الشام على دمشق ، والشام هى سورية كلها .

وقد جريت فى هذا الكتاب على ما هو معروف فى أيامنا حذراً من التشويش فى البحث ، واكتفاء بالغاية التى أرمى إليها من التعريف بهذه البقعة الأثرية القديمة فى تاريخها وشهرتها ، وإنما أوردت هذه الكلمة هنا لاعتقادى أنها فائدة فى تاريخ هذا البلد لاينبغى إغفالها .

وفى هذه المدينة عدة مدارس أهلية صغيرة ، ومدرسة رسمية سميت بالمدرسة الخيرية الهاشمية . وهى ذات أربعة صفوف فيها نحو أربعين تلميذاً ، وبناؤها حسن الموقع ، كان منزلا لأحد الأهلين فاشترته الحكومة التركية سنة ١٣٢٥ هـ وأقامت فيه مدرسة من الدرجة الرشدية (ذات ستة صفوف فى ست سنين) ثم قلبتها إلى ابتدائية ، ثم جعلتها مدرسة إناث حتى كانت الثورة (عام ١٣٣٤ هـ) فجعلتها الحكومة العربية مدرسة تحضيرية للذكور ثم وسعتها سنة ١٣٣٥ هـ فجعلتها ذات أربعة صفوف كما رأيناها ، وفصلت التحضيرية عنها إلى مكان آخر فى البلدة نفسها . وفى التحضيرية الآن نحو ٦٥ تلميذاً . والحكومة تقدم للتلاميذ الكتب والدفاتر والأقلام والحبر مجاناً . وفى المدرسة الخيرية الهاشمية الآن أستاذان[1] ، أحدهما : الشيخ

(١) أصبحت مدارس البنين ومدارس البنات بالطائف فى هذا العهد السعودى الزاهر أكثر من ثلاثمائة مدرسة وذلك بموجب احصاء سنة ٩٥ – ٩٦هـ جاء ذلك ضمن القرار المتخذ من مجلس جامعة الملك عبد العزيز بشأن دراسة امكانية افتتاح بعض الكليات بالطائف فقد الفت اللجنة المشكلة من المجلس مع اللجنة المشكلة من الاهالى والنادى الادبى بالطائف وجرى نقاش مستفيض تحددت فيه طبيعة

. . . .

وحجم الحاجة التى دعت أهالى الطائف إلى التقدم برغبة فتح موسسات عليا بمدينتهم والتى يمكن تلخيصها فيما يلى : —

أولا : تعتبر مدينة الطائف من المدن الرئيسية للملكة من حيث عدد سكانها ومن حيث سعتها وامتدادها كمدينة فضلا عن حجمها كمنطقة فهى تمتد من المحانى شمال الحويه إلى حدود الباحة جنوبا وإلى رنية شرقا وإلى الشرائع غربا .. وتضم أكثر من ١٢٠٠ قرية يعمل أكثر أهلها بالزراعة .

ثانيا : ومن حيث أعداد طلابها تضم الطائف اعداداً كبيرة من الطلاب والطالبات المسجلين فعلا فى مدارسها المختلفة ... ولعل الجدول التالى يعطى صورة لذلك :

أ — بنين	العدد
المرحلة الا بتدائية	٢٩ ألف طالب
المرحلة المتوسطة	٦ آلاف طالب
المرحلة الثانوية	٣ آلاف طالب

يدرس منهم ٥٤٠ طالبا فى التوجيه العامة ٢٦٦ ادبى ٢٧٧ علمى .

ب — بنات	العدد
المرحلة الابتدائية	٢١٣٣٦ ألف طالبة
المرحلة المتوسطة	٣٠١٣ طالبة
المرحلة الثانوية	٨١٥ طالب
معاهد المعلمات	٣٢٥ طالبة

تدرس منهن على مستوى التوجيهى ١٩٠ طالبة وعلى مسوى توجيهى المعاهد ١٠٣ طالبة .

ج — إلى جانب ذلك هناك مدرسوا المرحلة الابتدائية ممن يحملون الشهادة الثانوية أو ما فى مستواها وعددهم : —

١٢٥١	من المدرسين
١٩٣	من الاداريين

وعلى ضوء هذا الواقع فقد توصلت لجنة الجامعة مع لجنة الاهالى إلى التوصيات التالية :

(١) يوصى بالعمل على تأسيس فرع لكلية التربية فى الطائف تقوم فى أسرع وقت وتترك لكلية التربية بمكة دراسة وتحديد التخصصات التى يمكن البدء بها وطريقة ادارتها وتتبعها . على أنه يمكن بدء الكلية حالا فى مبنى معهد المعلمين القائم على طريق الحوية . الذى زارته اللجنة .

(٢) وفيما يتعلق بكلية الزراعة ، يوصى بافتتاح كلية للزراعة فى أقرب فرصة . . ويمكن ان تبدأ عملها ببرنامج متوسط لتخريج مهارات زراعية تتجه وتزاول العمل مباشرة فى الميادين الزراعية المختلفة . . مع العمل على إكمال برامج الكلية فى الوقت المناسب حسب الحاجة .

عبد الله قاضي من فضلاء الطائف ونابهيه ، يتولى تعليم التفسير والحديث والنحو والبلاغة والتاريخ والأدب العربي والتوحيد والإنشاء فى الصف الرابع ، وثانيهما الشيخ صبحى الحلبى يعلم الهندسة والجغرافية والحساب وقسم المعاملات من الفقه والقراءة العربية .

والشيخ صبحى يعد اليوم من أدباء الطائف ، اطلعت على مجموعة شعره ، فكان مما قرأته فيها قوله فى مطلع قصيدة :

هَذِى الدِّيَارُ فَقِفْ بِهَا يَا حَادِى وَاعْطِفْ لِحَالَىْ فُرْقَتِى وَبِعَادِى

ومنها :

حَرَّمْتُ نَوْمِى بعْدَ بُعْدِكُمُ فَمَا وَاللهِ زَارَ العَيْنَ طِيبُ رُقَادٍ

لِى أَنَّةٌ مُذْغِبْتَمُ عَنْ نَاظِرِى مَصْحُوبَةٌ بِعَوِيلِىَ المُتَمَادِى

وقوله من قصيدة :

رعَى اللهُ قَومًا بَلْدَةُ (الْحِبْرِ) دَارُهُمْ لَهمْ فى رُبى علْيَائِهَا المسْكَنُ الغَالِى

(٣) وعن كلية الطب . . يوصى بمباشرة العمل على تأسيسها حالا . . وذلك لتوافر أهم الامكانات اللازمة لقيامها ، من مستشفيات تخصصيه او عامه من حيث وجود الطقس وصحة البيئة ووجود مدرسة للتمريض . . . الخ .

وادراكا من اللجنة لحاجة الطائف الفعلية إلى مثل هذه الكليات يهمها أن توصى هنا على ضرورة البدء فى تأسيس تلك الكليات المشار اليها على أن يبدأ بكلية التربية متضمنة أقسام الشريعة الاسلامية واللغة العربية كفروع للاقسام الموجودة بكلية الشريعة بمكة إلى جانب قسم التربية وقسم اللغة الانجليزية وقسم الفيزياء كمرحلة أولى . . . وعلى أن تفتح لكل من البنين والبنات والله ولى التوفيق .

هذا وقد تم هذا الاجتماع وهذا القرار بالنادى الادبى بالطائف فشكرا له على مجهوداته القيمة ومتابعته الطيبة . وهذا عدا المدارس الخاصة بتحفيظ القرآن الكريم بالطائف وعددها (١٦ ستة عشر مدرسة) يدرس بها حوالى ٩٠٠ تسعمائة طالب ويدرس بهذه المدارس ٢٣ ثلاثة وعشرون مدرسا ، وبلغ مجموع ما قدمته الجماعة بمكة المكرمة لجامعة تحفيظ القرآن الكريم بالطائف عام ١٣٩٧هـ مبلغ ٨٥٧٥٠ خمسة وثمانين ألف وتسعمائة وخمسين ريالا كما جاء فى ملحق جريدة الندوة الجمعة ١٠ شوال سنة ١٣٩٧ وهذا غير مدرسة الاحداث الاجتماعية (الايتام) التى تأسست منذ سنة ١٣٨٢ هـ فنحمد الله على دوام نعمه ونسأله جل وعلا أن يوفقنا للقيام بحق شكرها ويوفق ولاة أمورنا إلى كل خير ورشد أمين .

وزرت دائرة البرق والبريد والتليفون فى الطائف، فرأيت فى صدرها الأعلى هذا البيت (لكعب بن سعد من قصيدة) :

وَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلرجالِ سَرِيرَتِى ! وَلاَ أَنَا عَنْ أَسْرارِهِمْ بِسَؤولِ!

فأعجبنى حسن اختيار هذا البيت لذلك المكان ، ولاح لى أن فى الدائرة أديباً ثم عرفت مديرها الشيخ عثمان بن عبد الرحيم قاضى فإذا هو ذلك الأديب ، ولم ألبث أن قرأت له قصيدة يرحب فيها بالأمير زيد عند عودته من إيطاليا إلى مكة المكرمة .

وممن عرفت فى الطائف قاضيه الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن على كمال وهو أفقه من فى هذه المدينة وأعلمهم بالأدب وفنونه . رغبت إليه أن يطلعنى على شيء من شعره فتلا لى بضع قصائد ، منها قصيدة نظمها وهو مع جلالة الملك فى رحلته إلى اليمن ، وقصيدة قالها فى فتح المدينة المنورة . نشر الأولى فى كتاب الرحلة اليمانية ، والثانية فى جريدة القبلة . ومن شعره قوله من قصيدة :

تَرفَّقْ أَيُّهَا الْحَادِى وَعُجْ بِى نَحْوَهُمْ عُجْ بِى
كِرَامٌ قَدْ عَهِدْنَاهُمْ بِذاكَ السَّفْحِ وَالشِّعْبِ
أَرِيجُ المِسْكِ رِيَّاهُمْ وَرِيحُ المَنْدِلِ الرَّطْبِ
إِذَا وَافَيْتَ أَفْيَاءً بِذَاكَ المَنْزِلِ الرَّحْبِ
وَأَوْرَدْتَ المطَايَا القُودَ مِنْ سلْسالِهَا العَذْبِ
فَبَلِّغْهُمْ سَلَامًا مِنْ مُحِبٍّ هَائِمٍ صَبِّ
وَإِنْ حَيَّوْكَ بِاللُّطْفِ وبِالتِّسْآلِ وَالرَّحْبِ
فَقُلْ عَهْدِى بِهِ مُضْنى سَمِيرُ الأَنْجُمِ الشُّهْبِ

وأطلعنى على مجموعة أدب مخطوطة عنده قرأت فيها الأبيات الآتية لمحمود سامي باشا البارودي المصرى :

الشِّعْرُ زيْنُ المرْءِ مالَمْ يَكُنْ وَسِيلَةً لِلْمَدْحِ والذَّامِ
يا طَالَمَا عزَّ بِهِ معْشَرٌ وَرُبَّمَا أَزْرَى بِأَقْوامِ
فَاجْعَلْهُ مَا أَنْشَدْتَ فى حِكْمَةٍ أَوْ عِظَةٍ أَوْ حَسبٍ نَامِ
وَأَهْتِفْ به مِنْ قَبْلِ تَسْرِيحِهِ فَالسَّهْمُ منْسُوبٌ إِلَى الرَّامِى! (١)

الطرق إلى مكة :

بين الطائف ومكة عدة طرق ، لايسلك منها اليوم غير طريق واحدة وهى التى أجتزناها فى رحلتنا . وقد تسلك طريق ثانية يسمونها اليمانية أو طريق السيل ، وجميع الطرق القديمة مازالت معروفة إلى اليوم ، ويمكن سلوكها ، إلا أن أكثر الناس هجروها ماعدا هذين . وقد رأيت فى عقود للطائف إسهاباً فى الكلام على المسالك بين المدينتين يفيد المطالع والباحث ، أختصره فيما يلى :

١ — كرا (وهو طريقنا) : قال فيه : هو جبل فى غاية الكبر والصعوبة ، صعوداً وهبوطاً ، وإن كان الثانى أخف .

٢ — يعرج : وهو طريق جبلى أسهل من كرا وأقرب ما بعده من المسالك الآتى ذكرها . على أن فيه حرجة ، بعد هبوط ، عسرة ، يتعب فيها الراكب والماشى .

٣ — الثنية : طريق جبلى فيه عقبات أكثرها سهل بالنسبة لغيره ، ولذلك يؤثره أكثر أهل الحجاز على غيره لما تجده جمالهم فيه من الراحة .

٤ — غرزة :

٥ — خروب : وهما دون الثنية .

---

(١) وعلى ذكر الأدباء فقد ازداد عددهم وظهرت ملامح شخصيتهم وجلهم من الشباب ، ومما يذكر لصاحب السمو الملكى الأمير فيصل بن فهدبن عبد العزيز آل سعود أن أوجد فى كل مدينة ناديا أدبيا وناديا رياضيا ، اغدق عليهما المساعدات وحظيت بتوجيهه وارشاده

٦ ــ عفار : قلّ من يسلكه ، يأتى على الوهط ثم ينزل على رأس وادى نعمان .

٧ ــ اليمانية : أسهل الطرق ، على ما فيه من هبوط وصعود متكرر فى جبل يقال له المنحوت ، وتسلك هذه الطريق لأغلب الناس فى ثلاث مراحل كبيرة : مرحلة من مكة إلى الزيمة ، ومرحلة منها إلى السيل ، ومرحلة منه إلى الطائف ، وكثيرون يجتازونها فى مرحلتين .

وهذا الطريق قد يعرف اليوم باسم « طريق السيل » كما قدمت[1] .

---

(١) قد ذكر حضرة الوالد : فى مجلة العرب السنة الثامنة ص ٨٦٧/٨٧٧ والسنة التاسعة ص ٣٧–٤٥ لسنة ١٣٩٤هـ » طرق الطائف إلى مكة » وهى : ١ ــ نخلة اليمانية ــ ٢ ــ غرزه ــ ٣ ــ الثنيه ــ ٤ ــ خروب ــ ٥ ــ صر ــ ٦ ــ يعرج ــ ٧ كرا ــ ٨ ــ علق ــ ٩ ــ عفار ــ ١٠ ــ حدب كلوة ــ ١١ ــ المخطره ــ ١٢ ــ ظبيات ١٣ ــ عقبة سلامة . وتكلم عن كل طريق بوصف دقيق وإيضاح شامل ، فراجعه هناك .

عكاظ

وعلى ذكر طريق السيل أو اليمانية ، لا أرى أن تفوتنى الإشارة إلى أشهر سوق من أسواق العرب أعنى سوق عكاظ لوقوعها فى تلك الطريق .

على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف فى طريق السيل ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر فى باحة واسعة الجوانب يسمونها « القانس » – بالكاف المعقودة – وهى موضع سوق عكاظ الذى لا تكاد تقرأ كتاباً من كتب الأدب أو التاريخ العربى إلا وجدت له ذكراً فيه .

وهذه الباحة التى يسمونها « القانس » هى مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة ، وهى مرتفعة تشرف على جبال اليمن ، وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة . كل ذلك يدلك على ما دعا العرب فى الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الأكبر ومعرضهم الأشهر ، ولم أجد فيما بين يدى من مصنفات التاريخ تعليلا لاتفاق القبائل على الاجتماع فى هذا المكان غير ما عرفته الآن .

والواقف فى القانس (أو عكاظ) يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة[١] والآخر البهيتة[٢] ، وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادى الموصل إلى الطريق التى يمر بها سالكو درب السيل (اليمانية)

أما ماجاء فى كتب التاريخ عن عكاظ ، فلعل أفضله قول صاحب معجم البلدان ما خلاصته : عكاظ اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية تجتمع فيه القبائل كل سنة يتفاخرون ، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ،

---

(١) بكسر ففتح .
(٢) بصيغة التصغير .

ثم يتفرقون . وقال الأصمعى : عكاظ ، نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال (؟) كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيداء ، وبه كانت أيام الفجار ، وكان هناك صخور يحجون إليها ، ويطوفون بها . وقال ياقوت : أشهر أسواق العرب عكاظ وذو المجاز ومجنة . وقال الواقدى : عكاظ بين نخلة والطائف ، وذو المجاز خلف عرفة ومجنة بمر الظهران ، وأعظمها عكاظ ، كانت العرب تقيم فيه شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم عشرين يوماً من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج . اهـ .

وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون إن عكاظا كان فى مكان يعرف اليوم باسم « القهاوى » فى وادى لية من الطائف . غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفاً من أنه هو « القانس » نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار(١) .

---

(١) توالت جهود الباحثين فى الخمسينات والستينات من هذا القرن بحثا وتمحيصاً عن موقع عكاظ ، وحامل لواء هذا البحث وأول من نشر عنه فى (جريدة أم القرى) قبلى أربعين عاما تقريبا هو الأستاذ حمد الجاسر : وتوالت بعده أبحاث الباحثين على سيرة مستفيدين بما نشر وحقق . كما نشر بحثه فى (مجلة المجمع العلمى العربى) بدمشق فى رمضان ١٣٧٠ ، كما نشر أيضاً فى ورسالة خاصة مضافاً إلى بحث للدكتور عبد الوهاب عزام - رحمه الله - ومعه مقال للشيخ محمد البليهد رحمه الله . وقد أصبح موقع عكاظ بعد أن عبد الطريق الممتد من الطائف إلى نجد أصبح واضحاً تنطبق عليه جميع الأوصاف المذكورة فى كتب المتقدمين انطباقا تاماً على الأرض الواسعة الواقعة (شرق شمال الطائف) خارج سلسلة الجبال المطيفة به : وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة ٣٥ (كيلو متر) تقريبا : ويحدها غرباً جبال بلاد عدوان (العقرب - شرب العبيلاء) وجنوباً أبرق العبيلاء ، وضلع الخلص ، وشرقاً : صحراء ركبة ، وشمالا : طرف ركبة والجبال الواقعة شرق وادى قران . وتشمل هذه الأرض وادى الاخيضر (وهو المعروف فى العهد القديم باسم وادى عكاظ) ووادى شرب حينما يفيضان فى الصحراء ، ويخرجان من الجبال ، وما بينهما من الأرض ، وما اتصل بها من طرف ركبة .

خلاصة موجزة

« البعثة الزراعية ، زراعة الطائف ، مياهه ، معادنه ، الاستفادة منه »

استقدم الملك حسين فى خريف عام ١٣٣٨ هـ – ١٩١٩ م بعثة من المشتغلين بعلم الزراعة واستخراج المعادن من سورية ، فطافوا بعض بقاع الحجاز . ولا سيما الطائف ، ورفعوا إليه فى ١٥ ربيع الأول ١٣٣٨ بياناً بما رأوه ، هذه خلاصته :

وادى منى[1] – يمتد إلى منى واد عرضه ١٠٠ متر تتخللها أراض زراعية مساحتها ٥ – ٧ دونمات ، أكثرها على سفوح الجبال من الجهتين الشمالية والجنوبية تسقى بماء الآبار .

عين زبيدة – على بعد كيلو متر واحد من منى نحو الجنوب الشرقى تبدو عين زبيدة . ماء هذه العين وسرعة جريانها ٦٣ ليترة فى الثانية ، وقوتها فى الساعة ٢٢٦٨٠٠ ليتر أى ٢٢٦ متراً مكعباً وكسر ، وفى أربع وعشرين ساعة ٥٤٤٣٢٠٠ ليتر أى ٥٤٤٣ متراً مكعباً وكسر .

عرفة – أراضى عرفة واسعة وفيها عدة أحواض كبيرة منها ما درست آثاره بمرور الأيام ، والباقى منها قرب جبل عرفات المرتفع عن سطح البحر ٧٥٠ قدماً ، وهو محاط بشكل نصف دائرة بمجرى عين زبيدة .

الكرّ – آخر نقطة من منطقة تهامة ، ترتفع عن سطح البحر ٢٥٨٠ قدماً ، يكثر فيها من النباتات الشجرية السلم والحرمل والضرم . ومنطقة تهامة تكاد تكون على نسق واحد فى تكوّن أرضها وأقليمها وتربتها الزراعية ويظهر أن ما بين مكة وسفح كرا مؤلف من جبال بركانية مختلفة الارتفاع تتخللها مجارى السيول وأكثبة رملية .

---

(١) فى طريقهم من مكة .

منطقة الطائف ــ تختلف عن تهامة ببرودتها التى ساعدت على نمو أشجار فيها لاتنبت فى غير المناطق المعتدلة كالقريس والعرعر والتين البرى والزيتون البرى والجميز وغير ذلك «من أشجار الفصيلة الوردية والحشائش من الفصيلة المركبةوالشفوية والباذنجانية ، والجوز والخرنوب وشجر الكينا (كاليبتوس) وحلاب البوم (إيفوربيا) وهو من الحشائش .

تكونها الأرضى ــ تعد هذه المنطقة من الأراضى البركانية ، تحتوى على صخور اندفاعية صلبة ، ويتخلل سلاسل جبالها مجارى سيول عديدة ، وأوديتها خصبة .

تربتها الزراعية ــ تربتها على الإجمال رملية طينية ويزيد الرمل على الطين فى أكثرها . وهى تحتوى على مقدار وافر من الكلس .

زراعتها المحلية ــ انحصرت الزراعة المحلية بزراعة الحبوب وأخصها الحنطة والشعير والدخن ، وبزراعة الأثمار وأخصها الرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى والعنب والليمون والخوخ وقليل من العناب ، وتكثر فيها الخضر وأخصها الملفوف والكرنب والسبانخ والبندورة والباذنجان والملوخية والكوسى والبامية والفاصولية والبصل والثوم والشمام (الخربز) والبطيخ الأحمر (الحبحب) والفول والفجل والفليفلة . وفى المراعى يزرعون البرسوم دون سواه .

مواسم زراعتها ــ تجود منطقة الطائف بثلاثة مواسم : (١)المزروعات الربيعية أى التى يزرعونها فى أوائل الشتاء ويحصدونها فى أواخر موسم الربيع (٢) المزروعات الشتوية أى التى يزرعونها فى أواسط الصيف ويحصدونها فى أوائل الشتاء(٣) المزروعات المتوسطة ما بين الأولى والثانية .

طريقة زرعهم ــ طريقة الزرع عندهم أن يحرث المزارع أرضه ثلاثة أوجه ثم يبذر بذاره ولا يصفيه . ويرغب أكثرهم بزرع الحبوب الضعيفة الصغيرة زاعمين أنها تبذر أرضاً أوسع مجالا مع أن فى أكثر هذه الحبوب بذوراً عديدة من النباتات المضرة كالشوفان البرى ، وجل الحبوب الصغيرة

مصاب بالأمراض الطفلية أخصها مرض الصداء المعروف بالسقم . وأما المحاريث فإنها لاتزال على شكلها القديم . وأما زراعة الخضر فهى عندهم أرقى الزراعات فهم يستعملون السماد من أجلها ويزرعونها على طريقة صالحة نوعاً ما ويتناولون أثماناً حسنة من تجارتها .

الحيوانات الأهلية — يعنى أهل هذه المنطقة بالإبل والبقر والخيل والبغال والغنم والماعز ويستخدمون فى الزراعة البقر وأحياناً الجمال ولايستعملون البغال والخيل فى الأشغال الزراعية إلا نادراً .

مياه المثناة — [1] تبلغ المثناة ٤٤ ليترة فى الثانية ، وفى الساعة ١٥٨٤٠٠ ليترة ، وفى الأربع والعشرين ساعة ٣٨٠١٦٠٠ ليترة . وهى تسقى قسماً كبيراً من وادى المثناة ثم تدخل الطائف .

ما يمكن زرعه — يمكن فى منطقة الطائف زرع أكثر الأشياء النافعة كاللوز والشوندر والبطاطا والدخان (التبغ) والقنب والسمسم وأكثر البقول . وأفضل طريقة لإنجاح زراعة المنطقة هى طريقة الزراعة اليابسة .

وادى الجفيجف — هو على الشمال الشرقى من الطائف ، تترشح المياه فيه من كل جانب وتجرى على سطحه متجهة نحو الشمال .

الأرز — يمكن تخصيص بقعة فى وادى جفيجف لزرع الأزر ، لأنه يحب التربة المالحة وهذه الخاصة من خواص وادى الجفيجف الذى ينمو فيه الأرز نمواً حسناً ، وإن كان من طبيعته إفساد الهواء المحلى لكثرة المياه التى تكون دائمة فوق الزرع ، ولكن ما سيغرس من الأشجار حوله يصحح ما يفسده .

القطن — ويمكن أيضاً إدخال زراعة القطن والبرسيم والفصة فى الأراضى التى تزرع أرزاً ، وذلك لأن القطن من النباتات التى تنبت فى الأراضى ذات السباخ ومن النباتات التى تحتاج إلى المياه فى أدوار حياتها .

---

(١) المثناة واد فى الطائف يأتى الكلام عليه . فى ١٤١ وانظر مجلة العرب السنة التاسعة ص٥٢١ — ٥٣١ فى الكلام على المثناة : عيونها — اسماء بساتينها — أشهر أقول الشعراء فيها

الورد – حياة الورد فى الهدة وما ماثل تربتها ، تشبه حياته فى بلاد اسبارطه وبوردو المخصصتين لزراعة الورد والاستفادة من عطره ، لأن التربة والهواء هنا لايختلفان عن ذينك الإقليمين .

معادن الطائف – الأراضى التى فى منطقة الطائف (ويلحق بها ما بين الطائف وجدة) هى من أقدم طبقات الأراضى الجيولوجية . جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة . وهى لاتمتص المياه ولذلك يقل وجود الماء فى الجبال إذ تتسرب عنها وترسب فى الأودية . وهذه الصخور مركبة من « غنايس » وهو رمادى اللون فيه ذرات سوداء ويتركب من « ميفا » و« كوارنس » و « قلد سبارت » ثم تليه طبقة صخور « الغرانيت » وهو على الغالب أحمر اللون فيه بعض حبيبات رمادية لماعة وتركيبه كتركيب « الغنايس » وتليه طبقة صخور « البازالت » وهو صخر بركانى كحلى أو أسود اللون مثقب كالإسفنج . وقد تتغير هيأة الصخور فى منطقة الطائف ويكثر فيها صخر « الميكاشيست » وهو صخر أسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض ، و « الكوارس » وهو صخر أبيض لماع وقد يوجد بصفة متبلورة ويتركب منه « السيليس الصلفى » . ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من « كلسيت » اجتمعت فى الأودية ومجارى السيول . وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التى هى من تفتت الصخور الممتدة فوق الأرض .

تحليل المعادن – ومن خصائص هذه الطبقات القديمة أنها تحتوى على معادن من الجنس الجيد ومن جملتها معدنان أحدهما رمل مركب من حديد « مؤكسد » ممزوج به قليل من النحاس ويبلغ مقدار الحديد نحو ٦٠ فى المئة ولا بد من تحسن المعدن فى العمق ، والثانى حديد « مؤكسد » أيضاً إنما هو صاف من الجنس الجيد يصلح للاستخراج ويحتوى على نحو ٧٠ فى المئة حديداً صرفاً . وفى منطقة الطائف وخصوصاً مابين عين الأخيضرة والطائف مقادير وافرة من المرمر الأحمر الجميل الذى من فوائده أنه يتخذ أعمدة اللأبنيه الجميلة وتوضع منه أشكال عديدة للزخرفة .

وعلى بعد أربع ساعات من الطائف محلة تدعى « المعدن » فيها جبل مرتفع ٥٤٠ قدماً به حفريات قديمة تنبيء باستخراج معدن منه . وفيه آثار معدنية تحتوى على شيء من الحديد وقليل من النحاس ، وإذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود أشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح . ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قديماً آثار بيوت مبنية فى قمة الجبل وبوادق من حجر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم ويستخرج منها الحديد . وإذا أريدت متابعة استخراجه الآن لم يكف له الحفر على وجه الأرض ، بل ينبغى حفر آبار تتفرع منها سراديب تحت الأرض . وفى جبل « الوهط » جنس صخر يدعى « ميضا » أبيض اللون تتجزأ منه صحف رقيقة كالورق ، شفافة كالزجاج . وهو غير قابل للذوبان فى النار مهما بلغت حرارتها ،ومن فوائده أنه يستعمل للآلات الكهربائية وللمواقد الحديدية المتخذة للدفء ،وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافى الصالح لاستخراج الكلس النظيف الصافى اللون . انتهى .

ما حول الطائف

« قراه وجباله وأوديته وآباره وبساتينه وحصونه وعيونه »

(مرتبه على الحروف)

لا بدلى قبل الشروع فى الكلام على ما حول بلدة الطائف من الإشارة إلى أربعة أمور :

الأول : أن أهل هذه البقاع يطلقون اسم القرية على كل موضع منفرد ، فيه بيوت قلت أوكثرت ، من الإثنين أو الثلاثة إلى الخمسين أو ما فوقها — وقد وافقتهم فى الاصطلاح على طريقتهم هذه — كما أنهم يطلقون لفظ البلاد على كل موضع فيه مزارع وليس فيه بيوت ، يقولون : كنا فى بلاد فلان أى فى مزارعه — خالفتهم فى هذا ووضعت المزارع بدل البلاد .

الثانى : أن جبال الطائف كثيرة جداً ، قيدت فى رحلتى منها ماله تعلق بقرية أو ارتباط ببحث ، أو ذكر فى شعر ، أو بيان فى تاريخ ، أو فيه أثر يذكر ، وأهملت مالا فائدة للقارىء من الإشارة إليه .

الثالث : فى تواريخ المتأخرين ذكر لكثير من القرى والعيون والآبار والمواضع التى لم أوفق لمعرفتها فى أيامى القليلة بالطائف ، فرأيت إتماماً للفائدة أن أذكر ما نقل لى أنه لم يزل موجوداً ، وأعرضت عن ذكر أكثر ما لم أره مما لم ينقل لى خبر بقائه إلى الآن مرجحاً اندراسه أو تغير اسمه .

الرابع : من أودية الطائف الكبيرة الكثيرة القرى والمزارع « وادى لية »[1] لم يتفق لى طوافه فاعتمدت فى ما ذكرته على أخبار الموثوق بهم وما اطلعت عليه من كتب التاريخ الحديثة وبعض الكتب القديمة . وإليك جملة ما تحصل عندى :

---

(١) انظر صفحة ١٤٠ — ١٤١ من هذا الكتاب

الآبار – قرية ، قال العجيمى : هى خلف قرية السلامة من الجهة الشمالية ، وسميت بذلك لكثرة ما حفر من الآبار بها فى زمن القائدة درة جارية الشريف حسن بن أبى نمى . وهذه القرية غير معروفة الآن بهذا الإسم بل يسمونها « قروة » وسيأتى ذكر هذه .

ابن منديل – هضبة كبيرة على جنوب الطائف وراء قلعة ثكنته لاتبعد عنها كثيراً ، وربما قالوا « جبل ابن منديل » .

أبو نقطة – جبل فى وادى لقيم بينه وبين جبل السويقة درب يقال له شعاب الماء .

أبو زبيدة – أو جبل أبى زبيدة . فى طريق الذاهب من الطائف إلى وج يقابل الأصيحرين .

الأصيحران – أو جبل الأصيحرين : مقابل لشرقى قبة ابن عباس وهو المعروف الآن باسم البازمين .

الأصيفر – قرية كبيرة فيها بساتين ودور قليلة فى وادى جفن – ذكرها الفاكهى – وهى لاتزال موجودة .

أم الأدم – هضبة ماثلة أمام « أم السكارى » إلى جهة الغرب منها . وهى فى غرب الطائف .

أم البكار – مزارع (بلاد) لقبيلة العصمه ، فيها بئر . تغل حبوباً ولا فاكهة فيها وهى بين الخادمية والخضراء .

أم الحمض – قرية وراء حدود لقيم فى اصطلاحهم ، تلى قرية الصفاة ، فيها مزارع حبوب وثلاث آبار ويكثر بها شجر الطرفاء (يسمونه الإثل والعرين)

أم خبز – مزارع بعد شبرة فيها بساتين قليلة .

أم السكارى – هضبة كالجبل على الجانب الغربى من المثناة تبعد عن الطائف مسيرة نصف ساعة أو أقل وقد سبق ذكرها فى الكلام على الآثار.

أم الشيع – هضاب متصله فى شمال الطائف كانت عليها وقائع بين العرب والترك فى زمن النهضة .

أم صدعين – قرية فى لقيم قبل المريسية بيسير تكاد تلاصقها ، فيها بضعة بيوت ومزرعتان وبئران .

أم الفضلين – مزارع ذات نخيل وفيها بستان وبئر ماء . فى وادى لقيم تبعد عن الطائف مسيرة ساعة وهى للشريف شرف .

أم المعين – هضبة تلى أم الأدم وكلاهما خلف قرية « قروة » من الجنوب .

أم هيثم – مزارع فى وادى لقيم ، بعد قرية الغنامين وقبل مزارع الوسطى . وهى من أراضى عشيرة البخاتين .

البازمان – جبل ، وأكثر ما يقال جبل البازمين . وهو المعروف قديماً باسم الأصيحرين وقد تقدم ذكره فيه .

بحرة الرغا – موضع فى لية . قالوا : هو من ديار بنى نصر . ولعله المحل المعروف الآن باسم البحرة فى وادى لية . قال الحضراوى : وببحرة الرغاء من لية مسجد يقال أنه موضع صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم مازال أثره شاخصاً .

قرية البخاتين – البخاتين قبيلة ، وقريتهم كبيرة ، تعرف بهم ، تبلغ بيوتها العشرين وفيها بستان عنب وبستان رمان وأراض تزرع حبوباً وثلاث آبار ، وهى من لقيم بعد مزارع البسيلية وقبل الغنامين .

برد – جبل فى بلاد قريش يبعد عن الطائف ستة فراسخ يقال أن جميع عيون المياه التى فى الطائف منشؤها منه . كذا رأيت فى تعليق لأحد المعاصرين على كتاب العجيمى . ولم أر هذا الجبل .

البسيلية – مزارع حبوب (وهم يجمعونها حبان) فيها بئران ، أحداهما للإشراف من ذوى زيد ، والثانية لأفراد من قبيلة العصمه وهى فى وادى لقيم بعد الخضراء وقبل قرية البخاتين .

الجال — قريه ناضرة على بعد نصف ساعة من الطائف إلى الشرق فيها بركة ماء كبيرة على مرتفع جميل ، يمر بها جدول صغير يسقى أرضها ، يأتيها من قرية حوايا المجاورة لجبل شهار . ويقابل الجال إلى شمالها قريتا قملة والقطبية . وخلف الجال إلى الجنوب جبل وراءه وادى النمل . وفى الجال بساتين وبضعة بيوت . وفيها فواكه كثيرة .

جبرة — مزارع فى وادى الجفيجف ، شرق الطائف ، فيها بئر يخرج ماؤها من عمق مترين ونصف . وفيها بساتين .

جديدة — بئر لأفراد من قبيلة طويرق ، يقال لهم التراكية ، وهى البئر الثانية فى قرية أم صدعين .

الجزع — قرية صغيرة فى وادى لية — ذكرها الفاكهى —

الجفيجف — واد فى شرق الطائف على مسيرة أقل من نصف ساعة . بعد قرية الربان وقملة ، فيه آبار ، وعين ماء تسمى الحرار ، وفيه مزارع جبرة . وهو مستطيل بين جبلين يتقاربان ويتباعدان ، كثير الرى رطب الأرض ، وقد يسمون أقصاه وادى الحرار باسم عين الماء التى هى فيه .

جلذان — قال ياقوت : « موضع قرب الطائف بين لية وبسل يسكنه بنو نصر ابن معاوية » : لم أسمع به .

الحزمان — قرية فيها بساتين وآبار ، فى وادى لقيم قبل المليساء وبعد أم خبز :

الحسيرج — واد صغير ، بين قرية الحماضية ولقيم ، وهو على سفح جبل شرق الطائف :

الحصنان — أو قرية الحصنين ، من قرى وادى لية ، ذكرها الفاكهى.

الحماضية — مزارع للشريف شرف بعد المليساء تبعد عن الطائف شرقاً أقل من ساعة ، فيها دار وبئر وقد وضع للبئر محرك بخارى لإخراج الماء بواسطته ، تم وضعه ونحن فى الطائف . وبجوار الحماضية إلى يمين الذاهب من الطائف قرية الحمدة :

الحمدة — [1] قرية قبل لقيم ، هى المليساء ، وقد تسمى الحمدة باسم القبيلة الساكنة فيها (انظر المليساء) .

حوايا — قرية غرب الطائف غير بعيدة عنه كثيراً ، فيها بيوت وبستان كبير وأربع آبار ، وكان بها أيام الفاكهى سبع آبار .

بئر حوايا — إحدى آبار قرية حوايا ، جنوبى البستان ، ماؤها عذب ، أخف ماء بالطائف .

الخادميه — مزارع فى وادى لقيم قبل أم البكار فيها بستان عنب ورمان وتين وأراض تزرع حبوباً .

الخبزة — قرية فى المثناة غربى الطائف إلى الجنوب فيها بضعة بيوت وبستان وبها مسجد عداس السابق ذكره . وهى قديمة ضبطها القاموس بأنها كعنبه [2] .

عين الخبزة — قيل لنا أن هذه العين تسقى المثناة كلها ، وهى جارية فى قناة متسربة مما يجتمع من رشح الجبال المجاورة للمثناة غرباً وجنوباً .

الحرار — أشرنا إليه فى الجفيجف ، وهو واد بعده ، يفصل بينهما جبل فى أقصى الجفيجف يعطف فيه السالك إلى يساره . وهو واد خصيب كثير العيون والينابيع ، أرضه ملأى بالماء الراكد من سيول جباله ، حفرنا بأيدينا نحو شبر واحد فى عدة مواضع منه فكنا لا نلبث أن نرى الماء يكاد يملأ الحفرة ، كثير المستنقعات يجتمع من ينابيعه جدول صغير من الماء يتسرب بين الصخور فيسمع له خرير ولذلك سمى الحرار . وهذا الوادى يمتد إلى العرج . والحرار يبعد عن الطائف مسيرة ساعة . وقد أكد لنا أحد العارفين أن ماءه لاينقطع طول السنة وأنه فى الشتاء إذا جادهم الغيث يجرى كالنهر الكبير وقد يملأ ما بين جبليه المتقاربين .

الحضارى — مزارع فى أوائل وادى لقيم ، للشريف هاشم بن عون قبل قرية العبابيد .

---

(١) يلفظونها بسكون الحاء وفتح الميم والدال .

(٢) الخبزة ضبطها صاحب القاموس أنها على وزن عنبه ويحتمل وجود خطأ فى نسخ القاموس إذ المشهور نطقها بثلاثة فتحات قال سيدى الوالد : لعل صاحب القاموس كتبها على وزن عتبه وحرفها النساخ إلى عنبه ويؤيده ذلك نطق جميع السكان لها بثلاث فتحات متوالية الخبزة على وزن عتبة .

الخضرا — بالقصر تمييزاً لها عن الخضراء الآتى ذكرها . وهى مزارع للشريف على بن زيد بن فواز . فيها بئر عليها محرك (مصعد للماء) بقوة خمسة حصن . وهى فى وادى لقيم على مقربة من قرية المريسية وقد يلحقونها بالمريسية .

الخضراء — قرية فيها ستة بيوت ومزارع كثيرة تسقى من ثلاث آبار فيها ، وهى للشريف على باشا ابن عبد الله باشا .

الخضيرة — بئر فى قرية الفقهاء .

الخليطى — قرية بالقرب من الشداين فى أوائل وادى لقيم عندها مزارع أم الفضلين .

الدار البيضاء — قرية فى وادى القرن ، ذكرها الفاكهى ، وقيل لى أنها ما زالت موجودة ، ولم أرها .

دحلة — مزارع محاذية للنصيلة فى وادى الجفيجف تكاد تكون يباباً .

رحاب — قرية على مسيرة أربع ساعات من الطائف إلى الجنوب ، عامرة ، فيها بيوت ومزارع يملكها الشريفان هاشم بن عون وناصر بن هزاع من ذوى ناصر .

الردف — جبل — وقد يسمونه الرادف — يبعد ساعة عن الطائف إلى الغرب الجنوبى وقد تكلمنا عنه فى بحث الآثار .

رغاف — جبل وراء أم الحمض وبعد لقيم يبعد عن الطائف مسيرة ساعتين إلى الشرق ، كأنه الحد الطبيعى لوادى لقيم ولكنهم لايعدونه ولا يعدون أم الحمض من لقيم . وما أدرى لهذا سبباً .

رغيف — بصيغة التصغير : جبل صغير كالهضبة ، ملاصق لرغاف .

أم رغيف — على صيغة التصغير : مزارع حبوب على سطح جبل رغيف وفيها بستان جيد العنب والرمان والخضر ، ولها ثلاث آبار وأرضها تزرع حبوباً . وبعضهم يلحق أم رغيف بأم الحمض .

الريان ــ قرية خضراء كأنها الحديقة الغناء ، بعد شبرة إلى شرق الطائف فى طريقنا إلى وادى الجفيجف منحرفة إلى اليمن كثيرة الأشجار ، فيها رمان وعنب وفواكه متعددة الأنواع ، كان فيها أربعة بيوت فخرب ثلاثة وبقى واحد عامراً . وذكرها الفاكهى فقال أنها قرية قملة نفسها ، تدعى بالإسمين . والصحيح أنهما قريتان متجاورتان .

ربع التمار ــ هضبة صغيرة بين المليساء (الحمدة) ووادى الحسيرج ، على مقربة من الحماضية .

الزبيرية ــ بئر ينسبونها إلى الزبير بن العوام فى قرية العقيق .

الزوران ــ قرية صغيرة فى لية ، سماها الفاكهى « الوزير » مازالت عامرة .

السايب ــ من قرى لية . قال الفاكهى : تعرف بدار ابن معيوق آخرها عوف القبلية وبقربها حصن كبير جاهلى يعرف بحصن ليلى .

السداد ــ قرية فيها هضبة الردف . تكلمنا عنها فى الآثار .

السلامة ــ قرية محاذيه للطائف من جهة باب ابن عباس ، كثيرة البيوت بعضها عامر ، وبعض خرب ، سكانها قليلون من قريش وغيرها . ذكرها ياقوت فقال : قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم وفى جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابة (رضى الله عنهم) . اﻫ كلامه . وهى الآن فى ظاهر البلدة يفصل السور بينها وبين قبة ابن عباس . وما زال المسجد فيها . وقال العجيمى : لا أعلم بدء عمارتها إلا أنها كانت معمورة فى أوائل القرن التاسع ، وبها كان ينزل أعيان مكة وفضلاؤها ، ثم خربت فى حدود الثمانين (كذا) وتحول أهلها عنها ولم يبق بها منهم غير القليل وانهدمت بيوتها فى مدة يسيرة .اﻫ . وقد مربنا ما نقلناه عن كتاب أشراف مكة وأمرائها من أن الشريف سروراً نزل بها سنة ١١٩٣ﻫ وهذا دليل على أنها كانت عامرة إلى عهده .

سلسلة ــ ذكرها الفاكهى ولم أجد من يعرفها ــ قال : قرية كبيرة بينها وبين قرية الوزير (الزوران) بحرة الرغا . وعندها آثار حصن جاهلى هدم فى صدر الإسلام ثم قال : ومن لطيف ما يذكر أن رجلا من أهل هذه القرية قيل له : ما اسمك ؟ فقال : كليب . فقيل : وما سكنك ؟ قال : سلسلة قبالة الوزير . فقيل له لا قدرة لنا على كليب فى سلسلة قبالة الوزير !

سويد ــ من قرى وادى لية ، كبيرة فيها بساتين .

السويقة ــ جبل صغير على جنوب قرية الخضراء ، بينه وبين جبل « أبونقطة » درب يقال له شعاب الماء .

شبرة ــ على يمين الذاهب من الطائف إلى الشرق ، مزارع خضر تسقيها جداول صغيرة من الماء ، تمتد مسيرة ربع ساعة وتنتهى بقصر هو أفخم بناء فى الطائف ، وربما كان أعظم قصر فى الديار الحجازية بحسن بنائه وجودة مناخه وسعة مساحته وتنظيم غرفه ، وهو منقسم إلى قسمين أحدهما منحرف عن الآخر ، وقد يبلغ عدد ما فيهما من الغرف والإبهاء مئة وخمسين أو يزيد : تحوط جهاته الداخلية حديقة غناء هى أجمل حدائق الطائف وغيره من بلاد الحجاز على الإطلاق بانتظام أشجارها وأزهارها وحسن هندستها وجمال بركها . وإنما سميت هذه المزارع وفيها القصر والحديقة باسم « شبرة » تشبيهاً لها بشبرة مصر . وعلى جانبي الطريق الموصلة إليها من الطائف أشجار كبيرة من الطرفاء (العرين أو الاثل كما يسمونه) وقد زال بعض هذه الأشجار قبيل النهضة وفى أوائلها . وقصر شبرة هو منزل الأمراء فى الطائف وأكثر ما ينزلون فى الجانب الأيسر منه كما فعل الأمير على ولى عهد الحجاز ، ونحن فى الطائف ، فإنه اختار هذا الجانب على الثانى مع أن ذلك أعظم وأضخم .

عين شبرة ــ رأيت فى هامش على تاريخ العجيمى لأحد أفاضل الطائف المعاصرين أن من أشهر عيون الطائف عين شبرة يروى منها أهل الطائف :

الشداين — مزرعة الشداين هى أول وادى لقيم من جهة الطائف ، بين المليساء والخليطى وفيها أراض تزرع حبوباً .

شرقرق — أحد جبلين متحاذيين قبالة قصر شبرة . والجبل الثانى يدعى عكابه . ولما اضطرمت نار الحرب بين العرب والترك أيام النهضة تحصن الأتراك فى عكابهوأخذ العرب يرمونهم من شرقرق ومن شبرة حتى أزالوهم عن مواقعهم ، وفى ذلك يقول أحد شعراء البادية . ويسمون هذا النوع من الشعر « المجرور » :

عُكَابهْ رمَوْكْ . مِنْ شَرْقْرَقْ وشُبْرهْ . بِبُنْدُقْ ميَازِرْ
ولَا اللهْ فَتَكْ فِيكْ . تَظَلِّينْ عِبْرهْ . لِكُلِّ النَّواظِرْ !

والبندق فى اصطلاحهم رصاص البندقيات ولعله أصح اسم يمكن اطلاقه على الخرطوش . والميازر فى بيتىْ هذا الشاعر جمع موزر كأنه أرجعها إلى أصل عربى فجمعها كما يجمع مسجد على مساجد ولكن كان عليه أن يقول « موازر » كموقد ومواقد ، وقد عقدت فصلا ضافى الذيل للشعر فى البادية تجده فى أواخر هذا الكتاب . وأما قوله « ولا الله » فهو فى اصطلاحهم « وإذا الله » .

شعاب الماء — طريق كالوادى تحت جبل « أبو نقطة » وهذا الطريق يتصل بالهدة فكة ، وهى غير الدرب الذى بين جبلى « أبو نقطة » و« السويقة» السابق ذكره فى الكلام على السويقة .

شهار — قرية معروفة فى الطائف ، قيل أن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجم الطائف بعد فراغه من غزوة حنين جاء عن طريق « لية » حتى قرب من حصن الطائف فوقف هناك وأمر بشهر الأسلحة ، فسمى ذلك الموضع شهاراً بشهر الأسلحة فيه .

الشهداء — هضبة معروفة فى شرق الطائف .

الصخرة — فى عقود اللطائف أنها قرية قديمة كبيرة يبلغ أهلها أربعين وفيها ٢٢ بيتاً ، ولم يتفق لى أن أراها أو أعرفها .

الصخيرة – من قرى وادى جفن الكبيرة فيها بساتين وزروع ، ذكر لى أنها موجودة ولم أرها .

صعب – قرية فى آخر المثناة من وادى وج إلى غرب الطائف . سميت باسم جبل مجاور لها يدعى « صعباً » وهو فى واد أمام جبل المحترق .

الصفاة – قرية كبيرة عامرة بعد المريسية ، فيها نحو ثلاثين داراً وأربع آبار وأربع مزارع منها مزرعة للشريف فهد بن شاكر والثلاث للعصمة . وهذه القرية هى منتهى حدود لقيم فى اصطلاحهم ، وبعدها بيسير قرية أم الحمض السابق وصفها .

الصهيبة – ذكرها الفاكهى فى قرى القرن من وج ولم أعرفها .

العبابيد – قرية فى وادى لقيم ، فيها مزارع وبضعة بيوت وبئر ماء وهى قبل قرية الفقهاء وبعد الخضارى . تبعد عن الطائف إلى الشرق مسيرة ساعة ونصف .

العبلاء – قال الفاكهى : قرية كبيرة عند حصن جاهلى فى لية .

بئر عجلان – من أشهر آبار الطائف ، وماؤها من أعذب مياهه ، وهى فى قرية الآبار(١) .

العرج – قرية كبيرة من قرى الطائف ، إلى شرقه ، تلى وادى الخرار بعد مسافة . كانت من أنضر قرى هذه الديار وأجملها حتى أنهم كانوا يدعونها مصر الصغيرة » ثم قلّت مياهها ، فجف بعض مزارعها وزال رونقها وفى كتاب أشراف مكة وأمرائها أنها كانت عام ١٢١٦هـ من أعمر القرى ومن أكثرها ماء ومروجاً ، وذكر أن حادثة نشبت فيها فى ذلك العام فاحترقت دورها ونهبت مواشيها . ولكنها بعد ذلك استعادت شبابها ثم تضاءلت منذ بضع سنين . . وإلى هذه القرية (أو الوادى كما سماها بعض المؤرخين) ينسب

---

(١) قرية الابار كانت تطلق على محلة (قروى) قديما أما ماؤها الآن الذى كان عذبا فقد صار ملحا وذلك لإحاطة البيوت بها والقصور والدور وكذلك بئر حوايا أصبحت مالحه بعد ان كانت عذبه وذلك لاحاطة المساكن بها .

الشاعر المعروف بالعرجى وقد سبقت الإشارة إليه فى رجال الطائف .
وفى معجم البلدان لياقوت : العرج أول تهامة فى بلاد هذيل . وهى غير العرج الذى بين مكة والمدينة ، وغير العرج الذى فى اليمن بين المحالب والمهجم .

العقيق — قرية أقرب إلى الصغر ، موازية لشبرة على غربها . وفى بعض كتب التاريخ أنها قرية المقداد بن الأسود الصحابى . وبها ثلاث آبار : بئر المقداد وبئر الزبير وبئر عكرمة . وقد قلّت مياه هذه الآبار الآن وجف بعضها .

عكابة — جبل قرب الطائف إلى شرقه ، مقابل لشبرة ، محاذ لشرقرق ، تقدم الكلام عليه فى شرقرق .

العكرمية — قرية بالقرب من العقيق ، تنبع قريباً منها البئر المسماة نجمة المملوكة . لم أرها . وعارفوها كثيرون .

قرية الغنامين — قرية كبيرة كثيرة المزارع والفواكه ، تقع فى أواخر وادى لقيم ، إلى شرق الطائف ، بعد قرية البخاتين وقبل مزارع أم هيثم . فيها نحو عشرين بيتاً وخمسة بساتين وست آبار وبها أراض (ويسمونها الركبان) تزرع حبوباً وبها خوخ وسفرجل ورمان وعنب وتين .

الفعر — مزارع للشريف شرف فى أم الفضلين عند قرية الخليطى فى لقيم .

الفضيلة — بئر فى مزارع النوامى الآتى ذكرها .

الفقهاء — قرية فى لقيم وراء قرية العبابيد . فيها نحو عشرة بيوت وبها مزارع وأشجار وبئر ماء تسمى الخضيرة . وهذه القرية قبل قرية الخضراء

القديرة — قرية كبيرة تبتعد عن أم الحمض إلى الشرق مسيرة ربع ساعة ، وبعدها عن الطائف مسافة ساعتين ونصف . وهى خلف لقيم . فيها نحو خمسين بيتاً وسبع آبار ومزارع حبوب .

قروة — هى قرية الآبار السالف ذكرها لاتعرف اليوم بغير « قروه » مشتملة على دور متعددة بلغت حد الكثرة وفيها خمسة عشر بستاناً .

القرن — قرية عامرة ، وقد يقال لها وادى القرن ، على طريق المسافر من الطائف إلى مكة قبيل الهدة فى وادى المحرم . وفى هذه القرية يكون الإحرام . وكانت فى أيام العجيمى خربة وسماها « القرين » بالتصغير ، قال فى تاريخه : « جاءفى القاموس القرين قرية بالطائف . وهى الآن خربة » ولعل القرين غير القرن ولكنهم لايعرفون اليوم قرية تدعى بهذا الإسم على صيغة المصغر .

قملة — قرية صغيرة عامرة ، قبل وادى الجفيجف فى الطريق إليه ، محاذية للحزمان شرق الطائف ، فيها بساتين ودور وزروع مختلفة .

لقيم — واد طويل خصيب يجتاز فى أقل من ساعتين ، أو له مزارع الشداين بعد المليساء ، وآخره قريةالصفاة على ما يزعمون ، وعندى أن آخره جبل رغاف . وهو كثيرالقرى والمزارع ، وقد أتيت على أسمائها فى مواضعها وفى كتاب العجيمى أن لقيماً قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار . ثم قال : وهى مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم الحمدة وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن فى حدود سنة ١٠٤٠ ه لخروجهم عن طاعته ه . والذى صح عندى أن جماعة ثقيف يسكنون قرية المليساء وقد تدعى باسم الحمدة الذين ذكرهم العجيمى لسكناهم بها إلى الآن . أما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون فى مزارع هذا الوادى وقراه . وأما إطلاق اسم القرية عليه فلاأعلم له وجهاً إلا إن فيه قرية تدعى لقيماً تغير اسمهابعد زمن العجيمى وأطلق الاسم على الوادى كله .

لية — واد أكبر من وادى لقيم ، كثير المواضع ، وفير الرى ، فى أول طريق السيل إلى جهة الشرق الجنوبى ، أشرت إليه فى كثير مما تقدم . قال ياقوت : ولية بتشديدها من نواحى الطائف مر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين انصرافه من حنين يريد الطائف ، وأمر وهو به أن يهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان.قال غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك .

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ أَكْنَافِ وَجٍّ وَلِيَّةَ نَحْوَكُمْ بِالدَّارِعِينَا

وقال الفاكهى : لية على ثمانية أميال من الطائف إلى الجنوب وهى واد كبير خصيب ، اختلف المؤرخون بها أهى من الطائف أم لا . وفى كتاب

العجيمى ما يؤيدانها من الطائف . والطائفيون يرون أن لية ليس من أدويتهم [١]

المثناة – موضع فى وج على غرب الطائف ، فيه قرى وبساتين ومزارع خرجنا إليه يوم ١٤ صفر فكنا بينما نحن نسلك سفح جبل عن يميننا نلقى النظرات على ما فى اليسار فيتمثل لنا منظر الربوة الغناء فى دمشق أمام السالك على سفح قاسيون [٢]

وانتهى بنا السير إلى نيف وخمسة كيلو مترات عن المدينة فنزلنا بستاناً من بساتين المثناة تخترقه عين ماء تترقرق فى قناتها ، يسمونها عين الخبزة (وقد مر ذكرها) ولبثنا أمام العين فجلب لنا سفرجل قطف أمامنا وهو فى غاية الجودة كأنما حمل من زبدانى الشام ، ورأينا أصحاب البستان يحصدون الشعير ، فعجبنا من ذلك ونحن فى أواخر تشرين الأول (سبتمبر) وما كنا لنخاله موسم حصاد ، غير أن العجب لم يلبث أن زال حين علمنا هذه الأراضى تجود بمحصولين فى العام ، يحصد الأول فى الخريف ، والثانى فى الربيع ، مما لا نعرفه فى بلادنا . ولما مالت الشمس إلى الغروب صعدنا جبلا مقابلا للمثناة لم نعرف اسمه فرأينا أجمل منظر شهدناه فى الطائف : ذلك وادى وج الرحيب ، وحدائق المثناة الخضراء ، وهى من أخصب الأرضين فى هذه الديار وفيها أبنية عامرة وأخرى عبثت بها أيدى النوازل والسنين وكان القمر فى ليلة تمامه فجعل يصعد أمامنا صعوده البطىء ، وارتفع صفير العصافير طرباً بتوديع الهاجرة ثم لم نلبث أن عدنا إلى منازلنا والليل فى إبانه .

المحترق – من جبال الطائف المشهورة ، حجارته أميل إلى السواد من غيرها ، يقع فى أعلى المثناة ويقابله واد به جبل « صعب » السابق ذكره .

المحرم – إذا اعتبرنا جبل كرا الفاصل بين حدود مكة والطائف دخل وادى المحرم فى حدود الطائف ، وهو واد مشهور معروف تقدم الكلام عليه فى حديث سيرنا من الهدة إلى الطائف .

(١) كتب عنه الوالد كتابة ضافية فى مجلة العرب الغراء السنة التاسعه صفحة ٦٦٤ – ٦٧٦ وعدد قراه وبساتينه ومزارعه وسكانه .

(٢) انظر هامش صفحة ١٢٦ .

المدهون — فى الطائف جبلان كلاهما يدعى المدهون ، أحدهما : عن يمين الذاهب من الطائف مغرباً يلى أرض المثناة بطريق وج . والثانى عن يسار الذاهب من الطائف مشترقاً يقابل أول أرض شبرة ، وكأنهما كانا متصلين فخرقتهما السيول لأن الفاصل بينهما غير عظيم البعد .

المرقبة — قرية فى وادى لية ، كانت تقام فيها سوق من عهد الشريف حسن بن عجلان وفيها مسجد ، وقد بطلت إقامة السوق منذ زمن .

المريسية — قرية كبيرة ذات آبار خمس وبستانين فيهما عنب ورمان وتين و حمض وتفاح ونخل وليمون ، وبها نحو عشرين داراً وأربعة منازل كبيرة للأمراء والأشراف . وهى فى وادى لقيم على مسيرة ساعة ونصف من الطائف إلى الشرق مجاورة لمزارع الخضرا (بالقصر) التى قلنا أن على بئرها محركاً وضع حديثاً . وهذه البئر معروفة باسم بئر « المريسية » وهى بعد قرية أم صدعين .

مسرة — جبل عظيم كثير التعاريج يسلك الذاهب بين مكة والطائف جانباً منه ، وقد تكلمنا عنه فى طريقنا من الهدة إلى الطائف .

المسمع — قال الفاكهى : من قرى وادى لية .

معشى — قرية غرب الطائف لاتبعد عنه كثيراً ، يظنها بعض أهل الطائف قرية الهضبة التى ذكرها العجيمى وإنما الهضبة الطائف .

ملح — قرية فى وادى لية معروفة ، فيها بيوت ومزارع .

المليساء — قرية كبيرة من قرى الطائف ، قبل وادى لقيم للذاهب إليه ، يسكنها جانب كبير من عشيرة الحمدة وقد تعرف باسمهم (انظر الحمدة) : فيها نحو ٦٠ منزلا ورجالها نيف ومائة ولعل نفوسها تناهز ثلثمائة ، وهى مشهورة فى قرى الطائف بجودة سفرجلها ، وفيها كروم عنب ومزارع حنطة وشعير . وكانت فيها عدة آبار جف بعضها . وهى قبيل بئر الحماضية التى تقدم ذكرها وتكاد تلاصقها . تبعد عن الطائف نحو خمسة كيلو مترات .

منيفة — ذكرها بعض متأخرى المؤرخين فى قرى وادى لية ولم اتحقق وجودها .

نجمة المملوكة — بئر مشهورة بكثرة مائها ، وهى لفريق من الأشراف على مقربة من قرية العكرمية .

نخب — بفتح فكسر . واد بين الطائف ولية . له ذكر فى التاريخ والشعر ، وفيه بيوت كثيرة ونحو عشرة بساتين ، يسكنه الآن عرب « وقدان » وهم قبيلة من عتيبة . وفى كتابى العجيمى وياقوت أن سكانه هذيل . ولعلهم كانوا قاطنيه فى السابق ثم جلوا عنه . وكلام ياقوت فى المعجم : « نخب واد بالطائف وأنشد :

حَتَّى سَمِعْتُ بِكُمْ وَدَّعْتُمُ نَخِبًا ... مَاكَانَ هَذَا بِحِينِ النَّفْرِمِنْ نَخِبِ

قال : وهو بأرض هذيل وقيل واد من الطائف على ساعتين مر به النبى (صلى الله عليه وسلم) من طريق يقال لها الضيقة ثم خرج منها على نخب حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة . ورواه الأخفش بتفحتين اه كلامه .

ورواية الفتح فالكسر فى نخب هى الصحيحة خلافاً للأخفش فإن أهله لايزالون يسمونه بها رغم مرور الأعوام والأحقاب ، فلا مجال للخلاف[1]

النصيلة — مزارع وادى الجفيجف ، ذات بساتين وأشجار ، ولافواكه فيها بل أشجارها من نوع النبق وزروعها أنواع الحبوب وهى بعد مزارع جبرة وقبل دحلة .

حصن النغرة — النغرة طائفة من ثقيف لم أسمع بها فى رحلتى . وهذا الحصن يظن أنه الحصن الذى نزل بقربه النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة الطائف فقد قال المرجانى أنه باق إلى الآن بالبناء الجاهلى . ونقل العجيمى

---

(١) كتب عنه سيدىالوالد كتابة ضافية فى مجلة العرب السنة الأولى ١٣٨٦ صفحة ٥١٥ - ٥٢٣ وذكر قراه ومسايبله وسكانه .

أن فيه أربعين بيتاً وفيه بئر وتنين عظيم يمنعهم البناء فيه إلا أن يذبحوا عنده[١] (!)
وهو بالقرب من مسجد الحجاج بن يوسف[٢] وكان قد عمر هذا المسجد
بتربة حمراء يؤتى بها من اليمن ، ولم يبق إلا آثار المسجد ومنارته خراب .
ثم قال : وهذا الحصن موجود على ما ذكره المرجانى وقد وصلت إليه
ورأيت آثار المنارة ومسجد الحجاج وأما التنين فإنه فقد منذ سنين وحوله
بيوت وبساتين . والشائع عند أهل القرية أن بيت عبد الله بن عباس فيها .اﻫ

وهذا الحصن فى وادى لية لم تتيسر لى زيارته وعندى شك فى بقائه إلى الآن .

النوامى — مزارع فى أوائل وادى لقيم من جهة الطائف للشريف شاكر .
فيها أراض كبيرة بعضها مزروع . وفيها بئر الفضيلة الآنف ذكرها وهذه
المزارع بعد أم الفضلين وقبل الحضارى .

الهضبة — ذكرها العجيمى فقال : قرية كثيرة البيوت جداً ، بدئت
عمارتها بعد الألف ثم زادت بيوتها بعد أن خربت السلامة .

وهى الآن غير معروفة ويظنها بعض فضلاء الطائف قرية معشى
السابق ذكرها ، ولوقوعها تحت هضبة تعرف اليوم باسم هضبة معشى .
والصحيح ما ذكرناه فى الكلام على داخل السور من أنها هى بلد الطائف نفسه .

الهدة — تقدم الكلام على الهدة فصل خاص فى أوائل هذا الكتاب
وقد يعدونه آخر حدود الطائف للسائر إلى مكة كما يعدون الكر آخر حدود
مكة للذاهب إلى الطائف يفصل بينهما جبل كرا وهو الحد الطبيعى . ولأهل
البلدين فى هذا أقوال .

الهميلة — كان يجدر بنا أن نهملها ! قرية لها شىء من القدم تقع فى
آخر وادى جفيجف وقبيل حطفة وادى الحرار . خربت كلها ولم يبق منها
غير دار واحدة كأنها خربة ولا سكان فيها .

الواثليتان — الشرقية والغربية : قريتان فى وادى لية .

---

(١) إن أمثال هذه الحكايات هى من أكاذيب الدجالين وخرافات القصاصين ، وكان يجدر
بالمؤلف أن يناقشها ويزيفها .

(٢) وهذا مخالف لما ذكره المؤلف فى صفحة ٧٥ — ٧٦ من أن مولد الحجاج كان «بالهدة»
أنظر هامش صفحة ٧٦ .

وج — واد عظيم فى ديار الطائف إلى غربها، يمتد بين جبلى المحترق والأصيحرين طولا، وبين جبلى المدهون وأم السكارى عرضاً . وهو أشهر أودية الطائف ومواضعها، حتى أن بعض المؤرخين أطلقوا لفظ وجّ على الطائف كلها عمرانها وقراها وأوديتها ، وفيهم من يرى أن وادى وجّ عرف قبل الطائف، وأن قرى الطائف ومدينته بنيت فيه . وبهذا جاء الحديث الشريف : « آخر وطأة الله يوم وجّ » وفسروا الوطأة هنا بالغزاة وكانت غزوة الطائف آخر غزوات النبى (صلى الله عليه وسلم) . أما المعروف اليوم عند أهل الطائف فهو أن وجاً هو ذلك الوادى الذى أشرنا إلى حدوده وهو خارج عن الطائف . وأكثر المؤرخين يرون أنه سمى وجاً بنزول أحد العمالقة به فى الأعصر الغابرة ، وقالوا : وهو وج بن عبد الحق (أو عبد الحىّ) . وزاد ابن عراق[١] أن هذا العملاق كان من أهل نجد يقيم فى هذا الوادى مدة فصل الصيف .

ولم يمر به النبى فى غزوة الطائف ، لأنه جاءه من طريق السيل فوادى لية، وهو على شرق الطائف منحرفاً قليلا إلى الجنوب . فيتضح من هذا أن اسم وج كان يطلق إلى ما بعد العصر الإسلامى بقليل على جميع الطائف، ثم خص بهذا الوادى المعروف إلى يومنا . وهو كثير القرى المزارع والآبار والسكان والبساتين . كانت بساتينه فى أواخر القرن العاشر نيفاً وستين بستاناً . وقد أهمل بعضها أخيراً لقلة الأمطار، غير أن ذلك لم يؤثر فى عمران هذا الوادى وخصبه . وهو على يسار الذاهب من الطائف إلى مكة وعلى يمين القادم من مكة . يبتدىء بعد الطائف بمسافة غير بعيدة[٢]

الوزير — هى القرية المعروفة الآن باسم « الزوران » من القرى الصغيرة فى وادى لية .

---

(١) قال المؤلف ابن عراق : هو الشيخ نورالدين على بن محمد بن عراق الشامى من مؤرخى الطائف له رسالة فيه سماها « نشر اللطائف فى قطر الطائف » رأيتها بمكة مخطوطة لا تتجاوز الكراس.

(٢) كتب عنه حضرة الوالد كتابة ضافية فى مجلة العرب السنة التاسعة سنة ١٣٩٥ هـ صفحة ١٥٣/٥١٤ وذكر بساتينه وعيونه .

الوسطى – مزارع فى أواسط لقيم لقبيلة العصمة ، فيها بئر واحدة . وهى بعد مزارع أم هيثم وقبل الخادمية .

الوهط – بستان كان لعمرو بن العاص ، مرت الإشارة إليه(١)، وهو الآن قرية على ثلاثة أميال من وج يراها المؤرخون آخر حدود الطائف من غربه . فيها عين ماء كانت تعرف بعين الأزرق ، وتعرف اليوم بعين الوهط . وقال الفاكهى فى الكلام على الوهط فى عصره : هى قرية قريش وأم قرى الطائف .

وفى أمثال الميدانى نبذة أوردها فى كلامه على دهاء عمرو بن العاص . قال : ويحكى من دهاء عمرو أن معاوية قال له يوماً : هب لى الوهط يا عمرو واسألنى ما شئت . فقال : هولك . ثم قال لمعاوية : وقد بقيت مسألتى . فقال : أنت بكل ما سألت مسعف . قال ترد لى الوهط ! فعجب معاوية من دهائه ، وقال : لك هو ؟

الوهيط – قرية خلف الوهط فيها ثلاثة بيوت وبها عين وبستان .

---

(١) أنظر صفحة ٨٤ .

قبائل الطائف

عتيبة . ثقيف ، شبابة ، خندف »

ترجع قبائل الطائف فى أنسابها اليوم إلى أصلين كبيرين أحدهما عتيبة ، والثانى ثقيف . وأنا ذاكر ما وصلت إلى معرفته من أسماء الفريقين كما يلفظونها هم :

فمن عتيبة[١] : الجعدة[٢] . والوذانين[٣] . والسوطه[٤] . والعصمه[٥] والدعاجين . والزوّد ، وقريش ، والثبته[٦] . والمقطة[٧] . والروقه[٨] . (ومن هذه : الزراريق وطلحة ومزحم) وذووعالى ، والذيبة . والفلته . والنخشه[٩] وبنو الحارث (ومنهم ناصرة — وهم أهل قرى فى الحجاز — والشدادين ، وذوو حطاب . وهما بداة)

ومن ثقيف : قريش الحضر . قريش البدو[١٠] وبنو سفيان (وهم

---

(١) بضم أوله .
(٢) بسكون الجيم وفتح العين .
(٣) بفتح الواو والذال .
(٤) بسكون السين وضم الواو .
(٥) بسكون العين وكسر الصاد
(٦) كالعصمة .
(٧) كالجعدة .
(٨) بضم الراء المشددة .
(٩) الثلاث الاخيرات بوزن الجعدة .

تنبيه وتعقيب :

(١٠) أخطأ كاتب هذه الرحلة — رحمه الله — حيث عد قريشا فى ثقيف والصحيح انها من قريش وها أنا ذا انقل للقارىء الكريم بطون ثقيف من كتاب : « الطائف — جغرافيته — تاريخه — أنساب قبائله (ماخلاصته : تنقسم بطون ثقيف إلى ثمانية أقسام ١ — بنى سفيان ٢ — طويرق . — ٣ — النمور . ٤ — عوف . — ٥ — بنى سالم — ٦ — ثمالة وهى بطن من الازد ولكنها دخلت محالفة ثقيف حتى عدت منها — ٧ — الحمده — ٨ ثقيف التّرعة . =

. . . .

= التّرعة : ومنهم : بنو جاهل – بنو يوسف – المجارده – الندبة – وقد يلحق بعضهم بنى ذبيان بثقيف التّرعة . وتحت كل بطن من هذه البطون بطون يطول ذكرها سنوضحها . أما قريش ومن بطونهم الغشامرة والقصران فليست من ثقيف بل هى من قريش قبيلة مستقلة ولكنها مجاورة لثقيف حتّى عدت منها وأول من عرف بسكنى الطائف « بنو مهلائيل بن قينان » . ثم سكنه العمالقة . قوم من عاد ثم قبيلة ثمود ،ثم إياد، ثم قبيلة – عدوان – ثم آل إلى بنى عامر ، ثم إلى ثقيف فى خبر يطول ذكره . ولاتزال ثقيف نازلة بأرباض الطائف حتّى اليوم وهى:

أولا – بنو سفيانْ : ويقسمون إلى قسمين : أ– آل شريف – ب – آل –عمر .

أ – ويقسم آل شريف إلى قسمين : – آل حجه – ٢ – آل ساعد .

١ – أما آل حجة : فيتفرع منهم البطون الآتية : الحمس – بضم الحاء وتشديد الميم – البهادلة – البدم – بضم الباء وتشديد الدال المهملة – أبو الظهير – آل منيف – آل عيسى .

٢ – وأما آل ساعد : فيتفرع منهم : آل منصور – آل سويعد – آل عبيد – آل حسن آل عائشة أو آل عيشة – والنسبة اليه عيشى . وربما الحق بعضهم » الحرجلى « بآلساعد وقد يكون بالحلف .

« تعقيب » قال فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » ومن آل عائشة : الطلحات والحجلة وآل عمر » قلت : أما الحجلة وآل عمر فلم يعرفا فى آل عائشة وإنما هم فى هذيل وكذلك الطلحات فهم من هذيل لا من ثقيف .

ب – أما آل عمر : فيتفرع منهم : تميم – العسران – الخضرة .

ثانيا – طويرق : ويقسمون إلى قسمين (أ) طويرق الحضر (ب) طويرق البدو .

أ – أما طويرق الحضر ففيهم هذه البطون : الجعيدات – الحصافين – الزحارية – الفضل .

ب – وأما طويرق البدو : ففهم البطون الآتية :

الروسان – الغرايين – التراكية – الكلبة – الظفارين – الحمران – ذوى خليق – الهنادية .

ثالثا – النمور – ويقسمون بحسب منازلهم إلى قسمين :

أ – سكان الهدى وهم : الكل – اللنظة – الحولة – الغربة – البنى – الحجران ، والمغاربة بالحلف مع النمور .

ب – سكان وادى المحرم ، وهم الخضرة ومنهم : اللوامية والمشاييخ والمشاهبة والقبسة – وسكان الدار البيضاء ، وهم : البعروض – وآل سلطان – وآل حربى .

رابعا – عوف : سكناهم وادى لية ومنهم : الغنم بضم الغين المعجمة وتشديد النون ومنهم « الموسى – وقد وهم الامير شكيب رحمه الله أو وهم من أملاه بأنهم، أى عوف هؤلاء سكان وادى لية بأنهم من حرب فهذا وهم وخطأ بل هم من قبيلة « هوازن » التى تفرعت إلىبطون كثيرة وعديدة يجمعها ثلاثة أجرام كلها لبكر بن هوازن وهم : ١ – بنو سعد بن بكر – ٢ – بنو منبه بن بكر وهو ثقيف – ٣ – بنومعاوية بن بكر ، ومن ولده : جشم وصعصعة وعوف ونصر . منهم مالك بن عوف النصرى قائد لواء المشركين يوم حنين ثم أسلم وحسن اسلامه . =

. . . .

= ووهم صاحب الرحلة اليمانية الشريف شرف عبد المحسن البركاتي حينما نسب قبيلة ناصرة إلى نصر بن معاوية ، وقبيلة ناصرة التي دخلت في بلحارث اليوم وسكناهم شرقي الطائف . والصحيح أنهم من : ناصرة بن فصيه بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن وديارهم في ديار بني سعد بن بكر « وانظر مجلة العرب ٣ : ٨١٨ » .ولاتزال قبيلة عوف الآن معدودة في ثقيف ونسبها كما أوضحنا وفي أماكنها القديمة – زمن الجاهلية – حتى الآن وقد يشتبه هذا الاسم « عوف » باسم قبيلة أخرى من ثقيف اسمها عوف وذلك ان ثقيفا فرقتان : عوف وبنو مالك أما عوف ، فيسمونهم الاحلاف لانهم تحالفوا مع « غاضرة » بطن من جشم ضد بني مالك بن حطيط بن جشم بن قسى وأخرجوهم عن الطائف إلى المحل الذي هم فيه الآن « ثقيف ترعة » . والمقصود أن « عوفا » سكان وادي لية هم جماعة مالك بن عوف النصري وهم من بني معاوية بن بكر ابن هوازن أخوة ثقيف كما ذكرنا .

خامسا – بنو سالم : ويقسمون إلى بطون : آل محصور – آل أحمد – آل نافع ومنهم المناجفة – آل عايد – الجردات – آل مجبور – آل زياد – آل عمرين ، الحوتة بكسر الحاء وفتح الواو ، ومنهم : العصبي – والعياسي بالحلف مع بني سالم والاصل من الشبتة .

سادسا – ثمالة : وسميت البلاد باسم القبيلة ، وهي من الازد ويظهر أنهاامتزجت بثقيف أو أن بطونا من ثقيف امتزجت بها حتى لم نعد نعرف إلا أنها ثقيفة وان كان اسم « ثمالة » يتم عليها وفيها العشائر الآتية :

١ – آل مقبل – ٢ – الضباعين – ٣ – السواعدة – ٤ – آل زيد – ٥ – السودة بتشديد السين مع الكسر – ٦ – الطوال – ٧ – المشاييخ – ٨ – الصخريون .

سابعا – الحمدة : سكان المليساء ووادي لقيم وفيهم العشائر الآتية :

١ – الزرابات – ٢ – العرافية – ٣ – الزواهر – ٤ – ذوو هندى – ٥ – القواسم – ٦ – العقلان .

ثامنا – ثقيف اليمن ويدعون ثقيف الترعة وفيهم العشائر الآتية :

١ – بنو جاهل ومنهم الاحلاف – ٢ - النّدبة بتشديد النون مع الكسر منهم آل محمد وآل يعلى – ٣ – المجاردة – ٤ – وربما عد بعضهم بني ذبيان من ثقيف الترعة .

هذه بطون ثقيف بطنا بطنا بكل وضوح بما فيها ثمالة الازدية وقد تعدننت « أي صارت عدنانية » لان كثيرا من البطون العدنانية امتزجت بها حتى لم تعد تعرف إلا أنها ثقفية . أما قريش ساكنوا الطائف فهم بلا شك قبيلة قرشية ، وقد وهم أو أخطأ الشاعر البحاثة الكبير الاستاذ خير الدين الزركلي – رحمه الله في كتابه هذا « مارأيت وماسمعت » حيث جعل قريشا هذه قبيلة ثقفية وتبعه على هذا الوهم والخطأ الاساتذة فؤاد حمزة – رحمه الله – في كتابه قلب جزيرة العرب ص ١٣٥ ، ١٩٠ حيث عد قريشا هذه قبيلة ثقفية ، وتبعهما في خطئهما الامير شكيب ارسلان – رحمه الله – فعد قريشا في كتابه « الارتسامات اللطاف » =

. . . .

= قبيلة ثقفية . قال سيدى الوالد - حفظه الله - رسخ فى عقول البادية أن قريشا سكان الطائف هم بطن من « ثقيف » والذى قادهم إلى هذا الوهم والخطأ امتداد محالفتهم ثقيف طوال العصور بما فيها عصور الجهل حتى جرى الاعتقاد بأن قريشا بطن من « ثقيف » والصحيح أنهم من قريش لا من « ثقيف » وكان قوم من ذرية عمرو بن العاص القرشى السهمى يسكنون (الوهط) وقال الهمدانى فى كتابه صفة جزيرة العرب ص ١٢١ : ويسكن معدن البرام قريش وثقيف ، ومن قبلة الطائف واد يقال له مشريق لبنى أمية ، وفى قبلة الطائف حائط أم المقتدر يدعى سلامة ، وكان لابى سفيان بن حرب مزارع بالطائف تدعى (ذا الهرم) . والصلة بين قريش وثقيف قديمة فى العهد الجاهلى كانت على أقوى مايكون بحيث حصل الاختلاط بين القبيلتين بالمصاهرة ، والاشتراك فى الاموال فكان لمشاهير القرشيين أملاك بأرض ثقيف فى الطائف وكانوا معهم فى جوار حسن ، وألفة دائمة وصلات طيبة ، فهذان ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف من قريش لهما ولغيرهما من قريش أملاك بالطائف بأرض ثقيف ، وزادت واشتد الطلب فى طلب مصاهرة ثقيف ، سواء من قريش أو من القبائل الاخرى وذلك لما اتصف به الثقفيون من ذكاء ونباهة = يقول عيينة بن حصن - وقد صحب النبى (صلى الله عليه وسلم) فى غزوة الطائف : « والله ماجئت لاقاتل ثقيفا معكم ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية . . لعلها تلدلى رجلا فان ثقيفا قوم مناكير » « الروض الانف للسهيلى ٤ - ٣٣ - ٣٦ » وهاشم بن عبد مناف تزوج امرأة ثقفية . وامنة بنت أبى سفيان القرشى كانت زوجة لعروة بن مسعود الثقفى وأم أمية ابن أبى الصلت الثقفى رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف مما يدل على الرغبة فى مصاهرة ثقيف ، وكثيرا ما كانت القبيلتان تشتركان فى قوافل التجارة التى تبعثانها إلى الشام والعراق . ومما قوى هذه الصلة : الجوار . وقربى النسب مما دفع بالقبيلتين إلى التحالف ثم لما جاء الاسلام زادت الصلة بين القبيلتين قوة فأصبحت الطائف مصيف أهل مكة ، ومرتاد ذوى اليسار وخفض العيش منهم ، ويتخذون فيها الضياع ويعمرون الحدائق ، ويبنون القصور ، فاستوطن عدد غير قليل من القرشين الطائف وخالطوا ثقيفا حتى اصبحوا معلودين منهم . وقد بقيت آثار الحلف والاختلاط إلى عصرنا الحاضر وفيما يلى نذكر بطون قبيلة (قريش) سكان الطائف فنقول : قريش يقسمون إلى قسمين .

أولا - قريش الحضر ويقسمون إلى تسعة بطون :

١ - الحصنان - ٢ - الذراوا - ٣ - الزنان - ٤ - آل زيد - ٥ - المطره - ٦ - الحرثة - ٧ - الغشامرة - ٨ - القصران - ٩ - بنو صخر .

ثانيا - قريش البدو ، وهم ثلاثة أقسام :

(أ) الهيافين : وفيهم هذه العشائر : الفطسة - آل شاووش - آل عودة - الزعابية - الصقرة - آل عبد الكريم .

=

أكثرهم عدداً وينقسمون إلى أفخاذ كثيرة) وطويرق (منهم حضر وبدو) وثماله . وبنو سالم . والصخيريون وعوف .

وفى العارفين بالأنساب من يرجع بهذه القبائل إلى أصلين أعلى من عتيبة وثقيف . وهما شبابة وخندف . فإذا قيل شبابة اندمجت بها قبائل

= (ب) الهواملة : وفيهم هذه العشائر : آل درويش — آل شفيع — آل بركى — آل حمود السراحين — آل عمر ومنهم : الشوابرة .

(جـ) آل على : وفيهم هذه العشائر : المذاكير ومنهم : اللقحان — آل حميدان — آل مكيدة ومنهم : آل منير .

وقد ذكرنا أن آثار الحلف والاختلاط بين قريش وثقيف باقية إلى عصرنا الحاضر ، لهذا فان التحزب والتحالف والحمية التى كانت سارية فى العصور السابقة قد اضطرت ثقيفا ومن تحالف معها إلى الانقسام إلى طائفتين :

(أ) بنو سفيان — النمور — الحمده — بنو سالم .

(ب) طويرق — قريش — ثمالة .

فاذا حصل اعتداء على أحد أفراد احدى الطائفتين من الأخرى تقوم الطائفة الأخرى بمقاضاة الحق له أو الأخذ بالثأر ، وكان لهم حكامهم وقضاتهم = على عرفهم فى مذهبهم وطريقتهم . أما الآن فلا نكاد نرى أو نسمع باعتداء أو تحزب لأن تدخل الحكومة الصارم أوقف هذه الاعتداءات وأنصف المظلوم من الظالم .

أما قبيلة عتيبة (بنو سعد) وفروعها فتقسم إلى :

أولا — قبيلة الثبتة : ويتفرع منها قبيلتا اللصة والصريرات ويندرج تحت كل قسم منهما بطون كثيرة .

ثانيا — البطنين ويتفرع منها قبيلتا النفعة والطفحة ويندرج تحت كل قسم منهما بطون كثيرة (انظر — عتيبة : أصلها — وفروعها) مقال لحضرة الوالد فى مجلة العرب الغراء السنة الثالثة ٨١٦ — ٨٣٠ .

ويجاور قبيلة بنى سفيان من ثقيف (قبيلة الطلوح) من هذيل وهى أحدى قبائل هذيل الكبرى وتنقسم إلى : —

١ — آل صالح .

٢ — الخلد .

أولا — آل صالح وينقسمون إلى قسمين :

أ — الطلحات وينقسمون إلى ثلاثة بطون : ١ — آل راشد — ٢ — الأعصاب — ٣ — آل منيف

ب — آل مناع وينقسمون إلى ثلاثة بطون : ١ — البقلة — ٢ — آل حميد ٣ — آل زيدان .

ثانيا — الخلد : وينقسمون لإلى قسمين ١ — آل راشد — ٢ — آل عطاف .

ويكون هذا التعليق تصحيحا لما جاء فى صفحة ٣٢٠ من تعليق على كتاب الارتسامات اللطاف . ع

عتيبة كلها وزيدت قبائل أخر لم تكن تنتسب إلى عتيبة ولاثقيف وهى من سكان ديار الطائف . وإذا قيل خندف اندمجت بها ثقيف كلها وزيدت قبائل أيضاً .

فإذا رجعنا إلى هذين الأصلين : شبابة وخندف ، أضفنا إلى عتيبة القبائل الآتية لتكوّن منها جميعها شبابة : بنى الحارث ، بنى سعد (وهم رءوس شبابة) وحرب ، وقحطان (وهم أقدم قبائلهم) .

ونضيف إلى ثقيف القبائل الآتية لتكوّن من جميعها خندف : البقوم ، سبيع ، الجحادلة ، الشيابين ، مطير ، هذيل (ومنها بنو خالد ، والندويون والعلويون .

وقد يستغرب مطالع هذه الرحلة تقسيمنا القبائل أولا إلى أصلى (عتيبة وثقيف) ثم إلى أصلين أرفع طبقة (شبابة وخندف) ويقول : ما بال صاحبنا لم يكتف بشبابة وخندف فيعدد لنا قبائلها ولا يشغلنا بمرجعين؟

وإنما يعرف الفائدة من هذا التقسيم من كان له بالقبائل أقل اختلاط إذ يجد الصريخ إذا نادى يال عتيبة ؟ تهافتت عليه قبائل عتيبة وتخلّف المنتسبون إلى شبابة مباشرة . وإن نادى يآل ثقيف ؟ أجابته قبائلها وتخلف المنتسبون إلى خندف مباشرة . وقد ينادى : يآل شبابة فتجتمع كلها وعتيبة فيها . أو يآل خندف فتجتمع كلها وثقيف فيها .

تلك تقاليد للعرب قديمة غير حديثة ، ولعل عرب البادية أحرص الناس على أنسابهم وأشدهم تعصباً لأصولهم ، فإنك لاترى فى الحواضر ما تراه فى البوادى من معرفة كل رجل نسبه ، اللهم إلا العيُّال القديمة العريقة فى أنسابها .

الرحلة الحجازية

فى جملة ما عثرت عليه بالطائف من الكتب المخطوطة قطعة من كتاب للعالم المكى المرحوم الشيخ عثمان الراضى[١] وضعه فى نقد الرحلة الحجازية

---

(١) قال عنه المؤلف: هو الشيخ الأديب الشاعر عثمان بن الشيخ محمد بن أبي بكر بن محمد الراضى من كبار علماء الادب فى الديار الحجازية ومن شعراء طبقتها الاولى فى عصره له ديوان شعر يقع فى مجلدين وكتاب فى البديع سماه «الانوار المحمدية» شرح به بديعية لعبدالله فريج فجاء من أكمل شروح البديعيات وأغزرها مادة وأكثرها أخبارا عن الادب والادباء فى مجلد ضخم صفحاته تقارب ستمائة ، خطه جميل لاعيب فيه إلا ركة البديعية المشروحة . ولد الشيخ عثمان سنة ١٢٦٠ ﻫ وتوفى سنة ١٣٣١ ﻫ ، من شعره بديعية نبوية قال فيها :

(الاستدراك) قالُوا نَرى لَكَ صَبْرًا بعْد فُرْقَتِهِمْ
فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لَكِنَّهُ بِفَمِي

(التوشيع) زَادُوا هِيامِى بِتوْشِيعِ المَلَامِ لَهُمْ
مِنْ صوْلَةِ الجائِرِيْنَ البيْنِ والعدَمِ

(المغالطة) غالَطْتُهمْ حِين قَالوا أَيْنَ منْزِلُهمْ
ومنْ هُمُ قُلْتُ أَهْلُ البانِ وَالْعلَمِ

(الغيرة) إنِّى أَغارُ علَيْهِمْ أَنْ أُسمِّيَهمْ
وهُمْ بِقَلْبِى وأَشْكو حَرَّ بيْنِهِمِ

(المناقضة) لَهمْ لدىّ عُهودٌ لَسْت أَنْقُضُها
إلَّا إذَا شِئْت أَوْ شَاءَ الهَوى عَدمِى

(القسم) لَابلَّغَتْنى الْمعالِى مِنْ تَناوُلِها
إنْ لَم أكنْ فى ولائي صادقَ القَسم

لمحمد لبيب بك البتنونى . وقد توفى الشيخ عثمان قبل أن ينجز هذا الكتاب . فرأيت أن الخص ما أصبته منه حرصاً على مادته من الضياع والانتثار . وعسى أن ينظر صاحب الرحلة الفاضل فى ما جاء به الناقد فيصلح ما يرى اصلاحه عند إعادة طبع رحلته :

١ — جاء فى الرحلة ص ٢٩ من الطبعة الأولى و٢٣ من الثانية : « أن السراى التى نزل بها الخديوى عباس فى مكة المكرمة كان قد بناها محمد على باشا المصرى سنة ١٢٨٨ هـ لتكون داراً لحكومة الحجاز — إلى قوله — لأنه هو الذى عين فى إمارة مكة جدهم الشريف محمد بن عون سنة ١٢٢٩ هـ » قال الراضى ما ملخصه : أن هذه السراى أو دار الإمارة إنما بناها أمير مكة الشريف محمد بن عون وقد ساعده محمد على باشا على البدء بعمارتها بشىء من المال أهداه إياه وأما إسناد تعين الشريف محمد أميراً على مكة إلى محمد على باشا . فالصواب فيه أن محمد على كتب إلى حكومة الآستانة يرشح محمداً وهو ضيف عنده فى مصر إذ ذاك فلبته الحكومة وصدر أمر السلطان محمود الثانى بتعين الشريف محمد وذلك فى افتتاح سنة ١٢٤٣ هـ[1] .

٢ — جاء فى الرحلة ص ٣٤ من الأولى فى ذكر قبر عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) : « وكانت له قبة هدمها الشريف . . » قال الراضى : لم تكن له قبة بل كان له بناء صغير مسقوف هدمه الشريف المذكور .

وله من قصيدة طويلة :

لِلهِ معْهَدُ أُنسِنَا .مَا بيْنَ وَجٍّ وَالْغَدِيرْ
مَغْنًى تَخَالُ قِبَابُهُ فِى البَهْوِ هَالاَتُ البُدُورْ
يَسْمُو بِرَوْنَقِهِ عَلَى حُسْنِ الخِورْنَقِ والسَّدِيرْ
كَمْ فِيهِ مِنْ بدْرٍ تَكَحَّلَ بِالدَّلاَلِ عَلَى الْفتورْ
أَوْ شَمْسِ حُسْنٍ بِالْجَمَالِ تَقنَّعتْ لاَ بِالحَرِيرْ

---

(١) قال المؤلف : وفى كلام الراضي فوائد تاريخية اوردها فى هذا الفصل نوجزها هنا حفظا لها لعلاقتها ببحثنا :

٣ — فى الرحلة ص ٥١ من الأولى و٣٩ من الثانية : « وفى مدة الموسم ترى أهل البلاد ولا سيما الأعراب يضعون دائماً سدادتين من القطن فى فتحتى مناخرهم بعد أن يغمروها بدهن المراو يسمونها الصمائم الخ » قال الراضى : ولعمرى ما سمعنا قط ولا علمنا أن أحداً ممن طرق هذه الرحاب المقدسة لنسك أو غيره قال هذا القول ولاشهدنا نحن أهلها ولا شهد أحد من الحجاج ولا غيرهم أن أهل البلاد أو الأعراب يصنعون ذلك — إلى قوله — وهب أن المؤلف الرحلة رأى واحداً أو عشرة مثلا فى موسم يحتوى على أكثر من مائة ألف من أصناف الناس فهل يجوز له أن يعدها من عادات أهل البلاد وهم لايعرفونها ؟ الخ .

٤ — فى الرحلة ص ٥٣ من الأولى و ٤١ من الثانية توهم صاحب الرحلة القدم فى بعض بيوت مكة . قال الراضى : أن هذه البيوت التى أشار إليها كالدهلوى ،والساب ،ورذة ،وناقر واومرزا ،ومن ذكر من الحضارم والشوام والترك ، لاشيء لها من القدم بل كلها ممن جاوروا بمكة أنفسهم ، وأما البيوت القديمة فى مكة فمنها الشيبيون سدنة البيت الحرام ،والزمزميون ،والسقاطيون وبيت ابن علان ، وبيت الحطاب ، وأمثالهم .

٥ — فى الصفحة نفسها من الأولى والتى تليها من الثانية فى وصف أهل مكة « فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك وضعته بين يديك ، تراه قد استوحش منك الخ الخ » رد عليه الراضى رداً مسهباً فى إحدى عشرة صفحة جاء فيها : إن كل إقامة صاحب الرحلة بمكة لم تبلغ عشرة أيام قضاها فى خدمة الجناب الخديوى ،والتهيؤ لصعود عرفة ،وطلوع منى وعرفة ،والأشتغال بالمناسك والتبريك والمعايدة ، فأين الوقت الذى استطاع

— كانت مدة غياب محمد على باشا عن مصر للقيام بما انتدبته له حكومة الآستانة من قتال الوهابيين فى الحجاز سنة وتسعة أشهر وذلك من منتصف شوال ١٢٢٨ ﻫ إلى رجب ١٢٣٠ﻫ .

— تمت عمارة دار الامارة بمكة سنة ١٢٥٩ﻫ .

— كانت حكومة مصر واسطة المخابرات الرسمية بين الحجاز والآستانة فى أيام محمد على باشا وكان هذا ينظر فى شئون الحجاز منذ دعي لاخراج الوهابيين منه اﻫ .

به أن يختلط بأهل مكة وتتكرر محادثته معهم حتى اختبر طبائعهم الخ . ثم أتى على جانب كبير مما جاء فى فضل مكة وأهلها وسكانها .

٦ — جاء فى الرحلة ص ٥٤ من الأولى و٤٢ من الثانية . « والذى يؤسف له أن هذا الخلط وصل إلى لغتهم الخ » قال الراضى : أن ماعاب به صاحب الرحلة المكيين من نطقهم ببعض الكلمات على غير أصلها الصحيح الفصيح ، لا تنفرد فيه مكة بل هو شائع فى أكثر لهجات البلاد العربية ومصر فى جملتها .

ثم بحث فى كلمات ظنها صاحب الرحلة خطأ وعدّها مما أوجب أسفه ، فأبان الراضى تسلسلها عن العربية الفصحى كقولهم « أبيض » للاستحسان — مجازاً — و « زل » بمعنى مرّ و « زلمه » للرجل و « أزهم فلاناً » أى أدعه و « اندر » أى أخرج و « الصمادة » للكوفية الخ .

٧ — جاء فى الرحلة ص ٦٢ من الأولى و ٥٨ من الثانية : « وفى مكة قلعتان تحكمان على المدينة الخ » قال الراضى : بل القلاع ثلاث لا اثنتان .

٨ — فى الرحلة ص ٥٨ من الثانية : « وبها مطبعة للولاية تسمى باسمها » قال الراضى : بل بمكة مطبعتان لا واحدة ، إحداهما للحكومة كما ذكر والثانية بالفلق لأحد أغنياء مكة .

٩ — فى الرحلة ص ٨٥ من الأولى و ٩٨ من الثانية : « وفى المسجد ست منارات » قال الراضى : والصواب سبع لأن مؤلف الرحلة لم يذكر بباب الزيادة غير واحدة وهما ثنتان .

١٠ — فى الرحلة ص ٨٦ من الأولى و٩٩ من الثانية : « الحنفى يبتدىء بالصلاة فى جميع الأوقات ويتلوه المالكى ثم الشافعى ثم الحنبلى » . قال الراضى : هذا غير صحيح وإنما الأوقات التى يبتدىء فيها الحنفى بالصلاة أربعة : الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويتلوه فى كلها الشافعى لا المالكى ثم يصلى المالكى ثم الحنبلى . أما وقت الصبح فيبتدىء فيه الشافعى ويتلوه المالكي ثم الحنبلي ، ويتأخر الحنفي فى الصبح عن الجميع للإسفار ، والمغرب

لايصلى فيه غير الحنفى ثم الشافعى فقط . وهذه العادة بمكة منذ مائتى سنة وقد كان الشافعى فى السابق يتقدم فى الأوقات كلها(١) .

١ — فى الصفحة نفسها من الرحلة : « إن أهل كل جهة من العالم الإسلامى يجلسون عادة من الحرم فى الجهة التى يستقبلون بها الكعبة فى بلادهم الخ » قال الراضى : ذلك غير صواب ، فإن أهل كل جهة من العالم الإسلامى لهم مطوّف مخصوص ، وزمزمى مخصوص ، فكل جنس من الحجاج تبع لزمزميه حيث يفرش لهم الحصر ، وربما كان للجنس الواحد من الحجاج زمازمة متعددون ، وربما كان للزمزمى الواحد أجناس متعددة إلا الأعجام فإنهم يجلسون عند باب السلام لأنهم لازمزمى لهم الخ .

١٢ — فى الرحلة ص ٩١ من الأولى و ١٠٨ من الثانية : « وتفتح الكعبة فى العاشرة من المحرم للرجال الخ » قال الراضى : جاء كثير من الخطأ فى هذا البحث فقوله أنها تفتح فى ليلة الحادى عشر منه للنساء لاحقيقة له ومثله قوله وفى مسائه للنساء وقوله فى العشرين منه لغسيل الكعبة ليس بصواب فربما تأخر أو تقدم ، وقوله « وفى أول جمعة من رجب للرجال وفى تاليه للنساء » قال الراضى : لاحقيقة له ولا معنى !!

١٣ — فى الرحلة ص ٩٤ من الأولى و ١٠٧ من الثانية : و « فى الجدار الشمالى مكتوب على باب التوبة هذه الأبيات — واورد الأبيات —

---

(١) أن هذه العادات ما أنزل الله بها من سلطان وقد كانت بمثابة تفرقة للمسلمين حيث يحرص الاسلام كل الحرص على (الجماعة) بكل مافى هذه الكلمة من معنى حتى لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اقيمت الصلاة فلا صلاة الا المكتوبة وقال صلى الله عليه وسلم لاثنين من أصحابه وقد فاتتهما تكبيرة الاحرام فى فريضة الفجر فلما دخلا المسجد بدأ بسنة الفجر والفريضة قائمة ثم دخلا مع الجماعة فى الفريضة ، لقد قال لهما صلى الله عليه وسلم زاجرا أصليتما الفجر أربعا ؟ اذا أقيمت الصلاة فلا صلاة الا المكتوبة ، فاين هذا من عمل العادات والتقاليد المخالفة للدين وسواء جرى العمل بها منذ مائتى سنة أو ألف سنة فهى باطلة حيث لامستند لها فى الكتاب والسنة وجزى الله حكومتنا الحكومة السعودية الاسلامية وعلماءها ومسؤليها كل خير على متابعة توجيههم وارشادهم وإزالتهم لكثير من أمثال هذه البدع والخرافات .

وعلق عليها فى الهامش قائلا : « ومن هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية فى بلاد العرب وخصوصاً فى القريض منها حوالى القرن الحادى عشر للهجرة — لأن الأبيات نقشت فيه — » قال الراضى : إن ناظم الأبيات غير عربى اللسان ، وقد أوضح الناظم ذلك بقوله فى الأبيات : قال تاريخاً له قاضى البلد الخ . وهذا القاضى كان تركياً تولى قضاء مكة من باب المشيخة فى الآستانة وكان ممن يعانون الأدب ، فلما تم ترميم الجدار نظم الناس فى ذلك بمكة على العادة عندهم فى كل تعمير أو ترميم ، فنظم مولانا القاضى هذه الأبيات وقدمها إلى أمير مكة طالباً منه تقديمها على غيرها فلم يجد بدأ من إجابة طلبه لأنه تركى وقاض ، خصوصاً وقد كان تقديمها بواسطة الوالى الخ .

١٤ — فى الرحلة ص ١٠٢ من الأولى و ١٢٥ من الثانية فى الكلام على مقام ابراهيم : « وكان هذا الحجر قبل الإسلام موضوعاً بالمعجن إلى جوار الكعبة ، ثم أبعدعنها الخ » قال الراضى : وهذا يخالف مادلت عليه الأحاديث والأخبار . والأدلة كثيرة فى أن موضع المقام الشريف فى الجاهلية والإسلام هو موضعه لآن » ثم أتى بحجج من التاريخ لاغبار عليها .

هذه خلاصة ماجاء فى الأوراق التى تصفحتها من رد الشيخ الراضى ، وهى كما ترى لم تتجاوز ثلث كتاب الرحلة .

الأوبة

« أيام الطائف ، هواجس النفس ، آلام عثرة، إلى مكة »

أمضينا نيفاً وعشرين يوماً فى الطائف ، نركب البغال عصر كل يوم ، ونمضى إلى جهة من جهاته ، فنبتعد مسيرة ساعة أو ساعتين أو أكثر ، ننقب عما نسترشد إليه من الآثار ، وننظر فى ما نمر به من القرى والديار ، ونتربص فى بعض الجنائن والبساتين ونعود بعد الغروب .

وكثيراً ماكانت جماعتنا تتألف من أمير الطائف[1] ووكيل حربية الحجاز[2] وقاضى الطائف[3] ومدير شرطته[4] وفريق من ضباط الجيش ، فنجمع بين لذتى الرياضة والاستقراء ، والنزهة والاستطلاع ، ولطال ماكنا نعانى الصعاب فى صعود بعض الجبال والهضاب ، غير أن اللذة فى ماكان يلوح لنا من أثر أو منظر ، لم تبرح تشجعنا على المضى فى التصعيد والتطويف والتشريق والتغريب ، وناهيك بما هنا لك من صفاء ، فى الأرض والسماء ،

---

(١) قال المؤلف : هو الشريف شرف بن راجح .

(٢) قال المؤلف: هو صبرى باشا العزاوى ، من قبيلة عزة المخيمة فى جوار بغداد . كان فى الجيش التركى بالمدينة إلى أن استسلمت حاميتها ودخلها الاميرعلى، فتطوع ودخل فى الجيش العربى فنصب رئيسا لاركان الحرب برتبة قائم مقام قديم «قدملى» ولما استقال قيسونى باشا المصرى من وكالة حربية الحجاز اقيم مقامه صبرى وجعلت رتبته « أمير لواء » وهو اليوم فى سن الكهولة يغلب عليه صفاء السريرة وطيب القلب ، مقيم فى الطائف مع القوى النظامية .

(٣) الشيخ عبد الله كمال : فاضل رضى الاخلاق باشر تأليف تاريخ للطائف ما أظنه أتمه . بلغنى أنه توفى مؤخرا سنة ١٣٤٠هـ . وقد سبقت لناكلمة عنه اهـ قلت : قرأت لسيدى الوالد مقالا فى مجلة العرب ٢ : ١٠١ — ١١٤ عن مؤرخى الطائف ، وقال عند ذكر ابن كمال : سألت ابنه الشيخ بكر بن عبد الله بن كمال عن تاريخ والده ، فقال : إنه فقد بعد موت والدى اهـ عبد الرزاق كمال .

(٤) الشيخ درويش الحدائى المعروف فى الطائف بالحدايدى .

وسكون فى الطبيعة والفضاء ، لولا ماكان ينتاب النفس — وللنفس حنين — من نزوع وتشوق ، وتطلع وتشوف ، إلى ديار ، هى صبابتى وربا أنسي ، ومهوى هواى ومنبت غرسى ، ديار الشام المنكوبة ، بلاد الآمال والآلام ، سلام عليها وألف سلام ؟

كذلك كانت تمر — بما فيها من حلاوة — أيامنا القليلة فى الطائف ولقد عثرت بى حرون من شمس البغال ، ذات مساء ، قبل العودة إلى مكة ببضعة أيام ، فلزمت الفراش ، وعاودتنى ذكريات البعد عن الأهل والخلان ، وجعلت تطيف بى وساوسي مهولة على ببعد ما بينى وبين سورية من مساوف البر والبحر . وكم كنت أردد فى نفسى قول ذلك الشاعر المتفجع :

وَارَحْمَتَا لِلْغَرِيبِ ، فى الْبَلَدِ النَّازِحِ ، مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا !

فَارَقَ أَحْبَابَهُ ، فَمَا انْتَفَعُوا . بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَا انْتَفَعَا !

وزاد فى آلامى فقد وسائل التمريض فى الطائف ، فصبرت ، أغالب الوجد والوصب ، ويغالبنى ألم والنصب ، فاتفق قدوم الأمير على أكبر أبناء الملك حسين وولى عهده ، إلى الطائف فى ذلك الحين فعادنى وقد أقبلت على النقاهة . فاستأذنته من مع بقى من الرفاق ، بالأوبة إلى مكة ، فأذن . وعرفنا أن جلالة الملك قد استبطأنا وأكثر من السؤال عنا ، فامتطينا مراكبنا ، وقفلنا راجعين ، نلقى على الطائف ومن فى الطائف النظرات تلو النظرات والتحيات بعد التحيات ؟

كان فى النية أن نعود من طريق السيل (اليمانية) لحاجتين فى النفس : إحداهما الرغبة فى أن نرى ما نمر به من قراها وأوديتها وشعابها ، ولا سيما عكاظ ، والثانية حب الراحة بعد أن علمنا سهولة هذه وشهدنا وعوثة تلك ، ولم نكن لنبالى ببعد اليمانية التى سنضطر فى اجتيازها إلى ضعفى مدة السير فى طريق كرا . إلا أن ما أكده لنا العارفون الخبيرون من أن انقطاع

الناس عن المرور بهذه قد أبدلها من أمنها خوفاً[1] ، أو كاد ، ألجأنا إلى اختيار الأولى ، فسلكناها .

بتنا ليلة فى الهدة . وثانية فى عرفات . وحللنا أم القرى ضحوة أول ربيع الأول سنة ١٣٣٩ وقد ضعفت فيها سورة الحر بابتداء فصل الشتاء ، فتلونا آية يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . وألقينا فى عاصمة الملك العصا ، وما كانت لتستقر بنا النوى ، وفى غيرها الهوى ، ولكنها أيام وليال ، تمر من الخيال ، بين ماض وتال . . .

(١) قبل صفحات بل فى صفحة ٧٨ . . روى المؤلف حكاية تحت عنوان « الامن » وهنا ذكر الواقع وهو شاهد لما قلناه أن الجزيرة العربية كانت فى أضطراب وفوضى وخوف حتى تقدم فى ثقة واطمئنان ذلك الملك العصامى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله تعالى فبدل خوفها أمنا ونشر فى ربوعها العلم وانظر صفحة ١٧٢ ، ١٧٣ من كتاب الارتسامات اللطاف الطبعة الثانية .

فى ضيافة الملك

« فى قصره . نسبة وتاريخ حياته . إمارته . سيرته وأخلاقه . ثورته على الترك »
« عهود الخلفاء . مبايعته بالملك . بعد الحرب . عاداته »
« أولاده . قصص وأخبار »

للملك حسين فى مكة قصران فخمان متقاربان ، أحدهما حديث العهد بالبناء ، جميل الطراز ، مفروش بالأثاث الفاخر يبيت فيه ، وهو مقر حرمه المصون . والثانى قديم البناء ضخم الحجم ، أوسع دائرة ، وأكثر غرفاً وأبهاء من الأول ، يقيم نهاره فيه والهزيع الأول من الليل .

ولا يقتصر الثانى على كونه مقام جلالة الملك ، بل هو ثلاثة أقسام أو أربعة وإن شئت فقل خمسة ، فى خمس طبقات لايقل ما فيها عن مئة غرفة وقد قيل لى إنها مئة وعشرون . وهذا القصر هو المعروف عند أهل مكة بدار الحكم أو « سراية سيدنا » وأما الأول فاسمه فى مكة « بيت سيدنا » .

يصعد الداخل فى دار الحكم بضع درجات عريضة واسعة ، فى أعلاها باب حديدى كبير يفتح فجر كل يوم ويغلق الساعة الرابعة بعد الغروب ، فيمر بدهليز قصير ينتهى به إلى ساحة رحبة يحيط بها البناء من جوانبها الأربعة إلا أن الجانبين الغربى والشمالى أشمخ وأرفع ، بل فيهما الغرف والمنازل والمساكن وكل شىء .

أما أرض هذه الساحة فبسيطة لابلاط فيها ولا حجر ، تدخلها — من باب آخر — الجمال الخاصة بجلالة الملك فتناخ ويطرح أمامها طعامها فتأكل ، وقد تبيت فى هذا المكان أو تقاد إلى مكان ثان . يخالطها فى الساحة عدد من الأوز (ديك الحبش) وكبشان كبيران ، سمعت من جلالة الملك أنه رآهما وقد أفلتا من جزار كان يقودهما ليذبحهما فصعدا درجات القصر ، فأمر

جلالته بنقد الجزّار ثمنهما ، وحماهما ، وسيبقيان عائشين فى ظل قصره إلى أن يلقيا حتفهما . وكذلك الأوز وغيره مما قد يدخل هذا البيت من أنواع الحيوان ، لايذبح ولا يؤذى .

وعلى يمين الداخل فى القصر سلم حجرى يصعده الصاعد فيرى فى طبقته الأولى غرفاً يسكنها رئيس كتاب جلالته الشيخ أحمد السقاف وبضعة كتاب ، وهناك غرفة للشاهى (الشاى) والقهوة ، وغرفة للجلوس . وغرفة خاصة ، كثيراً ما كان يجلس فيها الأمير زيد أيام إقامته بمكة قبل انصرافه الأخير إلى العراق .

ويرتفع الصاعد إلى الطبقة الثانية ، فيرى عن يمينه مكاناً متسعاً يجلس فيه الشيخ ياسين البسيونى إمام جلالة الملك ، والمضايفى الخاص (الحاجب) سعد ، وبعض منتظرى الدخول على حضرة الملك . وفى منتهاه باب خشبى كبير يخرج منه إلى سطح مكشوف يجلس الملك على مقعد فوقه ، أكثر ليالى الصيف ، فراراً من الحر .

وعن يسار الصاعد « المخلوان » وقد تقدمت لنا كلمة عنه ، وهو غرفة الملك الخاصة فى أوقات سمره وخلواته وراحته . ويقابل الصاعد باب ثالث فيه غرفة تؤدى إلى مكان أظنه أوسع ما فى القصر طولا وعرضاً ، وفى هذا المكان يجلس الملك جلوسه العام للناس ، وفيه تقام صلاة المغرب كل ليلة ، فيصلى الملك ومن حضر من أبنائه وأحفاده وضيفانه وخدمه وعبدانه . وفى الغرفة التى يدخل منها هذا المتسع ، توضع مائدة الطعام كل مساء لحاشية الملك وضيوفه وأبنائه .

وإذا لم يصعد داخل القصر هذا السلم الأيمن ، بل استمر داخلا ساحته رأى عن يساره عدة أبواب ، بعضها منازل للضيوف وغيرهم ، وبعض متصل بالطبقات الثالثة والرابعة والخامسة . وهناك بيوت وغرف وأدوُر، يقطنها فريق كبير من نساء الأسرة الهاشمية . ولم أر أثر ذلك بل نقله لى ثقة من أهل البيت .

وفى إحدى زوايا القصر مطبخ كبير ترسل منه فى أوقات الطعام الصوانى الكثيرة والقدور ولوازمها إلى عدة بيوت وتوزع على سكان القصر كله والله العليم بعددهم .

وفى جانب من ساحة أرض القصر غرفة صغيرة ، فى وسطها خرق ينزل منه نحو أربعين دركة إلى جوف الأرض ، حيث يرى النازل مكاناً مظلماً مخوفاً موحشاً ، يسكنه أناس من البشر مقيدون بالسلاسل ، يأتيهم من العيش مالايكاد يسدّ أرماقهم ، ذلك المكان هو « القبو » المشهور ، وأولئك الملقون فيه هم سجناء جلالة الملك السياسيون والعسكريون والمتهمون بجرائم الشغب عليه ، وربما كان فيهم بعض أبناء عشيرته الأقربين وبعض من كانوا فى عداد حاشيته وخاصته ، أراد الله بهم الشقاء فسلط عليهم واشياً أو نماماً نزل بهم ذلك المنزل السحيق الرهيب ، حيث لاصوت صارخ يسمع ، ولاشمس نهار تبصر ، ولا ضوء هلال يرى ؟

هذا ما رأيت أن أكتفى به مجملا فيه الكلام على قصرى صاحب الجلالة بمكة . وقد كانت إقامتى فى منزل من منازل « دار الحكم » وكان دأبى أن أقضى حصة الليل الأولى (السهرة) مع زوار جلالته ، بين يديه ، فى مخلوانه ، ثابرت على ذلك مدة مكثى فى هذا البلد الأمين ، وهى تزيد على أشهر ، كان نصيبي منها أن أرى جلالته أكثر من ساعتين فى كل ليلة من نيف وتسعين ليلة ، أسمع حديثه مع المستمعين وأكلمه مع المتكلمين ، فعرفته فى سروره ورضاه ، كما عرفته فى كدره وغضبه ، ورأيته فى جد الأمر وقلّ أن رأيته فى لعبه . واجتمعت لى طائفة كبيرة مما يحرص على العلم به الكثيرون ، من سيرة الملك العربى الهاشمى وأخباره ، وعاداته وأطواره ، وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت ، نقل المحدث لا المؤرخ ، والمصور لا الكاتب ، متحرياً إيراد الحقيقة كما هى عارية مجردة . ولو استطعت لأخذت بيد القارىء أريه ما وقعت عليه عيناى ، وأسمعه ما وعته أذناى . على أن الخبر قد يغنى عن الاختبار ، وفى الرواية ما قد يغنى عن المشاهدة .

فى يوم من أيام سنة ١٢٧٠ للهجرة ، ولد فى الأستانة الشريف حسين ابن على ابن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين ابن عبدالله بن حسين بن أبى نمى (واسمه محمد) بن بركات بن محمد بن بركات ابن حسن بن عجلان بن رميثة بن محمد بن الحسن بن على بن قتادة بن ادريس ابن مطاعن بن عبد الكريم بن عيشى بن الحسين بن سليمان بن على بن عبد الله ابن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن (سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم) ابن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ونسب عدنان متصل باسماعيل بن ابراهيم الخليل . وفى النسا بين من يرفع النسب إلى نوح كما فى سفر التكوين .

وانتقل الشريف على (والد صاحب الترجمة) إلى مكة ومعه ابنه حسين وهو يومئذ طفل فى الثالثة من عمره ، فرباه فى بيته وخالف فيه سنة غيره من الأشراف ، فلم يبعث به إلى إحدى القبائل المجاورة لمكة ، ولم يربه تربية بدوية خالصة يتلقن فيها أخلاق البداة فى معايشهم ويتمرن على ركوب الخيل واحتمال المشاق ، فنشأ حضرياً مدنياً ، وأولع بالدرس والمطالعة فحفظ مبادىء العربية ، وتفقه فى شيء من أصول الدين وفروعه ، وأخذ عن بضعة أشياخ أشهرهم الراوية العلامة الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى تلقى عنه المعلقات السبع ، وهو لايزال حتى اليوم يذكر قليلا من بقايا ما لقنه إياه هذا الأستاذ ، وواصل القراءة على العالم المؤرخ الشيخ أحمد بن زينى دحلان صاحب الفتوحات الإسلامية والجداول المرضية وغيرهما ، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يتجاوز العشرين من سنيه ، ورافقه فى طلب العلم فتى مصرى الأصل هو الشيخ ياسين البسيونى الذى لم يفتأ ملازماً له ، وهو إمامه فى صلواته اليوم ، وقد سبقت الإشارة إليه .

واتفق أن كانت فى ذلك العهد إمارة عمه الشريف عبد الله باشا ، فأحبه وقربه منه وعامله معاملة الأب لابنه . ثم جعل يسيره فى المهمات ويوجهه لتذليل الصعاب ، فسافر فى أيامه إلى نجد ، وطاف أكثر مايلى الحجاز من شرقه ، وعرف قبائل تلك الأنحاء وعشائرها ، واختبر خفاياها وظواهرها . ثم كان الصلة الدائمة بين إمارة مكة والقبائل الحجازية وغيرها . وزوّجه عمه ابنة له اسمها «عابديه هانم» هى أم الأمراء على وعبد الله وفيصل . وأما زيد فأمه تركية من أكبر عائلات الترك تزوج بها بعد وفاة عابديه هانم . وهى من فضليات النساء ، يستشيرها اليوم فى أكثر شؤونه،ويعتمد عليها فى كتمان أسراره .

ومارس ركوب الخيل ، فولع بدخول ميادين السباق ، وعرف بالقوة والمقدرة على ركوب أقسى الجياد وأصلبها . حدثنى من لاأشك بخبره أن الملك لم ينفك يبارز أشد الفرسان طراداً حتى شغلته شواغل الملك . ولقد رأيته ذات يوم واقفاً يريد الركوب ، وثلاثة عبيد من الأشداء الأقوياء يقودون جواداً كلما خطوا به خطوة ثار وشخر وانتفض ، فلم يزالوا يغالبونه حتى اقتربوا به من موقف الملك وهو الشيخ المسن ، فتقدم من الجواد فوضع إحدى رجليه فى ركابه ووثب وثبة غير المبالى ، فعاد الجواد إلى زمجرته وزهوه ، فلم يكن من الملك إلا أن لطمه بقبضة يده لطمة واحدة فى عنقه ، فذل الجواد ومشى هادئاً ساكناً كأنما أبدل به غيره .

وحدثنى من رأى الملك فى موسم الحج فقال : كان راكباً جواداً أبيض ، وعليه لباس الإحرام الأبيض ، وهو مكشوف الرأس اللامع شيباً ، أبيض الوجه واللحية والشاربين ، فقال : كان ذلك منظراً عجباً . .

وتمكن منه فى أيام صباه حب اصطياد النمور والضباع والغزلان ، وقنص كواسر الطير وبواشقه ، فكان يكثر من التجوال فى رفقة له يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله ، فيتوغل فى الجبال النائية،والقفار الخالية،ويعود بعد أيام أو أسابيع حافل الوطاب تتبعه غنائمه من وحش وطير .

ولم يزل فى مكة إلى أن أوعزت إليه الحكومة التركية بمغادرتها ١٣٠٩ هـ فبرحها إلى الآستانة ، وتقلب هناك فى مناصب رفيعة استمر بها إلى أن توفى عمه عبد الإله باشا فى ثالث شوال سنة ١٣٢٦ هـ وانتهت نوبة إمارة مكة إليه، فوليها (جلالته) سادس شوال من السنة نفسها ،وأقام يتهيأ للسفر حتى كان يوم ٢٨ شوال فأبحر قاصداً الحجاز ،وبلغ جدة فى ٩ ذى القعدة سنة ١٣٢٦ فكان ذلك بدء إمارته بمكة .

فى نفس الملك حسين قوة وصلابة ليس من السهل التغلب عليها ، وهو عنيد شديد لاينقاد بالعنف ،ويصعب أن ينقاد باللين ، وقد ظهرت صفاته هذه بارزة مجسمة منذ ولى إمارة مكة وحط فى أم القرى رحاله ، فإنه طارد خصومه وتسلم مقاليد الأمور بسهر دائم ويقظة وتحفظ ، وأبى أن يمشى مع جماعة الاتحاديين على العمياء ،فضاق به ذرعهم ،وأخذوا يتحينون له الفرص للقضاء على نفوذه ، ويوحون إلى ولاتهم فى الحجاز أن يراقبوه ويعدوا عليه أنفاسه حتى أنهم عزلوا والياً اسمه أحمد نديم بك[1] اتهموه بموالاة الشريف والعجز عن مقاومته . ولم يكن شىء من ذلك يخفى على الشريف بل كان يزيده حيطة وانتباها . ويلوح لى أن اختلافه مع الاتحاديين بدأ منذ خلعوا السلطان عبد الحميد ، وقد كان الشريف ــ ومازال يثنى عليه . ويعد فى مقدمة مثالب القوم وثوبهم بسلطانهم ، وقد حاولوا كثيراً أن ينشئوا فروعاً لحزبهم فى مكة وجدة فناوأهم الشريف فأخفقوا .

ولما قامت الحرب العامة على سوقها ، ودخلتها الدولة العثمانية ، عانى الحجاز أكثر مما عاناه سواه من بلادها ، فانقطع الحجاج عن حجهم وسدت

(١) من عقلاء الترك نصب والياً للحجاز وكف عما كان يصنعه غيره من مشاكسة أمير مكة حسين باشا (جلالة الملك اليوم) فلم تطل مدته أكثر من سنة وعزل فعاد إلى الاستانة قبل الحرب العامة . وجاء مكة بعد الحرب ومعه زوجه وولدان له فأكرمه الملك وأنزله فى ضيافته وجعل له ماكان يتمتع به فى أيام ولايته ماعدا السلطة . وقد اجتمعت به كثيراً ورأيت الملك ينهض ويمشى لاستقباله خطوة أو خطوتين كلما استؤذن له بالدخول عليه .

أبواب البحر ، واتسعت فوضى البر ، وأكل الناس لحوم ولدانهم ، كما رأينا فى بعض ديار الشام ، وقويت شوكة الحزب الاتحادى فشط فى الضغط على الشريف وأعوانه ، ورأى الانكليز تهيؤ الترك والألمان للزحف إلى قناة السويس وغزو مصر فالتمسوا مشغلة لخصومهم ، وعلا صراخ بلاد العرب بالشكوى من دواوين الحرب العرفية فى سورية والعراق ، فمد الانكليز أيديهم إليهم عن بعد ، يوهمونهم العطف والإشفاق ويمنونهم بالإنقاذ والتحرير ، وأجالوا نظرات متتابعة سريعة فى ما تشتمل عليه جزيرة العرب من قوة ، ولم يكونوا يجهلون أن للزعامة فى هذه البلاد شأنها ، فاندفعوا يوفدون صنائعهم على أمراء الجزيرة ، يفاوضون هذا ، ويذاكرون ذاك ، وتفاقم الخطب على الشريف وبلاده ، فصغى إليهم بسمعه ، وتناقل الركبان الرسائل بينه وبين السر هنرى مكماهون النائب البريطانى الأكبر بمصر فوضعت الشروط ونقشت العهود ، وأزمع الشريف الثورة .

فى الرسائل التى تبودلت بين الشريف حسين والسر هنرى مكماهون ، قبل الثورة ، مالا يزال مطوياً إلى اليوم ، لم ينشر أو نشر شىء من مواده وسكت عن الباقى . وقد وقعت بمكة على كتاب يصح أن يكون نموذجاً لما كان يكتبه مكماهون للشريف ، وإنه لنموذج إن صح أن الترجمة فيه حرفية ، وجب على كل من يقرؤه أو يطلع عليه أن يتخذه درس عبرة يتعلم منه كيف يخاطب الساسة غيرهم حين يريدون أن يفاوضوه أو يخادعوه وها هو الكتاب بنصه وحروفه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية ، وسلالة النسب النبوى ، الحسيب النسيب ، دولة صاحب المقام الرفيع ، الأمير المعظم ، السيد الشريف ، أمير مكة المكرمة ، صاحب السدة العليا ، جعله الله حرزاً أميناً للإسلام والمسلمين ، بعونه تعالى آمين . وهو دولة الأمير الجليل ، الشريف حسين بن على ، أعلى الله مقامه .

قد تلقيت ، بيد الاحتفاء والسرور ، رقيمكم الكريم المؤرخ فى ٢٩شوال سنة ١٣٣٣ ﻫ وبه من عباراتكم الودية المحضة ، وإخلاصكم ما أورثنى رضاء وحبوراً .

وإنى متأسف لأنكم استنتجتم من عبارة كتابى السابق أنى قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابى قط ، ولكنى رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث فى ذلك الموضوع بصورة نهائية .

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، ولذلك فإنى قد أسرعت فى إبلاغ بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، وإنى بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التى لا أشك فى أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول .

إن ولايتى مرسين واسكندرونة ، وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب ، لايمكن أن يقال عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون اعتراض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب ، نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الأقاليم التى تضمها تلك الحدود ، حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإنى مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية ، وأجيب على كتابكم بما يأتى :

١ — إنه مع مراعاة التبديلات المذكورة أعلاه ، فبريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال فى جميع الأقاليم الداخلة فى الحدود التى يطلبها دولة شريف مكة .

٢ — إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوجوب منع التعدى عليها .

٣ — وعندما تسمح الظروف ، تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها ، وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة .

٤ — هذا والمفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها ، وإن المستشارين والموظفين الأوروباويين اللازمين لتشكيل هيأة إدارية قوية ، يكونون من الانكليز .

(هنرى مكماهون)

أما ما عاهد الانكليز الشريف حسيناً عليه ، فقد سئل عنه الأمير فيصل فى دمشق قبل المناداة به ملكاً على سورية — فأجاب بما نصه[1] :

إن المعاهدات التى يذكرها صاحب الجلالة ما رأيتها وقد طلبت منه مراراً أن يجعلها سلاحاً لى إذا كانت موجودة ولا أعلم ما سبب تأخيره ارسالها لى واكتفاء جلالته بإرسال صورة اتفاقية يقول إنها نسخة من تلك المعاهدة وهذا نصها بحروفها :

١ — تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها وتكون حدودها شرقاً من بحر فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض وشمالا ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة إلى مصبها فى بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فإنها خارج عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها فى رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها أميراً كان أو من الأفراد .

---

(١) نقلا عن عدد ١٥ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ من جريدة المفيد الدمشقية (المؤلف) .

٢ — تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخلة كانت بأى صورة كانت فى داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعد بأى شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلى من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه وهذه المساعدة فى القيامات أو الثورات الداخلية تكون مدتها محدودة أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية .

٣ — تكون البصرة تحت أشغال العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية التى هى حكمها قاصرة فى حضن بريطانيا وتلك المبالغ تكون فى مقابلة ذلك الأشغال .

٤ — تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب .

٥ — تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو ما هو مناسب من النقاط فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها . (انتهى) .

قال سمو الأمير : ولكنى مع الأسف حينما كنت فى لوندرة قدمت هذه الصورة إلى رئاسة الوزارة فأنكرت وجودها كل الإنكار وقالت بأنه لايوجد عهد ولاكتابة كعهد ينطق بمثل هذا التصريح .

الرصاصة الأولى :

الساعة ٩ والدقيقة ١٢ عربية قبيل فجر السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ هـ .

بينما الجيش التركى فى مكة هادىء فى ثكنة جرول والقلعة الحميدية ، والناس نيام والحوادث يقظى !

وبينما قادة الجيش التركى يحلمون بإيناس الشريف حسين لهم بعد صلاة الجمعة من يوم ليلتهم !

وبينما والى الحجاز غارق فى نومه بعد أن تلقى خبر جواسيسه بأن الشريف سهر تلك الليلة على عادته فى قصر الإمارة وسرى إلى منزله الساعة الرابعة من الليل فلا جديد هناك .

سمع القريبون من القصر طلقة دوى صوتها فى ذلك الليل الساجى ، وتلاها دوى متتابع من بطن مكة ، فنهضوا يكذبون السمع ، وانطلقوا يستقصون الخبر .

خرجت الرصاصة الأولى من قصر الإمارة من بندقية الشريف حسين ، فلم يبلغ صداها مسامع جيشه الكامن حول حصون الترك وثكنها ، حتى اندفع سيل النار من بندقياته ، فانتبه الترك مذعورين ، وأسرع جندهم إلى المدافع قبل أن تصل إليهم العرب ، فأطلقوا القنابل على مصاعد نيران البندقيات

، ولم ينشق فجر ذلك اليوم إلا وجنود الترك محصورون فى حصونهم ، وقلعة أجياد المشرفة على إحياء مكة ودورها تواصل إلقاء القذائف على كل مكان يتخيل لها أن فيه قوة من العرب ، واستمر بها الأمر إلى أن طاشت قذائفها فأرسلتها على غير هدى فى كل ناحية من نواحى البلد الأمين ، واختصت بالعناية دار الإمارة فاتخذتها هدفاً حتى كانت الساعة الثالثة من الصباح .

كل ذلك والشريف حسين جالس فى القصر لايبالى بما كان أو ما سيكون . وقد أمر بقطع جميع أسلاك البرق والتلفون إلا سلكاً بين القصر وثكنة جرول تاركاً للقوم سبيلا للتسليم والنجاة وإذا بالتلفون يضرب ورؤساء الجند يسألونه عن الباعث على ما يحدث ، فأجابهم منذراً بوجوب الاستسلام فلم يفعلوا ، ودام تبادل النار بين الفريقين إلى المساء . وأحصى ما أطلقوه من القنابل فى هذا اليوم بمئتين وثلاثين قذيفة من عيار ٧,٥٠ أصابت بعض المنازل فاخترقت جدرانها ولم تهدم بيتاً واحداً .

ومن أغرب ما يذكر فى هذا الباب أن النار استمر انصبابهامن أفواه المدافع والبنادق على القصر الهاشمى خمسة وعشرين يوماً ، والشريف مثابر على عادته فى الجلوس به ، لم يغير مجلسه ، ولا اختار غير غرفته الخاصة ، المعروفه حتى الآن باسم « المخلوان » يمكث بها وفى ردهة القصر سحابة النهار والربع الأول من الليل ، يتحدث مع من عنده ، ويضع الخطط لإتمام العمل ، حتى أن الناظر إلى غرفته « المخلوان » إذا حقق النظر فيها لايتمالك من الدهشة حين يرى أبواب نوافذها وسقفها ومنصتها ، وفى الجميع آثار الشظايا والعيارات النارية التى كانت تتساقط بغير نظام . ولقد دخلت إحدى القنابل غرفته وهو جالس ، فمرت على قيد شبر من مجلسه فاخترقت أساس الغرفة ، وهو لايعبأ بها ، وأكد لى أحد من حضروا تلك المواقف أن موسيقاه الخاصة لم تنقطع عن العزف فى أوقاتها يوماً واحداً ، وأن قنبلة سقطت عشية يوم بالقرب من العازفين ، فانفرط عقدهم وجلين ، فأمر الشريف بأن يرجعوا إلى عملهم ، ولو ماتوا كلهم ، فعادوا وأتموا ما بدأوا به تحت خطر القنابل !

وعلمت من ثقة كان بين يديه يومئذ أن تساقط النيران لما اشتد على غرفته جعل يكرر هذه الكلمة « قرّ يابيت ، إنها ميدى ما هى ميدك ! » ولهذه الكلمة حادثة معروفة اليوم عند قبائل العرب ، أول من قالها رجل منهم أحاط به جمع من أعدائه وهو فى خيمته لايبالى ، ورأى اضطراب عُمدان الخيمة من تساقط الرصاص فقالها . فذهبت مثلا . ومعناها : أسكن أيها البيت ، فإن ما ترمى به لم يكن إلا لاميد أنا وأضطرب ، لا لتميد وتضطرب أنت !

ولم يكن قادة الجند التركى جاهلين بأوقات وجود الشريف فى القصر ، فكانوا ضحى كل يوم يطلقون على غرفته قنبلة خاصة ، ثم يوجهون قذائفهم إلى بقية القصر والبلدة . وأخبرنى ثقة أنه كان إذا تأخرت القنبلة عن ميعادها وهو جالس فى « المخلوان » يتساءل أمام من حوله : عجباً ما لهؤلاء القوم قد أبطأوا اليوم ؟ ألا يزالون نائمين ! !

كان الشريف قد هيأ نخبة من أمهر الرماة بعث بهم إلى ذروة جبل « أبي قبيس » يرمون من فى القلعة ، لأن قمة هذا الجبل تشرف عليها . وأقبلت نجدة من أطراف « جدة » انضمت إلى من فى مكة من جند الشريف الذى كان يقوده الأمير زيد [1] واشتد الحصار على قلعة « أجياد » حتى اخترقتها قنبلة من أجد جوانبها ، فدخل بعض الإعراب من ذلك الثقب ، وتبعهم آخرون . والمقيمون بها لايشعرون . وما هى إلا دقائق معدودات حتى علا الصوت ، وأعمل الوالجون من الثقب السيف فى الآمنين المطمئنين ، فاستسلم هؤلاء . واستولت العرب على القلعة وما فيها يوم الثلاثاء رابع رمضان سنة ١٣٣٤ وفت ذلك فى عضد المحصورين فى ثكنة جرول فسلمت حاميتها يوم الأحد تاسع رمضان . واحتاز الجيش العربى مبانى الحكومة كلها .

وكان قيام مكة وجدة فى يوم واحد (٩ شعبان) ومهاجمة الطائف فى اليوم الثانى ، والمدينة فى اليوم الثالث . ولم يكن عند الشريف مدفع ولارشاش ، بل كان سلاح العرب فى بدء الثورة البندق (الرصاص) والسلاح الأبيض .

وبعد الاستيلاء على قلعة أجياد ، بعث الشريف ابنه زيداً إلى جدة ، فأعان القبائل على التشديد فى حصارها ، فسلمت حاميتها .

وظل عبد الله محاصراً الطائف إلى أن استسلمت حاميتها على ما قدمنا يوم ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ .

وأما المدينة المنورة فكان القبر النبوى الشريف مانعاً للعرب عن إطلاق القنابل عليها ، فلم يزيدوا على أن حصروا قوى الترك بين جدرانها ، إلى أن انتهت مؤنهم ، وخمدت نار الحرب العامة ، فاستسلموا ودخلها على .

وتقدم فيصل فى حملته إلى الشمال ، ثم لحق به زيد ، فدخلا دمشق وانتهيا إلى حلب .

---

(١) وكان الاميران على وفيصل يومئذ محاصرين المدينة المنورة . وعبد الله محاصراً الطائف .

وفى سابع ذى الحجة ١٣٣٤ هـ (٥ أكتوبر ١٩١٦ م) تألفت أول وزارة عربية بمكة ، وسمى أعضاؤها الوكلاء ، ورئيسهم الأمير على ينوب عنه قاضى القضاة الشيخ عبد الله سراج . وتألف فى اليوم نفسه مجلس للشيوخ ، رئيسه الشيخ محمد صالح الشيبى .

وفى ثانى المحرم سنة ١٣٣٥ هـ كانت بيعة الشريف « حسين » بالملك فى حفلة عظيمة أتت على وصفها جريدة « القبلة » فى العدد ٢٢ من سنتها الأولى . وحمل إليه نائب رئيس الوكلاء — الشيخ عبد الله سراج — كتاب البيعة ، وهو طويل نشرته القبلة ، جاء فى ختامه مانصه بالحرف :

« . . وإننا نبايع جلالة سيدنا ومولانا الحسين بن على ، ملكاً لنا نحن العرب يعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونقسم له على ذلك يمين الطاعة والإخلاص والانقياد فى السر والعلانية . كما أننا نعتبره مرجعاً دينياً لنا ، أجمعنا عليه ريثما يقر قرار العالم الإسلامى على رأى يجمعون عليه فى شأن الخلافة الإسلامية . .

« نبايعك على هذا ياصاحب الجلالة ، ونقسم لك بالله العظيم على طاعتك ، والرضى بك والانقياد إليك ، فى السر والعلانية . ولك علينا فى ذلك عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين واجتهدت فى ما فيه صلاح العرب والمسلمين « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

وتلى هذا الكتاب على مسمع منه ومن أعيان مكة ووجوهها وغيرهم . وفاه جلالته بخطاب وجيز قال فيه :

« إنى أقسم لكم بالله العظيم أننى لم أرد هذا الأمر الذى تكلفوننى به ولم يخط على بالي عندما قمت معكم بنهضتنا السعيدة ، ولكننى رأيت كما رأيتم أننا أمام خطر عظيم وخطب جسيم ربما قضى علينا القضاء المبرم إذا لم نبادر إلى إزالته .

« إنكم حملتمونى أمراً أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد . وطالما قلت إنى واحد من جمهور الأمة ، أبرم ما يبرمون من حق ، وأرفض ما يرفضون من باطل ، وأمد يدى لكل من يتفقون على إسناد أمرهم إليه على كتاب الله وسنة رسوله . وإذا كان لامناص مما اردتموه فإنى أشترط عليكم أن تعينونى على أنفسكم ، وتساعدونى بآرائكم وأعمالكم فى كل ما يحقق آمالنا وآمالكم من الخدمة العامة للعرب والمسلمين . . الخ » .

تليت فى اليوم الثانى صورة كتاب البيعة فى المسجد الحرام . ثم تواردت الكتب بمعناها من الطائف وجدة والمدينة المنورة وجيش الشمال ، وأخيراً من العراق وسورية . ولا تزال هذه الكتب (أو المضابط) محفوظة عنده حتى اليوم وفيها من التواقيع ما لايحصى عدده .

سكنت نأمة الحرب العظمى بانعقاد الهدنة بين الحلفاء وخصومهم يوم ٥ صفر سنة ١٣٣٧ — ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ وانقلبت كل أمة تعاود النظر فى ما بين أيديها من وثائق علها تجديها النفع فى مثل ذلك اليوم . وتشمر كل سياسى قوم يحاج ويناضل ويدافع ويقاوم . وتناسى أكثر الحلفاء ما كانوا يخطبون به ود الأمم ويستميلون فيه الممالك إلى نصرتهم ، من الدعوة إلى تحرير الشعوب الخاضعة لغيرها والنداء بإنقاذ الأمم الصغيرة من براثن الأمم الكبيرة . فإذا الدكتور ولسن صاحب جمعية الأمم يعض الأصابع من الندم ! ولويد جورج الوزير البريطانى تشغله مشاكل العمال ، وثورات الأرلنديين ، وصيحات الهنودو ، نهضة المصريين عن كل ما أبرم وعقد باسم مليكه وحكومته ، وكليمنصو الوزير الفرنسوى يهجر معالجة سياسة قومه مفضلا عليها صيد النمور فى غابات الهند ، والملك عما نويل يضطرب لخفوق العلم الأحمر فى بلاده وأمام عينيه ، وفينزيلوس الزعيم اليونانى يضيع بين شعب أثينة وأسرة قسطنطين ؟ انفجرت براكين العالم بعد خمود بركان الحرب . واستبدل قادة الأمم بثياب العفة والحنان والإخلاص ، أبراد الشره والقسوة والمكر . فإذا الوجوه غير الوجوه . والقلوب غير القلوب ، والإنسان اليوم غير الإنسان بالأمس . .

وهناك على شاطىء البحر الأحمر ، فى تلك البادية ، وبين هاتيك الروابى والتلاع ، حكومة كانت وليدة الحرب العامة ، نشأت تحتاطها المخاوف ، وترعرعت تكتنفها المخاطر ، يرأسها ملك تاجه عمامته وعرشه مهابته ، ليس له ما لسواه من ذوى العروش والتيجان إلا طاعة أهل قطره له ، وانقيادهم بين يديه وخوفهم غضبه وتوقيهم سخطه ، ذلك هو الملك حسين ابن على ، من وقف إلى جانب الحلفاء ثلاث سنين ، يحارب من حاربوا ، ويوالى من والوا ، ينظر إليهم اليوم من وراء حجاب فاذاهم عنه معرضون ؟

عاهدوه على سورية ، واستعمروها . وعلى العراق ، واحتلوها . وعلى فلسطين وهوّدوها . وعلى الجزيرة ، وقسموها . وعلى الحجاز ، وحاولوها . . فأعجب — إن كنت تعجب — لموقفه الأخير أمام حلفائه ، فى الماضى . وأعداء الشعوب الناهضة ، فى الحاضر . والمضطرين إلى مجاراة تيار البشر ، فى المستقبل ؟

يقول الأمير عبد الله[١] : « وما مثل الذين يعترضون عليكم فى موالاة حلفائكم إلا كمثل من يحاول الاعتراض على الله فى تدبير شئونه التى يبديها ولا يبتديها » ولعله بعد أن رأى — بعينيه — ما صار حال العالم إليه . يتراجع قليلا بل يتقهقر طويلا ، عن مفاجأة الأسماع بمثل تلك الجرأة على الحق والخلق . . ؟

لم يقف الملك حسين مكتوف اليدين أمام عبث الغرب بهذه البقعة الصغيرة من الشرق ، بل احتج ، وحاول إسماع الصم صوته ، فأنكروا العهود وجحدوا المواثيق ، شأنهم فى كل موقف مع كل أمة تمكنوا من تمزيق شملها وتفريق كلمتها وفصم عراها .

هم يعملون أو سيعملون على إرضائه أو إسكاته ، فيؤولون مالا مناص لهم من الاعتراف به من عهودهم ، ويتقدمون إليه يحملون تيجاناً خيالية

(١) من « توديع وايضاح » بعث به إلى جريدة القبلة من وادى الليمون ونشرته فى العدد ٢٨ من السنة الاولى — ٢٤ المحرم سنة ١٣٣٥ . (المؤلف)

وإمارات وهمية لبعض بنيه ، كأن مصلحة العرب هى فى أن ينصّب بنوه ملوكاً وأمراء ، وكأن العرب وفى جملتهم الملك حسين وأبناؤه ، ما ثاروا ولا قاتلوا إلا لتتحول ألقاب أفراد فيهم ، من شريف إلى أمير ، أو من فلان إلى جلالة فلان ؟

بهذا الزخرف البالى ، وبهذه الزيوف المموهة ، يعمل الحلفاء على إقناع أليفهم فى الموطن الخشن ، الملك حسين بن على ، وإيهامه بأنهم ما برحوا له ذاكرين ، ولعهودهم حافظين . وما هم بالذاكرين الواعين ، ولاالحافظين المراعين .

أنجب الملك حسين أربعة بنين ، عرفتهم جميعاً ، وخالطتهم ، وكانت لى مع بعضهم مواقف ، وأنا ذاكرهم على ترتيب أسنانهم تبعاً لقاعدتهم فى تقدم الأكبر فالذى يليه ، لا يراعون فى عملهم هذا ما يراه غيرهم من الاعتبارات فقد ترى الصغير ملكاً والأكبر منه أميراً أو وزيراً ، وحينما يتقابلان لايمنع الصغير تاجه من تقبيل يد الأكبر وإن كان لايوازيه فى شأنه ومكانته .

١ — الأمير على : أكبر أنجال الملك حسين . وولى عهد المملكة العربية الهاشمية فى الحجاز . يعتمد عليه الملك فى الشئون الداخلية المتعلقة بالقبائل والمغازى فى البادية . وكانت إليه قيادة الجيش العربى ، أيام الثورة ، فى جهات المدينة المنورة . وهو الآن رئيس مجلس الوكلاء فى مكة وأمير المدينة . يتردد بين مكة والمدينة والطائف . فى طبعه سكون وإناة ، وفى أخلاقه لين وسهولة ، وفى نفسه أباء وشرف . قليل الكلام ، حسن الإصغاء لجليسه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم . كثير التفكير ، أمه وأم فيصل وعبد الله واحدة .

٢ — الأمير عبد الله : ثانى أنجال الملك حسين : افتتح الطائف فى بدء الثورة وولاه أبوه وكالة الخارجية ثم انتزعها منه . وكان قائد جيش الحجاز فى وقعة « تربة » الشهيرة بين الحجازيين والنجديين ، نجا فيها بعدد

قليل من الضباط ، وأضاع كل ماكان معه من مال ورجال . ولما نودى بفيصل ملكاً على سورية فى دمشق يوم الإثنين ٩ مارس (آذار) ١٩٢٠ ، ١٩ جمادى الأولى ١٣٣٨ نادى بعض شبان العراق بعبد الله ملكاً على العراق ، وهو بمكة . وسيره أبوه منها إلى معان فشرق الأردن كما قدمنا[1] . وهو مطاع اللسان ، له شيء من الاطلاع على الأدبين العربى والتركى ، مولع بالمحاجة والمناظرة ، مدل بنفسه ، فخور ، ميال إلى الراحة ، مغرم بالشطرنج ، ملول لما هو من جد الأمور ، كثير المزاح مع خاصته ، متطرف فى ذلك ، لايحبس درهماً ، ولا يرمى إلى هدف .

٢٠ ــ مَا قَالَ قَوْلاً وَدَرَى قَلْبُهُ لِسَانُهُ يَجْرِى بِهَ وَالْفَمُ

٣ ــ الأمير فيصل : ثالث أنجال الملك حسين . كان نائباً عن مدينة « جدة » فى مجلس النواب العثمانى قبل الثورة . ثم كانت له فى تهيئة أسبابها يد . وافتتح سورية إلى أقصى حلب فتولى إمارتها ، وناب عن أبيه فى مجلس الأمم بباريس فتكررت رحلاته إلى أوروبا ونودى به فى دمشق ملكاً على سورية يوم ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ ــ ٩ (آذار) سنة ١٩٢٠ وكانت « ليلة ميسلون » آخر أيام حكمه فى سورية وقد سبقت لنا كلمة عنها ، ثم برح ديار الشام إلى إيطاليا ومنها إلى لندن حيث بوحث فى ملك العراق ، وكان هذا آخر ما نقلته أسلاك البرق إلى مكة ونحن فى شعابها .

وفى الأمير (أو الملك) فيصل ، دهاء وشجاعة ، يتردد فى بعض الأمور فيشين حزمه ، عصبى المزاج ، له قوة على الخطابة واعتلاء منابرها ، وفى بيانه ولغته ضعف ، يقول فيجمجم ولا يصارح إلا حين تدركه الحدة ، بعيد مطامح النفس ، كثير السهر والتفكير ، للجد استيلاء عليه فلا يكاد يهزل طاعيته فى أن تكون له مرونة السياسى تحرج مواقفه وتبتعد فيه عن مراميه ، لقنته حادثة الشام درساً فى حياته السياسية ما إخاله ينساه .

(١) قال المؤلف : وقد اتيت فى كتاب لى وضعته بعد هذا سميته «عامان فى عمان» على شيء من سيرة هذا الامير وأخلاقه ، عساى أن أطبعه فى فرصة ثانية قلت : وقد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب بمصر فى نحو ١٢٠ صفحة .

٤ — الأمير زيد : أصغر أنجال الملك حسين . قاد الثائرين بمكة يوم قيام أبيه ، ثم لحق بأخيه فيصل ، فدخل معه الشام ، وناب عنه فى إمارتها حين برحها إلى أوروبا ، ولما احتل الافرنسيون دمشق غادرها مع أخيه إلى حيفا ومنها إلى إيطاليا ، ونشرت الصحف إزماع أخيه أن يدخله جامعة اكسفورد ، فاضطرب جلالة أبيهما لهذا النبأ وأبرق إلى عاصمة بلاد الانكليز يدعوه اليه ، فلم تمض أيام حتى كان بمكة . وهو شاب فى مقتبل عمره ، يصفه من شهده فى مواقع القتال بالبطولة ، فيه ذكاء وسرعة انتباه غريبان ، للصبا فى نفسه أثر يضيع بين نشاط الفتوة ورجحان العقل ، وفيه ميل للدرس والتعلم ، بل شغف وولوع فيهما ، صريح مع من يأمن ، بعيد عن المواربة ، نقاد ، يسمى الحق حقاً والباطل باطلا ، يهزل ويجد ، فى طباعه وأخلاقه نقاء وصفاء ، يكره التدجيل والتدليس ، ويسخر من التعمل والتكلف .

هؤلاء بنو صاحب الجلالة . أجنحته ومعاقد آماله ، وثقاته ومفاتيح أقفاله . أطلقهم فى الجزيرة ، فكان — أو سيكون — لكل منهم نصيبه من جهاده ، وسهمه من سعيه . ولهم فى إقناعه واستمالته واسترضائه عن أعمالهم طرائق ، وربما شذ أحدهم فخرج عن رأيه فى أمر أو حادث ثم لايلبث أن يرجع صاغراً ينتحل الأعذار ويلتمس الأعذار . وهو شديد معهم ، متصلب قاس ، صعب . قال الأمير عبد الله : لقد ربيت فى حجر والدى ، وما أعلمه والله قبلنى يوماً ، لا طفلا ولا ناشئاً ، ولاقادماً ولا مودعاً . ؟

الملك حسين أشد الناس محافظة على خطة ، ومثابرة على عادة ، واسترسالا فى سبيل . حدثنى أحد من عرفت بالصدق فى مكة ، فقال : عرفنا سيدنا أميراً وملكاً فإذا هو واحد فى إمارته وملكه ، أمضى ثمانى سنين فى دار الإمارة وسنيناً فى قصر الحكم ، لم يتخلف عن الجلوس للناس إلايومين اثنين منها ، لمرض شديد أصابه ، وهو لاينام أكثر من ست ساعات ، بل قد تنقص ساعات نومه عن هذا المقدار .

ينهض قبل الفجر فيتوضأ ثم يصلى ، وربما نزل إلى الكعبة فطاف حولها

والناس نيام . وتطلع الشمس وهو فى قصره (بيت سيدنا) فيتناول طعام الفطور وتمر خيله الخاصة ، فتعرض أمامه وهو يفطر ، ولقد قال يوماً : إن منظر هذه الخيل ليعجبنى ويروقنى حتى لأكاد عند رؤيتها أن أنسى الدنيا وما فيها ؟

وينزل بعد ذلك من قصره فيركب بغلة أو جواداً ويأتى « دار الحكم » والمسافة بين الدارين قريبة جداً . فيستريح قليلا فى المخلوان ، ثم ينهض ، إلى المجلس العام فيتصدره ويأذن لمن شاء بالدخول ، فيتوافد الناس وأكثرهم بل كلهم من البدو ، لأن الحضر قل أن يراجعوه فى شئونهم لمعرفتهم بأساليب مراجعة الحكومة فهم يراجعون نائب رئيس الوكلاء الذى هو قاضى القضاة الشيخ عبد الله سراج ، أو يراجعون رئيس البلدية أو مدير الشرطة وذلك كله فى « سراى الحكومة » على مدخل حارة أجياد . وقد كانت هذه السراى مقر الولاة فى أيام الترك .

حضرت يوماً مجلس الملك العام وعنده بدوى أكمل حديثه وخرج . فأدخل الحاجب بدوياً آخر تقدم من الملك فأهوى على يده ثم على ركبته تقبيلا وتقهقر فجلس فى منتصف المكان على الأرض رافعاً إحدى ركبتيه وطاوياً الثانية تحته وفى يمناه خيزرانة يشير بها وهو يخاطب الملك ، فقص قصته وخلاصتها أنه بينما كان يرعى إبله وراء شعب من الشعاب إذ خرج عليه ثلاثة رجال أرادوا سلبه الإبل فامتنع فأطلقوا عليه النار من بندقياتهم فأجابهم بمثلها وتحصن وتحصنوا وانتهت الحادثة باستيلائهم على جملين والنجاة بهما . وكان الملك مصغياً إليه كل الأصغاء ، وهو طوراً يخاطبه بسعادتك ، وتارة بسيدنا ، وحيناً بضمير المخاطب المفرد ، والخيزرانة فى يده يقلبها ويعبث بها ، ولما انتهى صفق الملك بيديه فجاءه سعد (الحاجب) فأمره بأن يذهب به إلى قائم مقام القصر (وهو أحد الأشراف) وأن يبلغه وجوب ارسال من يقص أثر المعتدين على الشاكى ثم يعلمه النتيجة . فانصرف البدوى بعد أن قبل يد الملك وركبته مرتين مرتين .

وهكذا فإن جلالة الملك يمكث فى هذا المجلس إلى ما بعد الظهر ، ثم يصلى وينصرف إلى المخلوان ، فيتمدد ويرتاح إلى العصر ، ثم يأخذ بقبول فريق من الناس ، ممن يدعوهم أو يرغب فى مذاكرتهم ببعض الشئون . وإن كان ذلك اليوم موعد وصول البريد المصرى خلا جلالته بنفسه يقلب صفحات ما يحمله إليه من صحف ورسائل فشغله ذلك إلى قبيل الغروب . ويصلى المغرب بعد ذلك خلف إمامه ، فى المصلى الذى كان قبل الظهر مكان جلوسه للنظر فى المظالم واستماع الشكايات . ويعود بعد الصلاة إلى المخلوان فيأتيه طاهيه الخاص بصينية فيها شيء من مرق اللحم أو الشوربا وأنواع يسيرة من الطعام يأكل منها ما تميل إليه نفسه . ونحو الساعة الثانية بعد الغروب يدعو إليه من فى غرفة الانتظار من الزوار ، فيجلسون عنده نحو ساعتين ثم يخرجون ، فيصلى العشاء منفرداً أو خلف الإمام ، ويسرى إلى بيته الخاص حيث ينام .

ذلك ديدنه وشأنه كل يوم . وله فى كل حركة من حركات يومه طريقة خاصة . فهو يجيء فى الصباح من بيته إلى قصر الحكم راكباً يحف به بضعة من العبيد والخدم ، ويعود فى الليل ماشياً وبين يديه عبدان من عبيده والمضايفى (الحاجب) سعد .

وله فى إلقاء يده لمقبلها حركات يدهش لها من لا يعرف أسرارها ومعانيها . ولا أدرى إن كنت أستطيع وصفها أو يخوننى البيان ، فمن هذه الحركات :

١ — أن يلقى يمناه على العادة المألوفة المعروفة فيقبلها المقبّل ويجلس أو يمضى .

٢ — أن يبسط يده ثم لا يمكّن مريد تقبيلها منها بل لايكاد يلمسها ذلك حتى ينتزعها منه انتزاعاً .

٣ — أن يبسط يده ولا يجعل لمقبلها سبيلا إلى غير أصابعها فيقبل الأصابع

٤ — أن يلقى يده للمقبل وبينما ذلك آخذ بها فى يده يقبض جلالته بكفه على يد المقبل .

٥ ــ أن يمد يده جاعلا باطن كفه إلى وجه المقبل فيقبل الباطن .

٦ ــ أن يعطى المقبل باطن كفه وحينما يشرع هذا بالتقبيل يقبض جلالته على وجهه بيده .

٧ ــ أن يعطى المقبل باطن كفه ثم يقبض على وجهه ويطبع على لحيته قبلة .

٨ ــ أن يعطى المقبل باطنى كفيه فيأخذ هذا بالتقبيل بينما جلالته قابض بيديه على وجهه .

٩ ــ أن يزيد على الطريقة السابقة قبلة من لحية مقبل يده .

١٠ــ أن يجعل يده على ركبته ، فيقبلهما القادم بادئاً باليد ثم بالركبة .

وهناك فروع ثانية منشؤها هذه الأصول . وقد يوهم جلالته من يعطيه يده على الطريقة الثانية أو الثالثة أنه إنما يمنعه تقبيلها احتراماً له أو إكباراً والحقيقة أن الأولى دليل الكراهية والمقت ، والثانية دليل العتب واللوم ، كما أن الثالثة والرابعة والخامسة من أدلة الرضى ، ويزيد الرضى فى السادسة ثم فى السابعة والثامنة ، وما بعد التاسعة زيادة لمستزيد . أمّا العاشرة فللبدو ولمن يؤذن له بالدخول من العامة .

ورأيت فى الأشراف من يتناول يمين صاحب الجلالة فيقبلها ثم يتناول اليسرى فيقبلها ثم يرتفع بفمه إلى رأس الملك فيقبل طرف عمامته ثم ينحدر إلى ركبته فيقبلها ويتراجع فيجلس حيث يؤمر .

وليس للداخل أن يختار الكرسى الذى يجلس عليه ، فإن الملك يكفيه موئنة ذلك ، إذ هو يشير إشارة خفية ، بيده أو بعينيه ، إلى المكان اللائق به ، قريباً منه أو بعيداً عنه ، على الكرسى أو على المقعد ، فيجلس .

وتقديم القهوة للزائرين عادة جارية ، ولكن جلالته قد يطلب الشاهى[1] فى بعض الليالى فتدور الأكواب على الجلوس جميعاً . ولم أر أحداً من

(١) قال المؤلف : أهل الحجاز جميعا يقولون شاهى كأنهم ينسبونه إلى الشاه ، وارى هذه التسمية أقرب إلى الصحة من كلمة الشاى التى لا معنى لها .

خاصة الملك وأضيافه يطلب الماء فى حضرته ، بل ربما خرج أحدهم متسللا فشرب وعاد .

وجلالته صاحب الحديث فى مجلسه ، فهو يفتتح الكلام أدباً أو سياسة أو تاريخاً أو فكاهة أو وصفاً لحادثة شهدها ، أو رحلة رحلها ، أو عادة غريبه رآها ، وكثيراً ماكان يحدثنا بما اتفق له الاطلاع عليه من أحوال اليمن ونجد والجزيرة . وقد يروقه كتاب فينتدب أحد الجالسين لقراءته أو قراءة فصل منه . ويدور على لسانه كثير من آى القرآن الحكيم ، فربما طلب تفسير آية فينهض أحدنا إلى بعض كتب التفسير مما هو فى خزانة غرفته فيراجعه ويحل الإشكال ، كذلك يفعل فى السيرة النبوية وبعض حوادث التاريخ الإسلامى المشهورة . وفى خزانته هذه نخبة صالحة من كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب .

ولا يستحب لأحد الجالسين عنده أن يقف بغتة حين يريد الانصراف ، بل السنة المتبعة فى حضرته أن يستمر زواره ، يحادثهم ويحادثونه ، إلى أن يرغب بانصرافهم ، فيصمت صمتاً غير معتاد ، فيدرك القدماء فى مجالسته رغبته بفض المجلس فيغمز بعضهم بعضاً ، أو يتطوع أحدهم فيسأل جلالته الإذن بالانصراف ، فيجيبه بكلمة « مرحباً » فينهض الجميع ، يقبلون يده ، الواحد بعد الآخر ، ويخرجون .

وهو إذا كره إنساناً أو غضب على انسان لم يسمح بذكره فى مجلسه بل إنه ليسكت المتعرض للكلام عليه قائلا : لا ، لا ، لا يا ابنى كفى كفى ؟ ويشير بيده كإنما يدفع شيئاً عن وجهه . ويفعل مثل ذلك حين يريد إسكات متكلم فى غير ما يروقه .

وهو لايمل العمل ولا يسأم الاشتغال فى شئونه وشئون بلاده ، فبابه مفتوح فى كل وقت لكاتبه الخاص السيد أحمد السقاف ، يأتيه بالرقاع الصغيرة مفتولةمحكمة الفتل ، فيأخذها منه وينشرها رويداً رويداً ، ممعناً فى سطورها وكلما قرأ سطراً طواه إلى أن يأتى على آخرها ، فيأخذ القلم —

والدواة قريبة منه — فيوقع ما يتهيأ له ، أو يصلح ما يراه فى إنشائها إن كانت « مسودة » ويلقيها إلى الكاتب فيذهب ، وقد يعود بها بعد تبييضها فيمضيها جلالته . ويرى بعضهم أن التقارير ترفع إليه على هذه الطريقة ، فربما كان فى بعض الرقاع ما هو من ذلك النوع .

وجلالته لايرى للوزارات سلطة ، بل أكثر ما يكتبه يوجهه إلى الملوك مباشرة . ولا ينحصر اهتمامه فى كبير الأمور ، بل هو يهتم لصغارها ككبارها ، ولقد حدث أن جاءنى كتاب من صديق لى فى دمشق يخبرنى فيه أن الافرنسيين أغلقوا مدرسة الفيحاء الحسينية ، وهى مدرسة أهلية للبنات ، ويعلل صديقى اغلاقها فى أن سببه تسميتها بالحسينية . فقرأت الكتاب على جلالته ، فغضب له وأخذ القلم فكتب برقية إلى الملك جورج ولقبه بصاحب الحشمة والجلالة البريطانية ، لافتاً نظره إلى عمل الافرنسيس فى سورية وإغلاقهم مدرسة الفيحاء الحسينية لانتسابها إليه . وأمر بترجمتها فترجمت إلى الافرنسية ، فوضعها فى ظرف وختمه بيده وإمضائه وبعث به إلى مدير البرق والبريد . ولا أعلم ما كان الجواب .

ويضاف إلى هذا النوع إلقاؤه التبعة فى ما يكتبه عنه أحد الأفراد فى إحدى البلاد ، على الملك المنسوبة إليه تلك البلدة . فهو يعتب على ملك مصر إذا نشرت صحيفة مصرية طعناً فى الحجاز ، ويعتب على ملك الانكليز إذا تعرضت صحيفة انكليزية لانتقاد أمر فى الحجاز . يقيس ذلك كله على ما له وحده من النفوذ المطلق فى بلاده ورعيته . ويرى للملوك فى ممالكهم ما يراه لنفسه من السيطرة على دقيق الأمور وجليلها ، ويعجب من ملوك الغرب كيف يمكنون العمال فى بلادهم من الاعتصام أو الاضراب ، بل يخيل إليه أن ذلك ضعف كامن فى نفوس القابضين على زمام الأمور هنالك ، وربما عده جهلا منهم فى السياسة والإدارة ، وعمىً عن سبيل الأخذ بالحزم والإرهاب والشدة . .

وله هوى فى تقليد الخلفاء ، فتراه يتنكر فى بعض الليالى ويطوف أزقة مكة وأسواقها ، يتسمع ما يتحدث به أهلها ويبصر ما هم صانعون ، وتراه

لا يبالى بالأبهة والعظمة والمظاهر ، بل يؤثر السكون ويظهر الزهادة ويلبس لباس النساك . وفى مكة من حدثنى أن عدد من كان يخدمه من العبيد وغيرهم فى عهد إمارته كاة يفوق ضعفى عدد من يخدمونه اليوم . وقد عرض ذكر ذلك فى أحد مجالسه فأشار إلى ما معناه : كنا نطمح إلى ما هو بعد الإمارة ، وكنا نزاحم الولاة ، وأما الآن فلا هذا ولا ذاك .

وتتفق له حوادث ما أعلم فى التاريخ شاهداً عليها ، مثال ذلك: وقفنا عشية يوم لصلاة المغرب معه ، وتقدم إمامه ، فأقام الصلاة وهم بالتكبير ، فإذا فتى قد أقبل ملقياً نفسه على قدمى الملك يقبلهما ، فنهاه عن عمله وأنهضه . وصلينا جميعاً وخرجنا مجلسنا فى غرفة الانتظار والفتى معنا يحمل سبحة طويلة فى يده ، ورأيت فى نفسى قوة تدفعنى إلى التحديق به بعد أن سمعت صوته، فجعلت أتساءل فى نفسى : من يكون هذا الشاب، المعتدل القامة، الأبيض الوجه ، الأشقر اللحية ، المتظاهر بالعبادة ، المكثر من التسبيح ، المتشبه فى حركاته وسكناته ؟ ؟ كأنى أعرفه . ولكن أين رأيته ؟ خانتنى الذاكرة . فسألته ممن القادم؟ قال : من أهل الجزائر . وأعقبها بقوله : الله الله ؟ فعجبت لأمره ، وعدت فسألته : ومن أين الآن؟ قال : من القسطنطينية . . وعاد إلى التسبيح . فقلت : أما زرت سورية ؟ قال : أقمت مدة فى بيروت ، سبحان الله سبحان الله . . فقلت وأين كنت فى بيروت؟ قال : فى المدرسة العثمانية ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . وهنا صحوت فقلت : اسمك يا أخى ؟ قال أبو الغيث . قلت : البلغيسى ؟ فقال : نعم . . ونظر إلى بملكه العجب . فقلت : اطمئن ولاتعجب ، أنا فلان . فقال لم أعرفك . وهو يعرفنى حق المعرفة . فقلت : لابأس ؟ ودعينا للطعام فأكلنا ، ثم جاء إذن الملك بالدخول عليه ، فدخلنا . ومضت خمسة أيام وصاحبنا يصلى المغرب ويتعشى ويسمر معنا وينصرف بعدنا ولا نعلم من أمره شيئاً . وقد سألته عن مكان مبيته وأين يقضى نهاره لأزوره أو يزورنى فأخبرنى أنه فى القصر نفسه ، ولم يزد . . وفى الليلة السادسة جاء فابتدأ الكلام على غير عادته وحدثنا أن جلالة الملك قد أمر بقطع جواز له بالسفر إلى بلاده(الجزائر)

وجعل يكرر الدعاء للملك مبتهجاً مغتبطاً وسافر قبل أن يودعنا أو نودعه . وانكشف الأمر بعد سفره فعرفت ما أدهشنى وراعنى . . ذلك أن الملك تناول كتاباً من الآستانة جاءه فى الباخرة التى حملت صاحبنا وفيه أن البلغيسى موفد إلى مكة لغاية غير صالحة . فطلبه الملك فقبضت عليه شرطة مكة وهو متعلق بأستار الكعبة ، وزج فى القبو . . فكان يمكث فيه ليله ونهاره مقيداً مغلول اليدين والرجلين ، ويطلق عشية كل يوم فيصلى مع الملك ويتناول الطعام مع خاصته ويسهر بعض الشطر الأول من الليل فى مخلوانه ، ثم ينزل به الموكل فى حراسته إلى قبر الأحياء وقرارة الشقاء . . إلى أن مرت بجدة باخرة فأمر الملك بإخراجه من أرض الحجاز فأخرج .

ليس فى حبس المشتبه به أو المتهم عجب ، ولكن العجب كله فى ما كان عليه هذا السجين من التقلب كل يوم بين النعيم والجحيم ، بين الأكرام والإيلام ، بين الحياة والموت ، بين الجنة والنار . . من مخلوان الملك إلى سجنه ، ومن ضيافته إلى دار نقمته ؟ . . فهذا مالم أدرك سره ، ولم يفتح على بمغزاه ، وعلمه عند الله ؟

أما ما يعتمد عليه الملك حسين فى الحجاز فقوتان . إحداهما « القوة النظامية » والثانية « القوة البدوية » وإليك شيئاً من التفصيل عنهما :

القوة النظامية — تلبس لباس الجند المعروف ، وتعيش العيشة العسكرية المعروفة ، أكثرها من أبناء سورية والعراق ، وفيها قليل من اليمانيين والحجازيين . يقودها ضباط فيهم من تلقوا علومهم الحربية فى مدارس الترك العثمانية ، وفيهم من جعلهم نشاطهم وإقدامهم فى ميادين الحرب ، أيام الثورة ، ضباطاً وقادة . ومرجع هؤلاء وكيل الحربية . ولهم شارات عسكرية انفردت ببعضها حكومة الحجاز وهى :

للملازم الثانى	نجمة
للملازم الأول	نجمتان
للزعيم (اليوزباشى)	ثلاث نجوم

لوكيل القائد (قدملى يوزباشي)	تاج
للقائد (بيكباشى)	تاج ونجمة
لقائم المقام	تاج ونجمتان
لامير ألالاى	تاج وثلاث نجوم
لامير اللواء	سيفان ونجمة
للفريق	سيفان ونجمتان
للمشير	سيفان وثلاثة نجوم

ورتبة المشير أرفع الرتب فى الحجاز :

والقوة البدوية ـ تختلف فى أوضاع تدريبها واستخدامها وحياتها عن القوة العسكرية ، ولها فى كل ذلك نظم وأساليب خاصة . فالخدمة العسكرية غير إجبارية فى الحجاز وإنما هى من نوع ما يسمونه « التطوع » وليس على الجندى البدوى أن يبيت فى ثكنة أو يتمرن فى معسكر إلا فى أيام الحرب . وعمله فى السلم أن يشترك مع من تطوع من أبناء عشيرته فى المحافظة على الأمن ضمن حدودهم ، حتى إذا حدث حادث ، فيهم من تعرض لعابر سبيل أو نهب أو سلب ، كانوا هم المسؤولين عنه وعليهم تبعته . وجلالته فى كل عشيرة من عشائر الحجاز جند من هذا النوع يحفظون الأمن فى أيام السلم ويلبون الدعوة فى أيام الحرب . وطريقة انخراطهم فى سلك الجيش أن تكتب أسماؤهم فى السجل بمكة ، ويعطى كل واحد منهم بندقية ، ثم يجرى له مرتب شهرى يقبض فى آخر كل شهر نصفه ويحفظ له الباقى كضمانة على أن لايفر ،ولا يتخلف عن الإجابة حين يدعى ، وليس لهذه القوة ضباط ولارتب عسكرية عالية ولكن الملك يجعل لهم عرفاء ونقباء منهم . وقد رأيت جماعاتهم تفد على مكة فى أوائل الشهور تتقدمها الطبول ، وفيها الفارس والراجل وصاحب الراحلة ، فتوزع عليهم المرتبات ويبيتون ليلة على مقربة من القصر ، ثم ينقلبون على أعقابهم .

وللملك حسين موسيقى خاصة ، كانت للأشراف من أمراء مكة قبله ، يقال إنها فى شكلها الحاضر قديمة العهد ، وسمعت بعضهم ينقل أن أول من كانت له أبو نمى ، وبقيت تعزف لكل من يتولى إمارة البلد الحرام . وهى مؤلفة من خمسة طبول وثمانى نقارات وثلاثة مزامير . يحمل كل طبل رجل ، وكل نقارتين رجل وكل مزمار رجل ، ويصطف هؤلاء الاثنا عشر عازفاً أمام دار الحكم ، كالحلقه ، يلبسون لعملهم هذا لباساً خاصاً أحمر اللون ورديًا ، ويعزفون عصر كل يوم وعشاء كل ليلة ، خلا عصر الخميس وليلة الجمعة . وليس فى أنغامهم جديد بل إن لهم تلحيناً خاصاً هم مستمرون عليه ، محافظون على نبراته ونقراته ، يتوارثونه عازفاً عن عازف ؟

ولهذا التلحين ضجة وجلبة . ومن يألف سماعه لايعدم أن يجد فيه شيئاً لا أسميه طرباً ولكنه أقرب إلى الطرب .

وقد كانت لوالى الحجاز — فى أيام الترك — موسيقى عسكرية كغيرها مما فى مصر والشام ، بقيت بمكة حتى الآن . وهى تضرب يومى الثلاثاء والسبت من كل أسبوع أمام بيت الملك ، قبيل الغروب .

ولأبناء جلالة الملك مع أبيهم أسلوب خاص فى المكاتبة . أما هو فيكتب « ولدنا فلان » ويوقع باسمه « حسين » وأما بنوه فكان خطابهم له قبل تمليكه من نوع البرقيتين الآتية صورتاهما بالحرف الواحد كما رأيتهما :

الأولى : من جدة فى ١٠ تشرين الأول ٣٣٠ (رومية) إلى مكة سيدنا وسيد الجمع .

ج — العمور ما عندنا منهم أحد ، آل سبيع توجهوا . المملوك : فيصل

والثانية : من جدة (بالتاريخ السابق) .

مستعجلدر . سيدنا وسيد الجميع .

ج — الدرب بعناية الله محفوظ وقصدى الليلة أنتقل على قوس عسى الله يطرحهم فى يدينا . المملوك : فيصل

وأما بعد التمليك فهم يخاطبونه بجلالة ولى النعم ، والمنقذ الأعظم ، وصاحب الجلالة الهاشمية ، وما يشبه ذلك .

ولجلالته عناية عظيمة بجريدة القبلة لسان حاله ، والمعبرة عن آرائه وأفكاره . تداول تحريرها وإدارتها بضعة أدباء معروفين ، أولهم السيد محب الدين الخطيب الكاتب القدير ، وثانيهم الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر الكبير ، وثالثهم الشيخ الطيب الساسى من أفاضل المغرب . ولا يزال تحريرها منوطاً بالساسى إلى اليوم . ومديرها الآن الشيخ حسين الصبان من أهل مكة ويرجع إلى أصل مصرى . ولجلالة الملك مقالات كثيرة فيها يعرفها قراؤها بأسلوب كتابته الذى لايتغير ولا يتبدل . وهو كثير الرجوع إلى ما اشتملت عليه مجلداتها من أخبار وأفكار . وله ولوع بمطالعتها والتمثل بأقوالها ، حتى أنه ليذكر غير القليل من مقالاتها . وطال ما كان ينتهى بنا الحديث إلى موضوع فيقول : كتبت القبلة فى هذا ، وكان رأيها كذا ، وإليكم العدد . ثم يأمر بحمل مجلد السنة الأولى أو الثانية أو غيرها إليه ، فيؤتى به ، فلا يصعب عليه الاهتداء إلى ما يطلب ، بسرعة عجيبة .

ولا أرانى فى حاجة لأن أقول إنه هو كل شىء فى الحجاز ، ومرجع كل أمر ، دق أو جل ، وليس ما هنالك من موظفين ومستخدمين ووكلاء وشيوخ ومديرين وعسكريين وحكام ، إلا أشباحاً وشخوصاً لاسلطان لها ولا رأى ولا حول ولا قوة ، بل هو صاحب الرأى والكلمة فى السياسة والإدارة ، وفى البدو والحضر ، وفى الجند والضباط ، وفى المحكمة والسجن وفى المطبعة والجريدة ، وفى البلدية والشرطة ، وفى البرق والبريد ، وفى المكس والجباية ، وفى كل ما لايتسع المجال لذكره .

وأثر فى نفسه اختلاطه بأذكياء البداة وشعرائهم الفطريين فنظم « الحمينى » وهو نوع من شعر البدو ، يأتى فى بحث « أدب البداة » الكلام عليه وشىء من نظم جلالة الملك فيه . وأظن للملك نظماً من المعروف عندنا ، ولكننى لم

أطلع على شيء منه ولم يتهيأ لى أن أجرأ على سؤاله : أو استنشاده ، وإنما أدركت ذلك من وقفة لى معه يوم قدم مكة ابنه الأمير زيد ، فقد نظمت قصيدة وصفت فيها ما تكابده سورية من شقاء الاحتلال ، ووجهت القول فى خلالها إلى جلالة الملك فقلت :

يَا ابْنَ بِنْتِ النَّبِيِّ أَرْهَقَنَا العسْفُ ، فَجَرِّدْ لَهُ الْحُسَامَ الرَّقِيقَا
بِالَّذِى شَادَ « كَبْكَبًا » « وَثَبِيرًا » وَأَحَاطَ الْهُدَاةَ « بَيْتًا » عَتِيقًا
بِالصَّفَا ، بِالْحُجُونُ ، بِالرُّكْنِ ، بِالْكَعْبَةِ (١) ، لَبِّ الصَّرِيخَ وَاقضِ الْحُقُوقَا
إِنَّ فى الشَّامِ أُمَّةً لاَ تُطِيقُ الضَّيْمَ ، تَأْبَى لَهَا الْعُلَى أَن تُطِيقَا !
أَوْسَعُوهَا تَعِلَّةً وَوُعُودًا وَسَقَوْهَا مِنَ الخِدَاعِ رَحِيقَا !
أَنْذَرُونَا بِالْمَوْتِ ، مَا أَعْذَبَ المَوْتَ إِذَا كَانَ لِلْحَيَاةِ طَرِيقًا !
مكَرُوا جُهْدَهُمْ بِنَا ، وَلِيَأْبَى ـ المَكْرُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ أَنْ يَحِيقَا . .
أَوْرِ فى « جِلِّقَ » الكَتِيبَةِ زَنْدًا وَأَقِمْ لِلطِّعَانِ فى « الشَّامِ »سُوقَا!
أَمْطِرِ القَوْمَ بِالصَّواعِقِ حَتَّى لَا تَرى أَعْيُنُ العُدَاةِ البُرُوقَا !
إِن لِلْبَاطِلِ اضْطِرابًا عَلَى الحَقِّ ـ وَعُقْبَاهُ أَنْ يَكُونَ زَهُوقَا . .

فكان يقول بعد أكثر أبياتها : لبيك لبيك ؟ ويهتز ويتألم، حتى أشفق عليه من شهده تلك الساعة . وبعد أن أتممتها تلاوة قال : والله لقد هممت أن أجيبك عليها شعراً لولا ما يحول دون ذلك من الشواغل الكثيرة . . والتفت إلى رئيس تحرير جريدته « القبلة » وهو الشيخ الطيب الساسى فقال : أجبه ياشيخ طيب . أجبه . . وصدرت القبلة بعد يومين وفيها القصيدة والجواب عليها بضعة أبيات من البحر والقافية عنوانه « لبيك لبيك » وهو بلا توقيع .

---

(١) إن الاقسام بهذه المواضع كقوله بالصفا ، بالحجون ، بالكعبة ، أقسام ممنوع شرعا وموصوف بالشرك ولا يصح القسم الا بالله عز وجل أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته مثل : رب الصفاء ورب الحجون ، ورب الكعبه .

جولة فى البادية

يعثر من عاشر البدو ولو قليلا ، وخالطهم ولو أياماً ، على عادات وتقاليد وخواص لايتمالك من أن يستغربها أو يستطرفها . وفى بادية الحجاز كثير من هذا النوع ، كنت أود لوجمعت فيه مجلداً كاملا اتحف به قراء هذه الرحلة ، فإن البداة هم البداة فى كل عصر وجيل . يتطور المجتمع وتتقلب الدول وتكثر المخترعات ويتقدم الإنسان ، وهم أولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر ، تغمزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات ، وتأبى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا القهقرى فإذا سجاياهم سجاياهم ، وأخلاقهم أخلاقهم ، كأنما جبلوا من طينة اسمها « سنة الله » لاتحويل لها ولاتبديل ؟

وهم على انفرادهم ، فى خلالهم وعاداتهم انفراداً أوشكوا أن يكونوا فيه أمة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها . فقد يشاركهم فى بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كان كثير الصلة بهم ، أو قريب العهد فى مساكنتهم ومعاشرتهم من أبناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ، ولا سيما قطان القرى فى الحجاز أخص منهم قروبي الطائف ، فإن جلهم بداة يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خبز روعهم ، لا من لبن ضروعهم ، وفى هؤلاء من يغزو ويغزى كأصحاب المضارب لافرق بين الفريقين ، إلا أن ساكن القرية أحرص على الاشتغال بحرث أرضه واستغلالها ، وساكن بيت الوبر أولع بالمغازى واحتياز الأسلاب بقوة الساعد .

ولقد قيدت أشياء مما رأيت من البدو ، وما سمعت عن البادية ، فى جولتى القصيرة هذه ، لعل بها ما يحسن نقله ، إن لم يكن للتاريخ والتدوين فللفكاهة والمسامرة . ولم أر فائدة فى التبويب والتنسيق فأطلقت الحديث مرسلا ، ومزت كل خبر بعنوان يدل عليه .

(١)
الفراسة

الفراسة فى اللغة صدق النظر ، ومنه حديث « اتقوا فراسة المؤمن » وفى القبائل الكثيرة النزول فى الطائف قبيلة تدعى « فهماً » مشهورة بهذه المزية ، قد يستعان بها فى حل المعضلات ، ومنازلها جنوب تهامة . اخبارها غير قليلة يتناقلها الناس معجبين .

منها أن عنزاً سرقت من فهم وهى صغيرة (يسمونها جفرة ، وهى تسمية صحيحة) ومضى على فقدها نحو سنتين إلى أن كانت فتاة فهمية مارة بالطائف يوماً ، فأبصرت الجفرة وقد أصبحت عنزاً فعرفتها فى حين أنها غير موسومة ـ ولكل قبيلة وسم خاص تعرف به ماشيتها ، إلا أن هذه سرقت صغيرة قبل أن توسم ـ فأقبلت الفهمية على أصحاب الجفرة تخبرهم بأنها رأتها ، فرفعوا القضية إلى حاكم الطائف وهو فى ذلك الحين الشريف زيد بن ناصر ، فاستحضر من هى عنده فقال : إنه اشتراها جفرة وكبرت عنده وولدت . فبحث عن بائعها له فجىء به بعد أيام وهو من سكان البادية ، فأخبره بأنها كانت كسباً من فهم فى إغارة له عليها ، فأمره برد القيمة إلى مشتريها منه ، ودفع العنز إلى صاحبها الفهمى ، وعجب من معرفة الفهمية لها بعد تلك المدة .

(٢)
قص الأثر

قص الاثر فى اللغة تتبعه ومنه الآية الكريمة (فارتدا على آثارهما قصصاً) وفى القبائل القريبة من الطائف اليوم قبيلتان مشهورتان بمعرفة آثار الناس وغيرهم وهما « وقدان » و« الكباكبة » . فأما وقدان فمنازلها على مسيرة ساعة شرقى الطائف إلى الجنوب ، وأما الكباكبة فمنازلهم شداد وأطرافها من سفوح جبل كبكب الذى سبقت لنا كلمة عنه . وهم يسمون قص الاثر

« الجرة » ويرجعون إلى هاتين القبيلتين فى كثير مما يعضل عليهم الاهتداء إليه ، وقد تستحضر الحكومة أحدهم فى السرقات الخفية ، فينظر فى أثر قدم السارق ، فيؤتى بمن يشتبه بهم فيحدق فى آثار أقدامهم فيخرج اللص منهم . وقد أصبح ما يقوله الكباكبة والوقدانيون حجةعند عارفيهم ، لتكرر صدقهم وتعدد إصابتهم ،حتى أنهم فى ما يقال لم يعرف عنهم الخطأ مرة ؟

(٣)

فمن أخبار الوقدانيين أن تاجراً كان فى الطائف يدعى عثمان شافعى أصبح يوم ٩ من شهر الحج فرأى دكانه قد خرقت وأخذ ما فيها من أمتعة ودراهم وحلى ، وكان الحاكم الشريف زيد وهو فى مكة إذ ذاك ، فرفع الرجل قضيته إلى وكيله فأمر بالبحث والتنقيب . أما عثمان صاحب الدكان فعاد من ساعته ، ودعا وقدانياً ، فجاء ورأى شيئاً من أثر القدم فغطاه بوعاء وانصرف إلى السوق يرى أقدام المارة ثم عاد فأطال النظر فى الأثر وغطاه ، والحكومة تبحث فلم تعثر للسارق على خبر ، ولم يهتد الوقدانى إليه ، وحضر الشريف زيد بعد أيام فحدث بالقضية فاهتم لها ، ولم يظفر بجدوى فيئس صاحب المال . وبعد أن مضى على الحادثة نحو شهرين ولم يبق للأثر أثر ، كان الوقدانى ماراً فى سوق الطائف فرأى رجلا ولمح أثر قدميه (جرته) فعرف الجرة ، وتقدم فتثبت منها وأسرع فنادى شرطياً راجياً منه أن يعرفه باسم الرجل فقال : حسن بن عبيد . فأخبر الشريف زيداً بأن السارق فى السوق الآن فدعا به فجلب ، فاستنطقه فكان جوابه أنه يوم تاسع ذى الحجة كان فى عرفة يلبى مع الحجاج ، وأثبت ذلك بشهود ثقات ، فكاد الشريف أن يطلق سراحه لولا أن الوقدانى أصر على أن هذا هو سارق الدكان دون غيره ، فرأى الشريف أن يسجنه ثقة منه بآل وقدان ، وشدد عليه فاعترف السارق وأخرج السرقة من مكان دفنها فيه ، واتضح أن السرقة كانت قبيل الساعة الرابعة عربية من الليل وأنه أسرع من فوره فوصل عرفة صباحاً فاختلط بالحجاج ؟ والمسافة بين عرفة والطائف ١١ ساعة للراكب إذا لم يجلس للراحة فى مكان .

(٤)

ومن أخبار الكباكبة أن رجلا من أهل الهدة ضاف عنده جماعة من هذيل فتظاهر بالنوم معهم حتى وثق من هجوعهم فنهض سارياً كالبرق إلى جبل كبكب فسرق بندقاً (خرطوشاً) وعاد قبيل طلوع الصباح ولم يشعر بغيبته أحد ممن كانوا عنده . وأصبح الكبكبي فشعر بفقد البندق فأسرع إلى قص جرة السارق فتعقبها إلى أن بلغ الهدة والمسافة نحو ٢٥ كيلو متراً بين جبل وسهل ووعر ، فنظر فى الجرة فاهتدى إليها وأوصلته إلى دار الرجل ، فدعا من فى الدار قائلا : هذه جرة من ؟ — فسئل عن غايته ، فحدث بما وقع له ، فخرجوا جميعاً فقبض على السارق بعد أن رآى آثارهم وقال : هذا غريمى ؟ فشهد الضيوف الهذليون بأنه كان نائماً معهم . ورفعت القضية ، فبرأت الرجل شهادة أضيافه . ثم عرفت القصة بعد حين.

وأخبار هذه القبائل الثلاث : فهم ووقدان والكباكبة ، غريبة كثيرة ، كلها على نسق ما تقدم . ولو أن فى رجال البوليس السرى من يعلم علمهم لاكتشف كثيراً من الجرائم دون ما تعب أوونصب ؟ .

(٥)

الختان فى هذيل

من غريب هذيل الحجاز فى ختان أبنائهم ، أنهم يختنون الغلام بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وهم يجتمعون قبل الختان فيلعبون بالسيوف ، ويتسابقون على الأقدام والغلام معهم ، حتى يكون يوم الختان فيتقدم المراد ختنه ويأخذ سكيناً فيشحذها جيداً ، ويكونون صباح ذلك اليوم قد ذبحوا كبشاً على صخرة ، ولوثوا الصخرة بدم الكبش ، فيأتى الغلام والسكين فى يده فيرتقى الصخرة ، ويناول الخاتن السكين وهو يقول : طهر يامطهر وجوّد التطهير ؟

ويعطى الغلام سيفين يأخذهما بيديه فيبدأ الخاتن يكشط له جلد العانة كلها إلى موضع الختن — وهى عملية جراحية شديدة الإيلام والخطر —

ويظل المختون يلعب بالسيفين فى يديه ، وينشد قصيدة من شعرهم يحفظها قبل الختان . ويعدّون أكبر العار على الفتى المختون أن يتألم أو يتململ فينعتونه بأنه « رخمة » أى ذليل ، ومن ظهر عليه التألم أبت الفتيات أن تتزوج به . وقد يحضر الختان أحد أعداء الفتى أو مزاحميه فى زواج فتاة فيحد شفرة له أو رمحاً فيخزه فى رجله كى يتألم ، فينسب ألمه إلى جراحة الختان . فإذا وقع لأحدهم هذا صبر على الوخزة ودعا قومه بكل ثبات جأش لرؤية ما علق بقدمه فيخرجونه إن كان شفرة أو غيرها وهو بين يدى الخاتن كأنه لا يشعر بشىء ، وكثيراً ما تنشأ الفتن بين القبيلتين أو أفراد القبيلة الواحدة من أجل هذا .

(٦)
مواكبهم

إذا أرادت طائفة من إحدى القبائل الكبيرة أن تسير فى موكب لغزو أو لحاجة ، تقدمت الخيالة حاملة الرماح ، متمنطقة بالشلفات ، ثم تتلوها الهجانة (راكبة الهجن وهى نوع من الإبل فى اصطلاح البادية معروف) والهجانة لا تحمل الرماح وإنما تربط على ميامن إبلها بندقياتها ، ويتوسط الجمع علم القبيلة أو القوم ، ويبدأون سيرهم بأن يصيح فيهم صائح بكلمات سمعتها ولم أفهمها ، فيصوتون جميعاً كالهتاف ، ويعلو صوت شاعرهم أو حاديهم قائلا « يالالالا ، لالالى ، يا لالى » فتعيدها الهجانة ، ثم يأخذ بالنشيد على نغمتها ووزنها وهم يرددون ما يجعله كاللازمة من الأنشودة والأغنية ، ويتلوهم ضاربو الدفوف من العبيد أو غيرهم ، ينقرون على دفوفهم بما يوافق الحداء .

(٧)
ركوب الرماحة

يسمون الرمح المريش والمريوش ، لريش يوضع تحت سنانه . ويعاب على حامل الرمح إذا أراد ركوب فرسه أن يعمد إلى صخر أو حجر فيرتقيه ليتمكن من اعتلاء الفرس – وأكثر خيلهم لاركاب لها – وإنما عليه أن يركز

الرمح فى الأرض بخفة ولباقة ، ويتكىء عليه بيمناه أو بيسراه قافزاً إلى ظهر الفرس ، والرمح فى يده . ثم يعتدل فى ركوبه مستعيناً به إذا جمح جواده أو تقلقل هو فوقه . وقل أن تجد فى فرسانهم من لايقفز إلى ظهر الجواد فيلصق به لاركاب له ولامتكأ .

(٨)
صبرهم على الألم

البدو أصبر الناس على الألم . روى لى فى مكة أحد ملازمى الأمير عبد الله أنه خرج يوماً لقتال ، حتى إذا اشتبكت القنا بالقنا ، أصابت رصاصة بدوياً كان معه ، فدخلت من صدغه الأيمن وخرجت من الجانب الأيسر من أنفه وقلعت عينه فى مرورها ، فسقط البدوى عن ذلوله حين شعر بالإصابة فشرد ذلوله منه ، فالتفت إلى ما حوله محدقاً بالعين الثانية اين ذهب الذلول ، حتى رآه ، فعدا خلفه كالظبى إلى أن أدركه فركبه وعاد والدم يقطر من وجهه فقال له الأمير متعجباً : أما منعك الألم من رؤية ذلولك والجرى وراءه ؟فقال البدوى : ياأمير يكفينى خسران عينى أتريدنى أخسر العين والذلول معاً ؟

(٩)
الوضع

لاتزال فى عرب البادية خاصة القدرة على وضع الأسماء لكل ما يرونه ارتجالا ، وقد كنت أعجب من قصة سليمان البستانى مع الإعرابية فى بادية العراق حين أرادت الاستغاثة به ورأت على عينيه نظارتين فصاحت به : ياأباالمناظر أدركنى ؟

وبينما أنا جالس يوماً للطعام بمكة وحولى رجال من البادية لم ينزلوا الحواضر إلا قليلا ، عرفت ذلك من هيئاتهم ونظراتهم واستغرابهم كل ما يرونه ، إذ جىء باللحم والأرز فأكلوا بأيديهم ما شاؤوا وهم يحسبونهما كل شىء . فقال لهم عارف بهم إننا معاشر الحضر لانأتى

بالطعام دفعة واحدة بل نجعله أنواعاً ونجلبه شيئاً فشيئاً . فرفعوا أيديهم عما أمامهم ، وجيء بالصحن الثانى فالثالث فقال أحدهم : وى ، تجلبون الطعام دلف؟ – يريد تباعاً – قالها من دون أن يفكر أو يتأمل . وأراها لفظة يحسن بنا أن نجعلها بدلا من الكلمة التركية الشائعة بيننا « قالدر» وشتان ما هما . والدلف فى اللغة أن تمشى مشى المقيد .

وعرب الحجاز منذ عرفوا البرقية (التلغراف) سموها السلك على اسم السلك الذى يحملها فهم يقولون «جاءنى اليوم سلك من فلان » وهو كقول العرب الأقدمين « جرى» النهر يرون ماء النهر و« أنبت الربيع البقل » يريدون ماء الربيع . والآية الكريمة « واسأل القرية » أى أهل القرية . فيقال فى « جاء فى السلك » أى خبر السلك ، أرى هذه التسمية أقرب إلى الأذهان من كلمة « البرقية » الشائعة بين أدبائنا منذ سنين كثيرة ولم تدخل حتى الآن فى أسماع العامة التى ألفت لفظ التلغراف فلا تعرف غيره .

وأهل الحجاز كافة من بدو وحضر لايعرفون ما يعرفه أهل الشام ومصر من كلمتى « بز السيكارة » و« الفم » الأسمين لما توضع فيه لفافة التبغ . بل اسمه عندهم « الممص » وهذه أفضل لولا أنهم يضمون الميم الأولى كما أنهم لايفهمون مانفهمه نحن من كلمة « قلم رصاص » لانهم يسمونه « المرقم » وهذه التسمية أفضل وأجمل . وهناك كلمات وأسماء كثيرة غير هذه ليت من يتسع له وقته فى تلك البقاع ، يجمعها ويعرفها على الناس .

(١٠)

الرياح

سمعت عرب الطائف يقسمون الرياح إلى نوعين : الأصائل ، والأركان ويعنون بالأصائل الرياح التى تخرج من إحدى الجهات (الأصلية) : الشرق والغرب والجنوب والشمال . ويعنون بالأركان الرياح التى تخرج من زوايا الجهات الأربع .

فتنقسم الرياح عندهم على هذا إلى ثمان ، على الشكل الآتى :

زكن	شرق	ركن
جنوب		شمال
ركن	غرب	ركن

ويسمون رياح الأركان بالنكباء ، وهى مؤذية . يخشونها وأما الأصائل فمنعشة نافعة للجسم والنبات .

(١١)
ناقة الأعرابى

من أجمل ما سمعت البداة يحلفون به قولهم « وحياة نياقى »[١] يلفظون القاف كافاً معقودة كما يلفظها سائر أهل الحجاز والعراق . وهذا اليمين عندهم من أشد الأيمان ، تعرف منها منزلة الناقة فى عين الإعرابي ؟

(١٢)
الثلاث البيض

الثلاث البيض مقدسة عند عرب البادية يستبيحون دم من يمسها أو ينكص بها وهى كما يسمونها : الضيف السارح ، والطنب السابح ، وخوىّ الجنب

فالضيف السارح : الضيف الذى نزل على أحدهم وأكل عنده وسرح فإن قتله أحد فى طريقه وجب على مضيفه أن يأخذ بثأره ، فيقتل قاتله ، أو يقتل أحد أقرباء القاتل ، غدراً أو مقابلة ، أو على أى شكل كان . ولا يؤاخذه مؤآخذ .

والطنب السابح : يعنون به طنب الخيمة الممدود ، وهو كناية عن الجار الملازم لجاره ملازمة الطنب (وهو حبل الخباء) للخيمة . يعنون بذلك وجوب

(١) عرفت البادية بانتشار العلم والدعوة السلفية أن الحلف بغير الله شرك وممنوع شرعا .

المحافظة على الجار والدفاع عنه والأخذ بثأره إن قتل ، ولا يؤاخذ الجار إذا قتل قاتل جاره ، ولادية عليه .

وخوى الجنب : الرفيق ، وعندهم أن من سار معه البدوى سبع خطوات أصبح « خويه » ووجب عليه أن يقاتل معه ويحميه ولو كان قاتل أخ له .

ولهم عناية عظيمة ، وأنظمة خاصة ، فى الثلاث البيض . منها أن من خفرت ذمته بأن قتل له جار أو ضيف أو خوى (مؤاخ) وأعياه الوصول إلى القاتل ليقتله به أو أعجزه الأخذ بثأره ، رفع شكواه إلى كبير عشيرته فإن كان القاتل من قبيلة أخرى ذهبوا إلى تلك القبيلة وأخبروا شيوخها بالأمر طالبين منهم أن يساعدوهم على « النقا » وهو عندهم الأخذ بالثأر . وعلى الشيوخ أن يقدموا لهم القاتل أو أحد أقربائه فيقتلوه به أمامهم ، ثم يعود الآخذون بالثأر فيدعون أشياخ تلك القبيلة ويقيمون لهم وليمة ، ويرفعون أعلاماً بيضاً خاصة معروفة لديهم ، إشارة إلى أن هذه القبيلة بيّض الله وجهها قد أعانتهم على الاحتفاظ بإحدى الثلاث البيض . ومتى جاء موسم الحج يقف أحدهم فى عرفات فيسمى تلك القبيلة بأعلى صوته ويحييها على وفائها . وكذلك إن كان القاتل من قبيلة المضيف فإنه يحدث شيوخ قبيلته بالخبر ، وعلى أهل القاتل أن يحضروه ليقتل أمامهم أو يحضروا أحد أقربائه ليقتل بدلا عنه . وكثيراً ما يقتله أهله افتخاراً بأنهم يحافظون على عهود الثلاث البيض .

وقد يتبادر إلى الذهن أن المقصود بالثلاث البيض هو الخوى أو الضيف أو الجار من أبناء الحضر . وإنما هى عامة شاملة لكل محتم أو لاجىء من أى قبيل كان ، حضرياً أو بدوياً .

ومن قواعدهم أن الضيف السارح لاتصح عليه هذه التسمية مالم ينزل ويأكل من طعام المضيف ولو لقيمات من الخبز (ويسمونه العيش) أما من جاء فطلب ماء أو لبناً (حليباً) فشرب الماء أو الحليب وسرح فلا يعدونه ضيفاً ولا يعنون بشأنه بعد مفارقته لهم .

ولشعرائهم فى الثلاث البيض والفخر بالاحتفاظ بها ، أشعار رقيقة المعانى ، منها قول شاعر من قبيلة الثبتة (وهى فخذ من عتيبة) :

ومعناه :

يَا البِيضْ لَا لاحَدٍّ صَبْحَهْ مَا مشَيتِى

ولاَ مَشَيْتِى مِنْ بِلادْ إلْيَا بِلادْ

وَالْبِيضْ فَالَ اللِّى نَقَوْا ، وَأَنَا الثِّبِيتِى

وَالمِرْدِفَهْ مَا هِى كَمَا وَسْقَ الشِّدَّادْ

أيتها النسوة البيض لولا حد هذه الشفرة (وهويسمى شفرته أوشلفته صبحة) لم تستطيعى أن تمشى من بلاد إلى بلاد ، ولى فأل من وصفكن بالبيض . فإن البيض تبشر بأنها فأل الذين يأخذون بالثأر ، وأنا الثبيتى الذى تعرفنه . وليس آخر الرحل كمنتصفه : أى ليس كل الرجال سواء ؟ — والمردفة آخر الرحل الذى يعلوه المردوف ، ووسق الشداد وسط الرحل —

(١٣)
اليد اليمنى

للعرب عادة هى أن لايجوز لأحدهم تقديم شىء من طعام أو شراب إلى أحد بغير اليد اليمنى — واتفق أننا مررنا برجل من كبارهم على مقربة من الطائف فاحتفى بنا وأكرمنا بالقهوة والشاهى فنهض أحدنا ينوب عنه فى تقديم الفناجيل (وهى الفناجين عندنا ويسمون الفنجان الفنجال) فأبى مضيفنا إلا أن يكون هو الساقى لنا ، فأصررنا على أن يكون أحدنا فامتثل . وتقدم رفيقنا فأخذ الإبريق بيمناه والفناجين بيسراه (كما هى العادة فى أكثر البلاد لسهولة الصب باليمين (فأنكر عليه صاحب البيت عمله ، وقال : إن العرب لاتسقى باليسار وإنما تحمل الإبريق بيسارها وتقدم الفنجان بيمينها .

(١٤)

الأوهام

الخرافات والأوهام قليلة الشيوع فى بادية الحجاز . وهم لايعرفون ما يقوله عوام سورية والعراق وغيرهما عند خسوف القمر وكسوف الشمس من ابتلاع الحوت ؟

وقد خسف القمر ليلة ونحن خارج الطائف على مقربة منه ، وقد جلسنا مع أحدهم فجرى حديث القمر لنرى ما رأيه فيه ، فلم يكترث ولم يهتم ، بل قال : « أظنه تحول عن مركزه » ؟

ولم نسمع أثراً للضجة التى تقوم فى بلادنا عادة عند وقوع مثل هذا الحادث ، بل خسف القمر خسوفاً أقرب إلى الكلى ، وعاد إلى حاله الطبيعية بعد ساعتين ، ولم يتحدث بشأنه أحد غير من هناك من أبناء العراق وسورية .

(١٥)

شجعانهم

سألت بعض العارفين بأخبار القبائل عن أشجع عتيبة وثقيف اليوم ، فقالوا : ضاعت الشجاعة بعد وجود البندق ؟

قلت : فهلا يمتاز فى الحين أحد عن الآخر بإقدامه ؟ قالوا : بلى ، إن كنت تريد ثبات القلب فى الوقائع ففى القومين عدد كبير ؟

وتابعت البحث ، فعلمت أن أولئك الذين تضرب بهم العرب أمثالها فى العصر الحاضر أكثرهم قد ماتوا . منهم فاجر بن شليويح من قبيلة الروقه (من عتيبه) روى لى من سمعه يعدّ أسماء من يذكرهم من قتلاه فإذا هم اثنان وستون . ومات قتيلا فى إحدى غزواته سنة ١٣٣٥ هـ .

ومنهم ناصر بن عقيل من الدعاجين (من عتيبة) قتلته قحطان نحو سنة ١٣٣٠ هـ .

(١٦)
ابن حميد المقاطى

من أشهر فرسان العرب ودهاتهم فى العصر الأخير محمد بن هندى ابن حميد المقاطى (بالكاف المعقودة كسائر القافات) من قبيلة المقطة (وهى قبيلة واسعة الديار تمتد منازلها من شمال تهامة إلى قرب نجد) وهو من سكان الغطغط بين نجد والحجاز .

كان فارس عتيبة فى تلك الأنحاء وكبيرها مات سنة ١٣٣٣هـ ، هوى به بعيره فقتله .

لم ينفرد بالشجاعة بل عرف أيضاً بإصابة الرأى ، ورجاحة الحلم ، وهيبة المنظر .

أخبرنى رجل أدركه وعرفه ، قال : زار ابن حميد والدى يوماً فجعلت أطيل النظر إلى جراح رأيتها فى عنقه وصدره ، فاستدنانى منه ، فدنوت فكشف قميصه وقال: انظر . فنظرت فإذا جراح هائلة عدتها ستة وثلاثين كلها قد اندملت .

وكان مع الشريف (الملك) حسين فى رحلته إلى نجد على أثر توليه إمارة مكة . فأنعم عليه ببندقيتين فحملهما إلى بعض أصحابه ينظر إليهما ويعجب منهما ، إذ لم يكن سلاحه غير السيف والرمح . فأخذ أصحابه يعلمونه كيف يطلق البندق (الرصاص) وتناولهما بين يديه يطيل التأمل فيهما ساعة ثم ألقاهما وقال : لاحاجة لى بهذا ؟

وله فى ذم البندقيات ويسمونها « الموارت » و« المواريت » جمع مرتينه :

ضَرْبَ الموَارِتْ مَا بِهَا نَومَاسْ   حَذْفَةْ شَرُودٍ مِنْ بِعِيدْ
عَلَيَّ قَضبْ اعْنَانَهَا وَالرَّاسْ   وَاللهْ يِدَبِّرْ مَا يِرِيدْ
عَلَيَّ بَاللِّي تَبْعِد المِرْوَاسْ   وَالعُمْر لَازِم أَنَّهْ يِبِيدْ !

ـ قضب العنان فى لغتهم امساكه جيداً . والمرواس ميدان الخيل

وشوط جريها . يقول : ما فى ضرب البندقيات من فخر فإنه اطلاق شرود من مكان بعيد، وإنما على أن أضبط عنان فرسي ورأسها، ويدبر الله ما يريد، على بالفرس التى توسع الميدان ، وأما العمر فلا بد من أن يبيد .

(١٧)

من أخباره

أخبار ابن حميد ووقائعه كثيرة تذكرنا بما كانوا يحدثون به عن شجعان العرب فى الجاهلية . وكانت بينه وبين قبائل قحطان فى أطراف نجد عداوة متأصلة حتى أنهم نذروا مئة ناقة لمن يأتيهم به قتيلا أو جريحاً أو أسيراً .

فمن وقائعه معهم أنه سرى ليلة فى نحو ثلاثين من رجاله فى أراضى قحطان، فدهمهم نحو خمسين خيالا قحطانيين،فلم يأبه لهم وأشار إلى من معه أن يردوهم . فارتد فرسانه للقتال وظل فى سيره لايبالى بالأمر ، راكباً ذلولا وسلاحه مع عبدله يقود فرسه خلف الذلول . واشتد القتال ، وثبت القحطانيون فوهن المقاطيون(جماعة ابن حميد) وقتل منهم عدد فانهزموا لايلوون على شيء، وغنم مقاتلوهم كل مامعهم من الإبل والحمول وخيل القتلى . والتفت هو فرأى تشتت أصحابه فنادى عبده ، فلم يجده ، وكان قد ركب الفرس وذهب يقاتل ، فحار ابن حميد فى أمره لافرس له ولا سلاح فى يده ، وأدركته الخيل بوابل رصاصها ، فقتل ذلوله ، فترجل وابتدر مختبئاً اختفى فيه عن العيون ، حتى هدأت ثائرة القوم فتغلغل فى الجمع وقد تلثم يريد أن يسمع أخبار أصحابه اين ذهبوا فاعترضه شاب من القحطانيين ودعاه باسمه ، خافت الصوت ، فلم يجبه ابن حميد فكرر النداء ثانية وفى الثالثة قال : يا ابن حميد أنت آمن ؟ فأقبل عليه حينئذ فعرفه وكانت لابن حميد يد على هذا الشاب منذ سنين . فدله القحطانى على الموضع الذى لجأت إليه خيالته وأعطاه ناقته وقال أسلم بروحك . فخرج ابن حميد راكباً فلم يبتعد حتى اعترضه رجل من قحطان عرفه فدنا منه راجلا وصاح مبتهجاً : ابن حميد يا آل

قحطان ؟ وضرب ابن حميد بشلفة أصابت يده اليسرى فسلها ابن حميد حميد باليمنى وضرب بها الرجل فقتله وسلبه شلفتيه ومشى مسلحاً لايبالى حتى التقى بمن بقى من رجاله ، فركب فرساً وأخذ سيفاً وانتقى اثنى عشر فارساً ، فى خيولهم قوة ، وقسمهم ثلاثة أقسام أربعة منهم معه، وأربعة يغيرون على القوم من اليمين ، وأربعة يغيرون من اليسار ، وأمر هؤلاء الثمانية أن يتريثوا حتى يسمعوا صوته فى الجمع . وأغار هو ، وعلا فى القحطانيين صوت ابن حميد فلم يصبروا غير قليل وتفرقوا ناجين بأرواحهم وقتل طائفة منهم واستعاد أمواله وسلبهم أموالهم واتجه حذراً حتى بلغ حدود عتيبة فأمن . ا ه (١)

وكان ابن حميد إذا أراد الكلام نطق به متمهلا لايفوه بالكلمة قبل التأمل بها . ولا يصنع هذا تكلفاً بل هو طبيعة فية .

(١٨)

تحيتهم

التحية فيما بينهم تختلف صيغتها ، وأكثر ما يقولونه لاغريب فيه . إما تحيتهم لذوى المكانة الرفيعة ، فهم إذا أقبل أحدهم على الملك قبل يده وركبته ، وإذا أراد تحية أحد الأمراء قبل يده وربما قبل ركبته . وأما تحيتهم للإشراف فقد رأيت بعضهم حين يرون شريفاً يريدون السلام عليه يتقدمون الواحد يتلوه الآخر فيبدأ الرجل منهم يقبل لحية الشريف من الجانبين ثم يقبل عقاله فوق جبهته ثم رأسه ، وينحنى بعد ذلك على يده فيقبلها ، ويبتعد . ويعقبه الثانى وهلم جرا .

---

(١) انظر مزيدا من اخبار ابن حميد وطرفا من اشعاره فى كتاب الازهار النادية من أشعار البادية المطبوع منه حتى الآن فى ستة عشر جزءا نشر مكتبة المعارف بالطائف وأخبار ابن حميد فى الجزء الاول والثانى منه .

ومن قواعدهم أن راكب ما دون الفرس والبغل إذا أراد السلام على راكب الفرس يبتدئه قائلا : كرمت ، السلام عليكم . وإن كانوا جماعة قال : كرمتم ، السلام عليكم . وبعضهم يكتفى بلفظ السلام فقط . ويريدون بلفظ كرمت أو كرمتم الاعتذار عن أنه غير مساو لراكب الفرس أو ما يماثلها .

وإذا أراد أحدهم النهوض من عند آخر قال الناهض للباقى مودعاً : « فى أمان الله » فيجيبه الآخر « مرحباً » ولايختص عرب البادية بهذه بل تجدها فى الحجاز كله ، وهى أفضل معنى من قولنا فى سورية « خاطركم » والجواب « مع السلامة » فإن قول المودع « فى أمان الله » يريد أن يقول أدعك فى أمان الله ، وقول المجيب « مرحباً » يريد : تجد سعة ورحباً حيث اتجهت .

(١٩)

القضاء

من تتبع أخبار القضاء فى بادية الحجاز وعرف طرائقه وأساليبه أعجب به كل الإعجاب ورأى انتظاماً محكماً وقوانين متوارثة تتفق مع عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم فى حياتهم الاجتماعية . ومن الخطأ أن يظن ظان أن قبائل العرب فى البادية مطلقو السراح ، ملقى حبل كل منهم على غاربه ، بل إن هناك محاكم وقضاة أشبه بمحاكم الحضر وقضاتهم فترى القاضى الابتدائى والاستئنافى التمييزى كما نسميه نحن ، وهم لايعرفون هذه الأسماء ، إنما يعرفون أن هذا القاضى دون فلان مكانة ، وفلاناً دون فلان ، فربما رجعوا إلى الأول فى القضية فإن فصل بينهم بما يرضى الفريقين ويقنعهما اكتفوا به ، وإلا رفعوا القضية إلى من هو أرفع منه ، فإن لم يرو غليلهم قصدوا القاضى الأعلى (وهو كالتمييز) لايردون له حكماً ولايعدلون عما يقضى به أرضاهم أو أغضبهم .

(٢٠)
طريقة المحاكمة

وطريقة المحاكمة فى القبائل أن يتقدم المتداعون إلى القاضى فيقدم له كل من الخصمين شيئاً كخنجر (جنبية) أو بندقية أو بندق (رصاص) وقل فيهم من يقدم الدراهم لأنهم لايرونها جديرة بمقام القاضى . وبعد ذلك يدنو أحد الخصمين أو النائب عن أحد الفريقين ، فيرفع قضيته ويذكر ماله من الحق وأدلته عليه ويسمى شهوده . وبعد انتهائه يدنو الثانى فيدافع عن نفسه بما يكون لديه من الحجج والبراهين ، ويبدأ القاضى بعد أن يسمع أقوالهما فيسأل أسئلة تتعلق بموضوع القضية حتى يتبين له الحق فيعتدل ، ويقول : وضح الصواب ــ أو حصحص الحق ــ وقع مثل قضيتكما هذه فى زمن فلان فقضى فلان بكذا ، ووقع مثلها فى زمن فلان فقضى فلان بكذا وأنا أقضى بينكما بما قضيا به ، ويفوه بحكمه الحاسم للخلاف .

ولايقبل من القاضى حكمه مالم يذكر للحادثة نظيرين من حوادث العرب ، ويؤيد الحكم بمثالين من الوقائع الماضية . وعندها يأخذ المحكوم له ماقدمه إلى القاضى خنجراً أو غيره ، ويأخذ القاضى ماجاء به المحكوم عليه كنفقات محاكمة أو أجرة .

والأجدر بالقاضى عندهم إذا تكلم ، أن يلتزم السجع فى كلامه ، فلا ينحط إلى درجة العامة بل يرتفع عنها ، ليكون لقوله التأثير المطلوب فى المتداعين . .

(٢١)
قضاة عتيبه وثقيب

قبائل عتيبة كلها ترجع فى قضائها الأخير (التمييز) إلى آل هليل . وهم قبيلةمنهم تتداول القضاء بالإرث ، لايدرس أحدهم الحقوق فى الجامعات ولا الكليات بل يتفقه فى بدء نشأته بشىء من علوم الدين ، ثم يتلقى أخبار القضاة عن أبيه أوعمه القاضى ، ويصغى إلى أحاديث القضاء

فيحفظ كثيراً من الوقائع والشواهد التاريخية القضائية عندهم ، حتى إذا انتهى إليه الأمر كان حلالا للمشكلات ، كشافاً للمعضلات . وقضاء عتيبة الأعلى فى بادية الحجاز منحصر اليوم بالشيخ تركى بن هليل ، وقوله القطع . وفى قبائلها عدة قضاة تختلف درجاتهم ولايرجع إلى أحد فيهم بعد ابن هليل ، وقد يماثله فى درجته ابن دخين وهو من قبيلة الثبتة إحدى بطون عتيبة . ولكن بنى هليل أوسع شهرة وأكثر قصاداً :

وأما ثقيف فقد أصاب رابطتها شىء من الوهن على أثر شحناء قامت بين بعض فروعها فهى تكاد كل قبيلة منها ترجع إلى شيخها وربما بلغ عدد شيوخ القضاء فيها الآن خمسة عشر شيخاً .

(٢٢)

الشعر فى المحاكمة

كثيراً ما يتكلم المترافعان بالسجع أو بالشعر ، فأما النثر فأمثلته غير قليلة ، وأما الشعر فإليك نبذة منه :

اختصم ثلاثة رجال من ثقيف أحدهم يدعى حمدان القمش ، والثانى ديبان ، والثالث نافع ، فى قضية ، ثم انحاز نافع إلى رأى ديبان ، فذهب حمدان وديبان إلى الشريف فواز بن ناصر وهو فى الطائف يرفعان إليه أمرهما ، فلما سألهما عن الشأن تقدم ديبان فقال مرتجلا :

يَا سَيِّدِى أَنا جِيتَكَ أَشْكيِ وَأَهِمْ فى مِحْضَارَكَ أَبْكِي !

مَنْقُوصْ ، وَالمَنْقُوصْ مَنْكيِ إلْيَا قَرَعْ مِنْ غَيْر صَايِبْ

فأجاب حمدان :

يَا سَيِّدى دِيبَانْ عَلْكِي ! يَبْغِي العَرَبْ يَغْدُونْ هَلْكِي

مِنْ دُونْ حَوضَ الحَقَّ مَرْكِي ومِيرَادْ لَهْ شَبًّا وِشَايِبْ !

فقال ديبان :

وَلْدَ القَمَّشْ بِالزُّورْ يَحْكِي   وِنُوهْ رَفَّاضِي وَشِرْكِي

يَبْغِي الرِّضَى يَمْشِي بِسمْكِي !   وَفِى الحَقِّ أَخَذْنَا بِالنَّهايِبْ !

فقال حمدان :

نَافِعْ رِضِي وَأَعْطَيْت مُلْكِي   وَأَصْبَحَتْ وِيَّا القَوْمْ شَبْكِي

بِالمِلْح وَالمَصْبُوبْ سَبْكِي   رَعَانَا اللهُ فِى الغَلَايِبْ !

قال راوى الحديث : فأمرهم الشريف أن يجلسا فجلسا وقد سر منها ثم أصلح بينهما وأجازهما بجائزة حسنة .

تفسير الغامض فى قوليهما :

(المنقوص) من سلب حقه . (وليا) أى وإذا . (وقرع) أى أنذر . (وغير صائب) أى بغير حق .

(علكى) متعلل منحرف عن الحق . (مركى) متكى : يريدان خصمه معتمد على غير حوض الحق . (ميراد له الخ) أى مع أن ذلك الحوض — حوض الحق — هو مورد الشيب والشبان . (والميراد) المورد .

(السمكى) نوع من النقود الجاوية . (فى الحق) أى وفى الحقيقة . (أخذنا بالنهايب) أى أنه قد أخذنا نهباً .

(الملح) البارود فى عرفهم . و (المصبوب) الرصاص . و (السبك) نوع من الرصاص عندهم .

(٢٣)

القسم فى المحاكمة

تختلف نصوص الإقسام وأشكالها عند عرب البادية فى محاكماتهم . فمن أشكالها أن يتحاكم المترافعان فمن أنكر كانت اليمين عليه طبقاً لما فى الشريعة السمحاء ، ومنها أن تكون القضية تتعلق بأشخاص متعددين

كقبيلة أو فرع من قبيلة ، فيقف خمسة وعشرون رجلا منها ، على شكل هلالى يتقدمهم قليلا كبيرهم فيقسم أولهم قائلا « والله العظيم » ويعيدها الثانى « والله العظيم » فالثالث والرابع إلى أن ينتهوا كلهم ولايبقى غير ذلك المتقدم ، فإذا وصل إليه المحلف زاد على قولهم (والله العظيم) قائلا : إن القضية كيت وكيت.

هذا إن كانوا متفقين على شهادة أو فكرة واحدة ، وأما إن كانوا مختلفين فينقسمون ويحلف كل منهم على ما رآى أو ما علم .

وأما نصوص الإقسام عندهم فأكثرها مسجع فصيح ، فقد يقول أحدهم نافياً ما أسند إليه : « والله الواحد القهار ، ما أنا لهذه الدعوى خبار» وقد يقول فى تبرئةنفسه : « بحق بارى البرية ، قاطع المال والذرية ، إن ذمتى من هذا برية » أى بريئة ، وإن كان يتكلم عن جماعة قال : « إن ذمتنا من هذا برية » .

(٢٤)

الامارة فى شمر

من غريب ما سمعته عن عشيرة شمر وهى أكبر عشيرة فى نجد كالرولة فى بادية الشام ، إن أميرها إذا قتل أو مات أسرع الناس إلى صعود منبر منصوب فى إحدى بقاع نجد يسمونه « المنبر » فأول من يصل إليه ويتمكن من صعوده ينادى بأعلى صوته : ياناس ؟ يابنى شمر ؟ مات الأمير ؟ الحكم لى ! — فيولونه إمارتهم ولوكان من أضعف بطونهم ، ومن عصاه يقتل بلادية ولا قود . ولم أتثبت من صحة هذا النبأ ، لما بينى وبين نجد من البعد[1] .

(١) الظاهر ان ذلك لم يحدث إلا عند مقاتلة أمراء آل الرشيد بعضهم بعضا ويحتمل أن الاميرالذى يأنس فى نفسه القوة والعون يبادر بإعلان ذلك ، لاكما ذكر المؤلف (ولو كان ذلك من أضعف بطونهم) .

(٢٥)

يحاربون عراة

رأيت البدو يبالغون فى العرى أحياناً فظننت ذلك بادىء الأمر لشدة الحرّ فى البادية ثم علمت من خبرهم عجباً :

يعتقد ابن البادية أن الرصاص لايقتله إذا دخل جسمه لأن أطباءهم يخرجون الرمية من الأضلاع بمهارة اعتادوها تتحملها أجسامهم ، ويرى أن الرصاصة إذا أصابته وكان عليه ثوب أدخلت معها قطعة من ثوبه فى جسده ، فإذا أخرجت البندقة بقيت القطعة الملتهبة من الثوب فتتعفن وتمرض ثم تقتله ، فلهذا يفضلون العرى إذا رحلوا محتاطين لقتال ينشب بينهم وبين أحد فى سبيلهم . أما إذا أرادوا اقتحام المعركة فإنهم يتجردون من القميص ويستتر أكثرهم بقطعة ضيقة من القماش يربط بها وسطه ويضع فيها مقداراً يسيراً من الأرز حتى إذا أطال أمد القتال واشتد جوعه أخرج شيئاً منه وهو وراء مترسه فيأكله نيئاً ويطحنه بأضراسه (١) .

---

(١) كانت البادية يرثى لحالها مما هم فيه من البؤس والفقر ومارآه المؤلف عليهم من ثياب ممزقة أو عرى ظاهر لايمكن الاجابة عليه فى حكومة متمدنة الا بأمثال تلك الحكايات . . . . . ونشكر الله عز وجل الذى من على هذه المملكة السعودية بالخير والبركة حتى عملت على إزالة جميع الضرائب والرسوم عن الحجاج الوافدين كما عملت على تخفيض الاسعار الغذائية بتسديد نسبة من تكلفتها مساهمة فى تخفيضها كما حصل عمل المشاريع الكبيرة الضخمة والحسنات العظيمة فى بناء المدارس والمعاهد والكليات على اختلاف أنواعها لجميع مدارس البنين والبنات حتى بلغ عدد الطلاب والطالبات لعام ١٣٩٥ – ١٣٩٦ هـ أكثر من مليون طالب وطالبة ويشكل هذا العدد نحو ١٥٪ من مجموع سكان المملكة والكثير من هؤلاء مخصصات شهرية تشجيعية وبعضهم الآخر وجبات غذائية هذا مع موالاة البعثات العلمية لسد حاجة البلاد من أهلها كما حصل بناء المستشفيات الكثيرة العديدة وتزويدها بأحدث الآلات والمعدات وبخير الاطباء أصحاب الخبرات ومن المشاريع العظيمة النافعة الخالدة « مشروع عمارة الحرمين الشريفين » تلك العمارة الخالدة التى تنطق بمآثر آل سعود والتى يفنى الدهر ولاتفنى ويشيب الزمن ولا تشيب وكذلك مشروع ربط مدن المملكة وقراها بشبكة معبده بالزفت وتشير التقديرات عام ١٣٩٥ – ١٣٩٦هـ إلى أن مجموع ماتم تعبيده (١٤٠٠٠) كم وبالاضافة إلى ذلك تم تعبيد (٧٩٠٠) كم من الطرق الريفية فى عام ٩٤–٩٥ تربط مابين ٣٢٢٥ قرية ومن أهداف الخطة الثانية تعبيد ١٣٠٦٦ كم من شبكات الطرق الرئيسية و ١٢٠٥٠ كم من شبكات الطرق الريفية ويهدف برنامج الطرق إلى تسهيل ايصال السلع الاستهلاكية والمنتجات الزراعية

بعض مشاريع المملكة السعودية النافعة

في جميع أرجاء المملكة ، ولقد كان سروري عظيما وفرحي متزايدا حينما أبصرت ازدحام منى (كوبرى) بالحجاج القادمين من جميع الافاق بسياراتهم المريحة يلبون داعي الله في أمن واطمئنان ، الامن منتشر والمياه متوفرة والمرور قائم بالواجب والمراكز الصحية متواجدة والطريق يتفرع إلى طرق كثيرة وكلها تصل بالمشاعر المقدسة إنى أغبط المسئولين على هذا العمل الجليل الذي يستحقون عليه جزيل الاجر من الله وحده الذي منحهم إياه وأسال الله مخلصا لهم المزيد من عونه وتوفيقه .

ومن الاعمال العظيمة الحسنة الجليلة التي تتم بغبطة وسرور ، توطين البدو وتحضيرهم ومساعدتهم وتعليمهم وتوجيههم وهم — في الحقيقة أصحاب الأرض فالعناية بأمرهم وتفقد أحوالهم واجبة علينا جميعا وقد سررت بما قرأته في جريدة عكاظ العدد ٤١٣٠ الثلاثاء ٧ شوال سنة ١٣٩٧ — ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٧٧م الصفحة السادسة العمود — ٤ — ٥ قالت : (٦٤ مليون ريال مخصصات الضمان الاجتماعي بالطائف وقد بدأ المكتب في صرف مخصصات الضمان الاجتماعي للمستحقين بمدينة الطائف من ٦ رمضان الماضي وسيستمر الصرف إلى نهاية شهر الحج . أما منطقة الشفا وماجاورها ومنطقة ليه ويسبل وكلاخ وقها وبلاد ثقيف والمناطق المجاورة لها الخوية والسيل الكبير والسيل الصغير وما جاورهما من المناطق فسيتم لها الصرف ابتداء من بداية شهر محرم القادم ، وسيعطون المبالغ التي يستحقونها ، وسوف يبدأ في النصف الثاني من الشهر الحالي لجان لبحث حالات جديدة بالمنطقة الشمالية والغربية من منطقة الطائف . والجدير بالذكر أنه ستصدر خلال الايام القليلة القادمة قرارات جديدة للصرف لحالات جديدة تمت دراستها واتخاذ قرار الصرف لها كما جاء في نشرة وزارة الشئون البلدية والقروية (الخدمات الفنية) اعداد الزميل الاستاذ عبد الكريم حمد الحقيل المشروعات الجديدة لمصلحة العيون والابار بالطائف ، وهو موافق لما أملاه سعادة مديرها النابه النشط السيد جعفر عارف .

مصلحة العيون والابار بالطائف

العام ٩٦ — ١٣٩٧هـ الموافق ٧٦ — ١٩٧٧م .

أ — المشروعات

(١) تفاصيل المشروعات تحت التنفيذ — في ميزانية هذا العام وعددها (١٧) مشروعا

المشروع	التكاليف بالريالات السعودية
خزانات وغرف وكرلجات	١٩,٩٤٩,٢٩٢
حفر آبار ارتوازية ودراسات	١,٩٠٠,٠٠٠
نزع ملكية محطة ضخ خبراء	١,٨٥٨,٤٥٦
توسعة المحطة وتوريد وتركيب مضخات إضافية	٣٤٠,٠٠٠
تمديدات أنابيب مختلفة	٩,٤١٦,٤٥٠
المجموع	٣٣,٤٦٤,١٩٨

(٢) إجمالي المنجز من المشروعات إلى ٣٠ – ٦ – ١٣٩٥هـ = ٥,٣٥٤,١٠٣ ريال =

(٣) إجمالي المنجز في العام الماضي من ٢ – ٧ – ٩٥هـ إلى ٢٩ – ٦ – ٩٦ = ٤,٧٩٥,٠٧٧ ريال

(٤) المجموع الكلي المنجز من المشروعات إلى ٢٩ – ٦ – ١٣٩٦هـ = [illegible] ريال

(٥) المعتمد للصرف على المشروعات تحت التنفيذ هذا العام ١٩,٩٣٢,٥١٧ ريال
٩٦ – ١٣٩٧هـ =

ب – الرواتب والمصروفات الادارية.

(١) الباب الاول (الرواتب) = ٤,٢٣٢,٩٦٠ ريال

(٢) الباب الثاني (المصروفات الادارية) = [illegible]٥٥٩,٩٠٣

(٣) اجمالي المعتمد للرواتب والمصروفات الادارية = ٧,٧٩٢,٥٩٣ ريال

ج – الوظائف داخل الهيئة والمستخدمون

(١) مجموع الوظائف داخل الهيئة = ٨٧ ريال

(٢) مجموع وظائف المستخدمين = ٣٧ ريال

(٣) المجموع العام للوظائف = ١٢٤ وظيفة

كما جاء بالنشرة المذكورة مشروعات بلدية الطائف .

بلدية الطائف

العام ٩٦ – ١٣٩٧هـ الموافق ٧٦ – ١٩٧٧م

(١) تفاصيل المشروعات (تحت التنفيذ) في ميزانية هذا العام وعددها (١٠)

المشروع	التكاليف بالريالات السعودية
– تحسين وارصفة وانارة وسفلته مؤقتة	٢١٥,١٤٩,٣٨٥
– نزع ملكيات للفتح وتوسعه شوارع وميادين .	٥,٢١٧,٤١١
– سوق خضار ولحوم ودورات مياه عامة وتسوير مقابر	٣,١٤٤,٧٥٧
المجموع	٢٢٣,٥١١,٥٥٣

(٢) إجمالي المنجز من المشروعات إلى ٣٠ – ٦ – ١٣٩٥هـ = ٢٢,٥٠٠,٢٤١ ريال

(٣) إجمالي المنجز في العام الماضي من ١ – ٧ – ٩٥هـ إلى ٢٩ – ٦ – ٩٦م = [illegible] ريال

(٤) المجموع الكلي المنجز من المشروعات إلى ٢٩ – ٦ – ١٣٩٦م = [illegible]٢٣,٥٩٨ ريال

(٥) المعتمد للصرف على المشروعات تحت التنفيذ هذا العام ٩٦ – ١٣٩٧هـ
٥٧ ، ١٥٥,٠٨٤ ريال

(٢٦)
الحمى

قرأت فى « إتحاف فضلاء الزمن » نبذة هذا مجملها :

وفى ١١ شوال سنة ١٣٣٩ هـ حدث أن فخذاً من عتيبة يقال لهم ... منازلهم قرب الطائف نزلوا، بالحوية وهى حمى لآل طويرق من ثقيف فشكا الطويرقيون أمرهم إلى الحاكم ، فركب ومعه خيال من الترك وعبد ، فلما وصل إليهم سألهم عن نزولهم فى حمى طويرق فاعتذروا بأنهم لم يعلموه حمى ولو عرفوا لتجنبوه . فقبل عذرهم وحل عندهم ضيفاً وشرب قهوتهم على أمل أن يحل القضية صلحاً . واتفق أن عبده اعتدى على بدوى منهم ، فقتل البدوى ، فنهض أخ له فقتل العبد ، واتسع الخرق حتى اضطر أمير مكة يومئذ الأمير عبد الله أن يحضر إلى الطائف فجاء وأصلح ذات البين .

قال صاحب الإتحاف : والحمى فى عرفهم أن القبيلة من العرب تأتى إلى إحدى الجهات وتبذر فيها الحنطة أو الشعير فتكون تلك الأرض حمى لها لا يمسها أحد غيرها ما دامت زروعها مقبلة ، فإذا أدبرت المزارع أبيحت الأرض ويسميها بعضهم « الركيزة »

(٢٧)
حفاة

البدوى لا يلبس الحذاء ولا يستطيع ، ويحق له ذلك لكثرة جبال هذه البلاد ومنحدراتها ومزالقها ، فهو حاف أبداً ومثله المرأة البدوية . وقد

ب — الرواتب والمصروفات الادارية

(١) الباب الاول (الرواتب)	٢١,٨٣٨,٢٤٠ ريال
(٢) الباب الثانى (المصروفات الادارية)	٢٨,٠٨٩,٧٩٧ ريال
(٣) إجمالى المعتمد للرواتب والمصروفات الادارية	٤٩,٩٢٨,٠٣٧ ريال

ج — الوظائف داخل الهيئة والمستخدمون

(١) مجموع الوظائف داخل الهيئة	١٧٩ وظيفة
(٢) مجموع وظائف المستخدمين	١٥٤ وظيفة
(٣) المجموع العام للوظائف	٣٣٣ وظيفة

كانوا يعجبون منا جد العجب إذا رأونا نصعد جبلا أو نهبط من مرتفع وفى أرجلنا أحذية الحضر « الكنادر أو البوطات » فيطيلون التأمل فيما تحمل أقدامنا

واعترضنى أحدهم فى انحدارنا من جبل كرا فقال : كيف تمشون بهذا؟ قلت : تعودنا . قال : وتركضون ؟ قلت : وكيف لا ؟ قال : تسابقنى؟ . وشمر عن ساقيه فقلت : أما هذا فلا

(٢٨)

الوان ابلهم

البدو هنا لايلفظون همزة الإبل ، يقولون « البل » . وإبلهم منها ذات اللون المعروف الضارب إلى الحمرة ويسمونها « الحمرا » ومنها نوع يضرب إلى البياض ويسمونها « المغاتير » ومنها ما يضرب إلى السواد أو هو أسود حالك كالغراب ويسمونها « الدهاميم » وهى قليلة فى بادية الحجاز لم أرها . ولا يكون البعير الواحد ذا لونين بل هو ذو لون واحد . وقد شوهد جنس من الإبل غريب جىء به إلى الملك بعد النهضة ، مرقش ، يشبه فى لونه بقر الوحش ، أو النمر ، غير أن بقعه كبيرة وليس فى الحجاز شىء منه ، وقد شغلتهم الحرب عن توليده فى باديتهم .

(٢٩)

أنواعها

والإبل هنا نوعان : جبلية وسهلية . والأولى أشد وأصبر على الجوع والظمأ ، وهى دون الثانية جسوماً وضخامة ، ولكنها أصلب وأحمل ؛ وأكثر الإبل فى باديةمكة من النوع الأول القوى . ومن أمثالهم « القوة فى القلوب لا فى الجنوب » يريدون أن القوة ليست فى ضخامة الجسم وعرض الجوانب .

(٣٠)
الآركيات

فى بادية مكة نوع غريب من الإبل يسمونه « الآركيات » أكثر ما تقتات به الأراك وهو عيدان السواك ، ويسمونه الأرك (بسكون الراء) ومنه أحراج كبيرة فى ظاهر مكة شديدة الاخضرار حتى أيام انقطاع المطر. ويقولون إن الإبل الآركيات إذا منع عنها الأراك أربعا وعشرين ساعة هلكت . ويؤيد هذا أن أكثرها يتخذ للنقل بين مكة وجدة (مسيرة يومين للجمال) وقد رأيت رعاتها يجعلون فى احمالها شيئاً من الأراك فإذا أطعموها جعلوا قليلا منه فى طعامها . وقد يطعم أحدهم راحلته « الآركية » سواكه ، إذا لم يجد غيره من الأرك (الآراك) فتأكله وإن كان يابساً .

(٣١)
الهيام

من الأمراض المشهورة عندهم فى الإبل « الهيام » وهو أن يشرب البعير أو الناقة من الماء الراكد الفاسد فينتفخ طحاله فلايلبث أشهراً حتى يموت فجأة . وهذا المرض مخوف على إبلهم جداً لقلة الماء فى الحجاز ، وهو سريع العدوى بالاختلاط ، أو بشم الصحيح بول المصاب ، ويسمونه « المهيوم » . وإذا تدورك المصاب بعدالمرض بأيام معدودات أمكن شفاؤه وذلك بأن يطعموه الحمض (وهو نوع من النبات يكثر عندهم فى أيام المطر والخصب) فإن أطعموه منه بعد ستة أيام شفى . وهناك نبات آخر يعرفونه يشفى المصاب من الإبل بأكله قبل مرور تسعة أيام . ونبات آخر يشفى به قبل انقضاء اثنى عشر يوماً . وإن زادت مدة المرض على هذه الأيام يئسوا من شفاء المصاب . وحكومة مكة تعاقب بشدة من تجد عنده مصاباً بهذا الداء ، وتكافىء من يخبرها به بخمسة مجيدات (نحو ٤٠ قرشاً مصرياً) وتجلد من يوجد عنده . وهى تذبح حالا كل ما تجد من هذا النوع إلا ما يؤمل شفاؤه فتعزله منفرداً وتأمر بمداواته .

(٣٢)
بياطرة الهيام

وفى بادية الحجاز وتهامة رجال معروفون بالعلم فى هذا المرض ومداواته ويمتازون بمعرفة المصاب عند رؤيته أو شم رائحته كما أنهم يعلمون مدة مرضه ، فحين ينظرون إليه بإمعان يذكرون منذ كم أصيب . والحكومة تستخدم بعض هؤلاء « البياطرة » فى عداد أطباء الحيوانات وتجرى لهم المرتبات كسائر موظفيها إذ هم يعينونها على حل كثير من المشكلات التى تنشأ بين أبناء البادية القريبة من العاصمة . وهؤلاء — بياطرة الإبل — لايتلقون علمهم بالدرس بل بالنظر الطويل والممارسة يتوارثونه سلفاً عن خلف . ومن تستخدمه الحكومة منهم تجربه قبل استخدامه حتى تتأكد من براعته ثم تحلفه الإيمان المغلظة على أن يصدق ولا يتسرع ولا يمالىء ولا يحابى فى جميع ما يحكم به . وهم يعرفون مدة مرض المصاب من الإبل عقب أخذه إلى أربع ساعات أما بعدها فتتعذر عليهم معرفة المدة . وإلى هؤلاء البياطرة ترجع الحكومة فى حل قضايا الإبل المهيومة مثلا : ادعى فلان أمام الحكومة أنه اشترى ناقة من فلان منذ شهرين واتضح له أخيراً أنها مصابة بالهيام منذ ثلاثة أشهر فذبحها وهو يطالب بائعها له بقيمتها فترسل الحكومة أحد بياطرة الهيام (بفتح أوله) أو اثنين منهم فإن صح ما يقوله حكمت على البائع بالتعويض وإن كان مرض الناقة بعد شرائها فلا يؤخذ البائع . وقد حدث شىء من هذا وأنا فى مكة .

(٣٣)
الخيل تحمى الابل

وعندهم أن صاحب الإبل لابد له من الخيل خصوصاً إن كان من سكان السهل لأن الإبل لاتحمى نفسها من الغارات وإنما يحميها فرسانها . ومن أقوالهم فى الخيل « بطونها نار وظهورها عار » أى أن بطونها كالنار تلتهم كل ما يدخلها أو كأنها تحرق الطعام إحراقاً ، كناية عما تحتاج إليه صاحبها

من وخز النشفات . وأما ظهورها فيرون أن على الفارس حماية فرسه من أن يلحق بها العار إذا فر أو سقط عنها في الوقوف . وقد يفسرون كلمة العار في هذا المثل بمعنى الحريم والعرض فيكون المعنى : وظهر الفرس عرض الفارس لأن العار في إهماله .

(٣٤)

الجرة

الجرة — بفتح الجيم — من أشهر ألعابهم في الطراد والرمى . وهى أن يضعوا جرة مملوءة ماء فى مكان وتمر الفرسان فى طرادها راكضة خيولها حتى تحاذى الجرة من اليمين أو اليسار على بعد مئة متر تقريباً فتلوى نحوها رؤوس الخيل العادية كالبرق الخاطف وتطلق رصاص البندقيات بأشد ما يكون من السرعة والخيل تضطرب من كبح جماحها ، فيصيبون الجرة من ذلك البعد . وإنما اختاروا جرة الماء لأن شهود الرمى البعيدين يرون اندلاع الماء من الجرار ويسمعون دوى صوتها حين تصاب فيهتفون للرماة . وبذلك سميت هذه اللعبة من الرمى باسم « الجرة » وأكثر لاعبيها يجيدونها وقليل فيهم من يخطىء الهدف .

(٣٥)

من أمثالهم

من أمثال البادية « لا تحاذف راعى معز ، ولا تصارع راعى بقر ، ولا تسابق راعى إبل » لأن الأول يضطر دائماً إلى رمى ماعزه بالحصى وغيره ليجمعها فيقوى ساعداه ، والثانى يكثر من تحويل البقر وسوقها فتقسو عضلاته ، والثالث يتبع إبله ويرد ما يشرد منها فيشتد على الجرى .

ومن أمثالهم « اللى يبغى الشر يصلح شوره » أى : من أراد الخصام فليصلح رأيه .

(٣٦)
الجهات الاربع

يختلف أهل بادية الحجاز عن غيرهم فى تسمية جهتين من الجهات الأربع ، هما الشمال والجنوب ، فيسمون الشمال « شاما » والجنوب « يمناً » لوقوع بلاد الشام فى شمال الحجاز ، وبلاد اليمن فى جنوبه ولا يختص البدو فى هذا الإصطلاح ، بل يشاركهم فيه أهل الحواضر وفيهم العلماء والأدباء . وقد اتفق لى بعد الأوبة من الطائف أن تذكرت أمراً فاتنى البحث فيه هنالك وهو ما تعده حكومة ذلك البلد اليوم حدوداً صحيحة (رسمية) له ، فكتبت إلى قاضيه الشيخ عبد الله كمال اسأله بيان ذلك فأجابنى بكتاب يقول فيه : « بلغت سلامكم حضرة أمير الطائف وأطلعته على محرركم ، وهو يبلغكم السلام ، وتذاكرت معه فى الكلام على حدود الطائف حسب مرغوبكم ، فما رأينا أحسن من حدوده المعلومة المذكورة فى التواريخ وهى أن يحده شرقاً وادى لية ، وغرباً وادى قرن ، وشاماً لقيم ويمناً الوهط . الخ فإذا هو يسمى الشمال شاماً والجنوب يمنا كما يسميهما البداة . وفى أهل الحجاز أيضاً من يسمى المشرق « المبدا » والمغرب « المغيب » فتكون عندهم الجهات الأربع : المبدا والمغيب والشام واليمن . يعنون : الشرق والغرب والشمال والجنوب .

(٣٧)
الجيش

يفهم ابن بادية الحجاز من كلمة الجيش غير ما نفهمه نحن . فهو يسمى ركبان الإبل الجيش ، وقد يقول : جاء الجيش . فتلتفت فترى قطاراً من الجمال . وأما القوة العسكرية التى نسميها نحن بالجيش فاسمها فى البادية « القوم » .

(٣٨)
سلمت

كان قدماء العرب يقولون للعاثر : لعاً وأهل مصر اليوم يقولون « ياساتر » وأهل الشام يقولون : الله ؟ وأما فى الحجاز فقد أعجبنى قولهم للعاثر سلمت ؟

(٣٩)
فصول السنة

فصول السنة فى بادية الحجاز خمسة ، يزيدون على الأربعة المعروفة فصلا خامساً هو « القيظ » ويلفظونها بالضاد (القيض) فيكون العام فى عرفهم : الربيع أربعة أشهر ، والصيف شهران ، والقيض شهران ، والخريف شهران ، والشتاء شهران .

(٤٠)
المدعى عليه

قرأت للسيد محب الدين الخطيب فصلا فى جريدة القبلة بعث به من الطائف قال فيه :

« ومن أعجب ما علمته أن المدعى عليه قد يكون فى أقصى البادية على مسيرة أيام من الطائف ، فإذا طلب المدعى استدعاء خصمه أخذ الأمير[1] عصا ووسمها بإشارة وأرسلها مع المدعى إلى المدعى عليه ، فإذا عرضها الخصم على خصمه لم يستطع ذلك أن يتأخر عن حضور مجلس الحكم ساعة واحدة »

---

(١) يريد أمير الطائف وكان يومئذ الشريف حمود بن زيد . (المؤلف)

أدب البداة

قضت الأمية السائدة فى بادية الحجاز على ركن عظيم من أركان الأدب هو الإنشاء ، وناب عن الخطابة فى سكانها ما رزقته ألسنتهم من حسن البيان وأصبح الشعر وحده هو المظهر البارز من مظاهر الأدب . فإذا بحثنا فى آدابهم فإنما نريد الشعر المألوف نظمه عندهم اليوم وما يتعلق به من معرفة أوزانه وتفسير كلماته وطرق روايته وأخبار قائليه . ولكل من هذه الأبحاث شواهد نأتى عليها فى مواضعها إن شاء الله .

الماضى والحاضر

ما كانت لتصح المقابلة بين أدبى العرب فى ماضيهم وحاضرهم ، لولا وجوه شبه لاتزال مرتبطة بها حلقات السلسلة بين الأسلاف والأخلاف ، على ما بينهما من شاسع البون وواضح الفرق .

وليس من الخطأ فى شىء أن يقول قائل إن عرب الجاهلية وصدر الإسلام وما بعد هذين العصرين اللذين أينعت فيهما ثمار الأدب والشعر ، وأتت قرائح أبنائهما بالمعجب والمطرب ، لم يبرحوا يراهم من يرى عرب هذا الجيل ، فى الكثير من عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم وآدابهم إلا ما فقدوه وهو الخسارة الكبرى أعنى الإعراب فى لغتهم والاحتفاظ بفصيح البيان فى منظومهم ومنثورهم ، فهذا ما لا مجال للمقابلة فيه بين العهدين .

أما الشعر من حيث هو شعور فى النفس يترجم عنه اللسان ، فإنه لم يزل مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالإبداع فيه عن الحواضر ، دع ما بين سكان المدن وسكان الخيام ، من الفرق فى قدرة الأول على الاختراع وقوة الثانى فى الوصف والصنعة .

يقف الشاعر البدوى اليوم ، فيسامر الأثان ، ويصف السحاب ، وينعت الجبال ، أو يحن إلى حبيب ، أو يبكى لفراق ، أو يرثى كريماً ،

أو بمدح عظيماً ، فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوى الذى كان يقصد عكاظاً قبل أربعة عشر قرناً ، حاملا فى صدره ما قال من وصف أو حنين أو رثاء أو مديح .

وبالجملة فإن الشاعرية الفطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم ، ولا أرى ما قد يراه سواى من انتقاص هؤلاء أو بخسهم أدبهم لشيوع العامية فيهم أولاعتمادهم عليها فى شعرهم ، فما كان الشاعر الجاهلى لينطق بغير الشائعة المتداولة فى أيامه وما كان — ولن يكون — من الإنصاف أن نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش فى صدره ، بلغة غير لغته التى تلقاها عن أمه وأبيه وعشيرته وأهليه . فالبدوى الجاهلى قبل الإسلام ، والبدوى المعاصر من أبناء هذا العهد ، سواء من حيث الإفصاح والإبانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة . فما كان ذلك بالمتكلف إعراباً غير إعرابه ، فنكلف هذا ، وما كان ذلك بمتلق عروض الخليل أو نحو سيبويه فنعيب على هذا اجتنابهما .

على أن من يكثر من سماع شعر البادية فى عصرنا الحاضر ، وينعم النظر فيه . لايعدم العثور على كثير من مبتكر المعانى والتشابيه مما لو أعرب ونسج على منوال ما ألفناه من الأوزان لرأينا فيه حسنات غير يسيرة .

ولئن عد من أعظم خصائص الشعر فى الجاهلية تأثيره فى النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية فى عصرنا مع شعر الجاهلية فى ميدان واحد ، وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لاغير .

ذلك لأن شعر البدوى اليوم يؤثر فى عقول البداة كما كان يؤثر الشعر الجاهلى فى الجاهليين ، وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلدها شعر ابن تلك العصور الخالية ، ولو أقبل أهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلا ، على تدوين شعر البداة ، لحفظ لهم تاريخ هؤلاء كما حفظ تاريخ أولئك ، ولما ذهب ضياعاً ما لمجاورينا فى صحرائهم من خبر أو أثر أو معنى مبتكر .

بل لو ولع العربى فى هذا الزمن بأخبار بداة العرب فى الأزمنة المتأخرة بعض ما كان له من الولوع بأخبارهم قبيل العصر الإسلامى وبعده بقليل ،

لاضطر إلى رواية شعر هؤلاء كما يروى شعر أولئك ، ولاضيف إلى الأدب العربي أسلوب جديد اختارته هذه البداوة كما اختارت ذلك تلك ، ومعاذ الله أن أقول بإحلال هذا منزلة ذاك أو بالرضى عن قبول هذا الأدب المشوه بالعجمة واللحن ، يتغلغل بين حنايا الأدب الصحيح ، أدب العرب الخالد ، فإن فى ذلك لجناية على لغة القرآن وسهماً فى كبد البيان .

وإن المختلط بالبداة اليوم ليعجب مما لبضاعة شعرهم فيهم من الرواج ، وليراهم فى تعلقهم بها وإقبالهم عليها يفوقون الحضر فى عنايتهم بشعرهم الصحيح وأدبهم القويم .

ينظم الشاعر المبدع من أهل مصر أو سورية أو العراق القصيدة ، وينشرها فى إحدى الصحف ، مشكولة كلماتها ، مفسرة ألفاظها ، موضحة معانيها ، ثم ينظر إليها عن بعد يترقب ما يكون لها من الأثر فى نفوس القوم ، فإذا قارئوها ثلاثون فى المئة من قراء الصحيفة ، وفاهموها عشرة فى المئة منهم ، ولا يحفظها واحد فى الألف .

ويرتجل الشاعر البدوى القصيدة ارتجالا لايتعمل فيها ولا يتكلف — ولا يرجع إلى قاموس — فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل وقريبها ، يتناشدونها ويتغنون بها . ولا أغالى إذا قلت أنها تعيش فى أدمغة هؤلاء قبل أن تكتب ، أكثر مما تعيش تلك فى أدمغة أولئك وقد نشرت وكتبت .

وكأنى أرى فى ما يسمونه « الأدب العصرى » اليوم مظهراً من مظاهر الإسفاف إلى العامية ، يحلو بأنصاره إليه زهد العامة فى أكثر ما تقوله الخاصة ، وإيثارها ما تفهم بالبداهة على ما يعوزها فى تفهمه الرجوع إلى المعاجم . ولالوم على هذه الطبقة من الناس فى عملها هذا ولاتثريب ، وإنما الأمر معضلة يخشى استمرارها من حرص على بقية الأدب النقى ويحاذر أن تهمل بعد حين ، ويإهمالها ما لا مناص منه آنئذ من فوضى الإقلام ، وإنقسام هذه اللغة الواحدة إلى لغات متعددة ولهجات مختلفة وأقسام . آية الهرم وبلوغ العتىّ من الكبر !

شعر البداة

وبعض أنواعه

لا يختص سكان الخيام فى بادية الحجاز بنظم الشعر ، بل هناك كثيرون من أبناء الحواضر يقولونه كما يقوله أبناء البوادى ، ولهم عناية كبيرة به ، وفيهم المبرزون بنظمه ، المشار إليهم بالإجادة فيه ، ولكن الفرق المعروف عندهم بين البدوى والحضرى أن الأول أقوى على الارتجال بل أكثر شعره ينشده غير متكلف فيه ولامتصنع ، خلافاً للحضرى فإنه يصنعه صنعاً فينمق ألفاظه ويهذب أبياته ولا يقوى على ارتجاله فى الغالب .

وقل فى شعراء البادية من يتفق له أن يتلقى فى صغره شيئاً من مبادىء علوم العربية . أما من تهيأ له ذلك فيستعين بسليقته الشعرية على نظم شىء من الشعر الصحيح ، قد تكون فيه معان جديدة توحى بها إليه بداوته وصفاء قريحته .

وهم يقسمون الشعر إلى نوعين : الأول الصحيح الأوزان واللغة ، ويسمونه « القريض » . والثانى الشعر البدوى المختلف فى لغته وأوزانه عن الشعر الصحيح أو القريض كما سترى ، ويسمونه « الحمينى » ولم أعلم اشتقاق هذه اللفظة ولا أصلها .

ويسمون المساجلة بين الشاعرين منهم « قصيداً » كما يسمون القصيدة الطويلة أو القصيرة « نشيداً » ويسمون القصائد على الإطلاق « مجالسيات » ويعرف عندهم اللغز باسم « الغبوة » .

وكما يقول العرب الأقدمون للشاعر المجيد : « لافض فوك » يقول البداة اليوم لشاعرهم إذا أحسن : « صح لسانك » ؟

فأما « القريض » عندهم فمن أمثلته قول الوقدانى من قصيدة رثى بها أمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون :

المُلْكُ للهِ والدُّنْيا مُدَاوِلَةٌ
وَمَا لِحَيٍّ عَلَى الأَيَّامِ تَخْلِيدُ

وَالنَّاسُ زَرْعُ الفَنَا وَالمَوْتُ حَاصِدُهُ
وَكُلُّ زَرْعٍ إِذَا ما تَمَّ مَحْصُودُ

وَمَا يَدُومُ سُرُورٌ لَا وَلَا كَدَرٌ
وَهَكَذَا الدَّهْرُ تَصْدِيرٌ وَتَوْرِيدُ

وَالنَّاسُ : ذَا فَاقِدٌ يَبْكِى أَحِبَّتَهُ
وَذَاكَ يُبْكَى عَلَيْهِ وَهُوَ مَفْقُودُ

وِذَاكَ أَبْدَتْ لَهُ الأَيَّامُ زِينَتَهَا
وَذَاكَ أَيَّامُهُ هَمٌّ وَتَنْكِيدُ

لِلدَّهْرِ وَجْهٌ عَبُوسٌ فِى تَقَلُّبِهِ
وَلِلْمِنَايَا سِهَامٌ صَيْدُهَا الصِّيدُ

مَا يَمْنَعُ المَوْتَ أَبْرَاجٌ مُشَيَّدَةٌ
وَلَا دُرُوعٌ وَلَا بِيضٌ وَلَا خُودُ

لَوْ يَدْفَعُ المَوْتَ سُلْطَانٌ بِقُوَّتِهِ
لَكَانَ حَيًّا سُلَيمَانٌ وَدَاوُودُ !

وهذه القصيدة طويلة جيدة ، رأيتها مكتوبة بخط واضح جميل ، معلقة على أحد الجدران فى قبة الحبر ابن عباس بالطائف . وستأتى كلمة عن ناظمها الوقدانى(١) .

وأما الحمينى فكثير جداً ، أو هو اسم عام لكل ما ينظمه البداة نظماً مرسلا لاإعراب فيه ولا صناعة .

---

(١) انظر ترجمة بديوى الوقدانى وأشعاره وقصيدته هذه فى الجزء الأول من الازهار النادية من أشعار البادية جمع حضرة السيد الوالد وقد طبعت هذه المجموعة حتى الآن فى ستة عشر جزءا فهى أكبر موسوعة فى الشعر الملحون (الحمينى) (النبطى) وقد ضمت العدد الوافر لشعراء النبط (الحمينى) القدامى وبعض المعاصرين .

وأما « القصيد » أو ما نسميه المساجلة ، فقد تقدم نموذج منه فى كلمة « الشعر فى المحاكمة »(١).

ومن « النشيد الحميني » أو « المجالسيات » قول مقيبل الوديود يصف وقعة :

يَا اللهْ يَا اللهْ تِصْلِحْ شَأْنَنَا يَا مصْلِحَ الشَّأْنْ
وِتْرُدَّنَا سَالِمِينْ وِتْهَوِّنَ الأَمْرَ الصَّعِيبْ

كُلٍّ مِعَيِّدْ وأَنَا فى هَمّ ،عِيدِى يَمّ عُسْفَانْ(٢)
وَأَقُولْ يَا اللهْ تِجِيبَ القَوْمْ نُصْلُحْ مِنْ قَرِيبْ

عَيُّوا يِجُونَا وِجِينَاهُمْ عَلَى صَاعِقْ وبِيشَانْ(٣)
ثُمّ الْتَقَينَا عَلَى فَيدَهْ بِنيرانَ الحرِيبْ(٤)

وَالْمِلْح مِثْلَ الرَّعْد ، وَامْسَى الطَّرِيحْ بِغَيْر دَفَّانْ
سِتِّينْ مِنَّا ومِنْهُمْ ، ذِبْحَوْا غَيْرَ الصِّوِيبْ(٥)

يَاذِيبْ فَيْدَهْ تَعَشَّى مِنْ بَعْدمَا كُنْت طَيَّانْ(٦)
وَأَعْوِىَ وَنَادِى الذِّيَابَ اللِّى تعَاوَى فى الشِّعِيبْ

نِعْمَيْن يَا بِشْر وَمَعْبَدْ ، حَمَوْا مَدْعُوجَ الأَعْيَانْ !
عَيُّوْا عَلَى العَارْ ، وَالْمِيلَانْ مَا رَاحَتْ كِسِيبْ(٧)

---

(١) صفحة ٢٠٨، ٢٠٩ من هذا الكتاب

(٢) يقول : كل انسان فى عيد ، وأما أنا ففى هم دائم ، لأن عيدى فى جهة عسفان ، وعسفان واد على طريق المدينة بعد وادى فاطمة بمرحلتين .

(٣) عيوا : امتنعوا ، وصاعق : صائح . وبيشان : هتاف . يقول : امتنعوا ان يجيئونا فجئناهم صائحين هاتفين .

(٤) فيده : بئر فى جهة المدينة . وقعت بين الشاعر وخصومه وقعة بقربها .

(٥) الملح : البارود . والصويب : المصاب . يقول : البارود يقصف قصف الرعود ، وأمسى ستون منا ومنهم مذبوحين طريحين ليس لهم من يدفنهم ، عدا الجرحى والمصابين .

(٦) طيان : طاو . يقول : تعش ياذئب فيده بعد جوعك .

(٧) بشر ومعبد : من رفاقه . يقول : انعم بكما يابشر ويامعبد . ثم يلتفت فيتكلم عن أصحابه قائلا : أنهم حموا ذوات الاعين ، الدعج ، وامتنعوا على العاران يلحق بهم . ولم تذهب الاموال (الميلان) كسبا للعدو .

ومن الأحاجى أو المعميات والألغاز ، وهم يسمونها « الغبوات » الواحدة « غبوة » ما لهم فيه براعة وصنعة . أنشدنى أحدهم « الغبوة » الآتية :

أَنْشِدكْ غَبْوَهْ ، عَنْ غَرْسَةٍ بِالعَدْ مَسِقِيَّهْ
مِتْنَكِّسٍ رَأْسَهَا . وَالْعِرْقْ فَوْقَانِى
إنْ جِيتْ فى ظِلَّهَا فى دَاجِىَ الفَيَّهْ
وإنْ رُحْت فى سَدَّهَا مَا أَنْتَ بِبَرْدَانِ

ونثر البيتين : أسألك ملغزاً عن غرسة تسقى بالعدد، رأسها منكس، وأصلها مرتفع . إن تفيأت بها أظلك سترها ، وإن ذهبت مقابلا لها لم تخش أذى البرد .

وإليك حل هذا اللغز : الملغز به هو اللحية . يقول الشاعر : أنها غرسة تنمو بالسقاية من عدد السنين ، وفروع هذه الغرسة مخالفة لفروع الأشجار لأن أصلها مرتفع وفروعها منخفضة ! فإن لجأت إلى ظلها فأنت فى حماها ، وإن ذهبت فى حمايتها لم تخف برداً ولا أذى . .

وأنشدنى آخر « غبوة » ثانية ، هى :

أَنْشِدكْ عَنْ غِمْرٍ ، شَبابُهْ سُبُوعَيْن
وِمِنْ بَعْدْ سُبُوعَيْن يَصْبِحْ الغِمْرَ شَايِبْ
كُلٍّ فَرَحْ بَهْ ، غَيْر قَضَّايَةَ الدَّيْن
وِمْدَوَّرِين الفَيْدْ فَوقَ النَّجَايِبْ

— الغمر فى اللغة الشاب الذى لم يجرب الأمور . والفيد فى عرفهم الكسب . ونثر البيتين : أسألك عن فتى لاتتجاوز مدة شبابه الأسبوعين ثم يشيب ، فرح به كل إنسان ما عدا « قضاية الدين » أى الواجب أن يقضوا ديناً عليهم ، وما عدا الباحثين عن كسب .

يريد بالغمر الهلال ، لأن مدة شبابه أسبوعان ثم يكتهل . ولا يخفى أن من عليه ديناً يحزنه قرب انتهاء الشهر ، ومن أراد الكسب فى ظلمات الليل فوق النجائب يفضحه نور الهلال .

وقال شاعر منهم لآخر :

أَنْشِدكْ عَنْ بَحْرٍ طوِيلٍ مَا يَنْشَرِعْ فِيهْ
صَعْبٍ عَلى ذِهينَ الرِّجَالْ وَيَشْرَعُهْ خُبْلَ الرِّجَالِ

فأجابه :

هَذَاكَ الكِذْبْ لَا عوَّدَ اللهْ طَارِيهْ
راعِيهْ دِائماً يَمْشِى عَلى الجَرْفَ الْهَيَالِ

— ذهين الرجال : ذو الذهن والعقل . وهذاك : ذاك . وطاريه : خبره . وراعيه : صاحبه .

وأنشدنى أحدهم « الغبوة » الآتية ، فى « يونس بن متى » :

أَنْشِدكْ عَنْ مَخْلُوقْ فى قَبْرُهْ مِسيّدْ فى القَبْر حَىٌ وَيَطْلُبَ الغُفْرَانْ
وَالقَبْر يَمْشى حَىْ سَرَعْ وبِالرُّوَيِّدْ يَأْكُلْ وَيَشْرَبْ صَنْعَة الرَّحْمنْ

— يشير إلى قصة يونس بن متى عليه السلام ، وابتلاع الحوت له حياً . وقوله « مسيد » أى ملقى . و« سرع وبالرويد » أى اسراعاً ورويداً .

الرواية

وطرائق النقل

قل أن يجد الباحث عن شعر البادية ما ينقله عن كتاب أو مجموعة أوراق ، ولكنه متى عرف الطريق اهتدى للكثير الغزير من « مجالسياتهم » و « قصدانهم » و« غبواتهم » وغيرها من أنواع الشعر عندهم .

ينتشر شعر البادية اليوم بالواسطة التى كان يذيع بها قبل ظهور الإسلام ، وهى الرواية والحفظ فى الصدور لا فى السطور .

ورواة الشعر من البدو كثيرون ، ترى فى كل قبيلة نفراً منها ، يسمعون فيحفظون ويستنشدون فيروون .

ولا يختص هؤلاء الحفظة ، وإن شئت فسمهم الرواة ، بحفظ أحد نوعى الشعر — القريض والحمينى — بل حيث رأيت كثير الحفظ روى لك من كليهما ما يعلم .

سمعت أدباء الطائف يلهجون ببيتين ، يكثرون من تشطيرهما ، لاأذكر اسم ناظمها ، وهما :

أَحَمَامَةَ الوادِى بَشَرْقِىِّ الغَضَى

إنْ كُنْتِ مُسْعِفَةَ الكئِيبِ فَرَجِّعى

إنَّا تُقَاسِمْنَا الغَضَى فَغُصُونُهُ

فى رَاحَتَيْكِ وجَمْرُهُ فى أَضْلُعِى

واتفق أن خرجت صبيحة يوم إلى المثناة يرافقنى أحد فضلاء الطائفين ، فمررنا برجل من أهل الطائف أهرمته السنون ، ما إخاله يقل عن الخامسة والثمانين أو التسعين ، وقد حمل طبقاً صغيراً على رأسه وفى يده عكاز يتوكأ عليه . فسلم عليه رفيقى واستوقفه ، فأجاب ووقف ، فكلمه فإذا هو تمتام عقل الكبر لسانه ، وسأله هل يروى البيتين (أحمامة الوادى) فقال : نعم

وأنشدنا تشطيراً لهما قال هو للوقدانى ، ثم أسمعنا تذييلا عليهما للوقدانى أيضاً فى قصيدة طويلة لم نستطع فهمها من لسانه فكتبها وبعث بها إلينا .

وسألت هذا الشيخ الهرم عن بعض شعراء البادية فحدثنى بما يعلم عنهم فقيدتهقبل مفارقته وسألت رفيقى عن اسم الشيخ فقال : عبد الله أبو دايخ .

وممن أعاننى على بعض ما رويت وما قلت ، من شعر البادية ، مدير شرطة الطائف الشيخ درويش بن محمد بن عبد الواحد الحدائى من قبيلة قحطان . والحدائى نسبة للحدا وهو مكان فى اليمن شرق صنعاء . وقد حرفت نسبته فيقال الحدايدى . وهو من حفاظ شعر البادية المكثرين ، وله منه بضع « مجالسيات » إليك نموذجاً منها :

خرجت رصاصة من بندقية أحد الأشراف قضاء ، فأصابت عنق الشيخ درويش ، فاهتم به من حوله من ذوى ناصر ، فعولج حتى شفى ، فقال من قصيدة طويلة :

مَا سجعْ قُمْرِى عَلى غُصْنَ الْبشَامْ
أَوْ ترنَّمْ طايرًا فَوْقَ الغُصُونْ
أَوْ تَرَزَّمْ صَوتْ رَعْدِ فِى الْغَمَامْ
ثُمَّ أَسْبَلْ مِنْ سَنى بَرْقُهْ مُزُونْ
عَد هَذَا منِّى أَقْرِيكُمْ سَلَامْ
يا ذَوِى نَاصِرْ مَجَوِّدَةَ الطُّعُونْ
إلْيا [١] رَكِبْتُوا الْخيلَ أَيَّام الزِّحَامْ
كَمْ عَدُوٌّ يشْتكِى مِنْكُمْ غَبُونْ
أَنْتُمْ أَهْلَ الفِعْل فى شَبْكَ العَسَامْ [٢]
يَشْهَدَ اللهْ والْخَلَايِقْ يَشْهدُونْ

(١) اليا : اذا . (٢) العسام : الغبار ودخان البارود .

ومنها :

إنْ بَدَعْت القَافْ [١] أَو قُلْت الكَلَامْ

مَا اسْتَعَرْتُهْ مِنْ رِجَالٍ يَبْدعُونْ

ومن المعروفين بروايته رجل يدعى عيضة الذويبي وهو من قبيلة الذويبات ، من بني سعد ، توفي مؤخراً . كان واسع الروايه يحفظ كثيراً من شعر الشريف زيد بن فواز ، وقد مات ما يحفظه بموته إلا ما نقل عنه .

والمشهورون بالرواية والحفظ كثيرون في مكة والطائف أما القبائل فالرواة فيها لايحصون كثرة ، ولا فائدة من تتبع أسمائهم .

---

(١) القاف : القافية .

الحمينى

لغته وأمثلة منها

من القواعد المعروفة فى أدب كل أمة ينطق شعراؤها بلسان خاصتها وعامتها ، كما كانت حال الأدب فى صدر الإسلام وقبله ، إن لغة الشعر فيها تمتاز قليلا أو كثيراً عن اللغة الشائعة ، بحيث يجد القارىء والسامع ألفاظاً مصقولة، وتراكيب مقبولة، واستعارات وكنايات، وتشابيه وإيماآت لا تعثر عليها فى غير لغة الأدب والشعر .

ولما كان قائلو الحمينى من أولئك الشعراء الذين يخاطبون أقوامهم بلغاتهم لم يكن من الغريب أن يدخل شعرهم دخيل جديد أو استعمال لم يسبقهم إليه غيرهم من أبناء باديتهم .

فهم إذاً حملة مقاليد اللغة فيهم ، يتصرفون فى أساليبها وجموعها ومحدثها وموضوعها كما تشاء لهم قرائحهم وكما تدعو إليه أوزانهم الشعرية .

ترى أحدهم يريد أن يقول « إذا » فيقول « لا » أو « اليا » ومثالهما « لا جاك فلان » أى إذا جاءك فلان . « واليا نصيت الربع » أى إذا قصدت الربع و« نصاه » عندهم بمعنى قصده ويشتقون من هذه اللفظة فعلا مضارعاً « ننصى » ويقولون « منصاك دار فلان » أى قصدك ووجهتك . ويقولون « ليا فعلت كذا » أى إذا فعلت كذا . ويكسرون ياء المضارعة فى كل مضارع ويقولون « اللى» بمعنى الذى و « برضه » بمعنى أيضاً أخذوها من عامة مصر . ويكثرون من وصل همزات القطع فى الأفعال وغيرها . والسكون فى أواخر الكلمات يكاد يكون عاماً . ويسمون الجواب « رداداً » . وفى لغتهم كثير مما لاينطق به العامة فى مصر والشام وغيرهما شأن كل لغة عامية فى أقطار العرب خاصة . وهم يجمعون « مارتينية » — البندقية — على موارت وواريت . والموزر على ميازر إلى غير ذلك مما يحتاج إلى معجم كبير !

أوزان الحميني

قد يسبق إلى ذهن من يسمع القليل من الحميني أن شعراء البادية لا أوزان للشعر عندهم ، وهو ليس بصواب . فهناك بحور (لا تفاعيل) ومقاطع لا أسباب وأوتاد (غير أنهم أشبه بشعراء الجاهلية قبل أن يعرف البسيط والطويل والوافر ، والمقصور والمجزوء والمشطور ؟

وكما كان الشاعر الجاهلي يقول الشطر الأول أو البيت الأول من القصيدة وهو لم يسمع بتفاعيل الخليل فيجري إلى آخر القصيدة على نظام واحد ونسق واحد ، كذلك تجد الشاعر البدوي يبتدىء بلالاته (أي يقول قبل الشروع بالقصيدة : يالالالالا للي ، لي لالالالاللا — أو مايوافق النغم الذي يريد أن ينظم القصيدة فيه) ثم يرتجل القصيدة لايختلف البيت عن الآخر وزناً وقافية وإنما دليله النغم واللالات لاغير .

وقد يقول أحدهم الشعر (الحميني) دون أن يبدأ باللالات أويضع نغماً، متكلا على سليقته الشعرية فيأتي بالموزون الذي لاعيب فيه عندهم .

وشعراء البادية أقرب إلى الطريقة الإفرنجية في أوزان شعرهم فإنهم يعتمدون على المقاطع وهي كالأسباب في عروض العرب ، يدل على هذا أنهم لاتكاد تمر بهم كلمة ذات ثلاثة متحركات الاسكنوا أحدها فليس في شعرهم (متفاعلن) ولا (مفاعلتن) وهذه الطريقة — أي طريقة المقاطع — هي العامة في شعر أكثر اللغات بل جميع لغات أوروبا كالانجليزية والفرنساوية والألمانية وغيرها. ولقد حاول منذ سنين أحد متأدبي العرب أن يعتمد في تلقين علم العروض على المقاطع فيهمل التفاعيل فلم ينجح لما في الشعر العربي من الكلمات الكثيرة الحركات ولأن المد في غير موضعه خطأ معيب في اللغة العربية .

وخلاصة القول في أوزان الحميني أن قائليه يشبهون شعراء العرب **قبل وضع العروض بإخراج القصيدة متساوية مع المطلع : وإن وزنوا**

الشعر . فميزانهم المقاطع (لالالا) وتسكين المتحرك ومد أحد المتحركين كثير فى شعرهم .

وقد يسمون بعض أنواع الشعر بأسماء اصطلحوا عليها كتسميتهم (المجرور) لما يلتزم فيه ناظمه التسميط — وقد تقدم من نوعه بيتان من الحمينى فى الكلام على جبلى شر قرق وعكابه —

وأوزانهم كأوزان شعر العامة فى مصر والشام أى كالزجل والمعنى والقراديات فكلاهما معتمد على المقاطع .

الحضر والبدو

والتمييز بين شعريهما

مهما حاول الحضرى المجاور للبادية أن ينسج على منوال البدوى فى شعره « الحمينى » لم يستطع أن يخفى ما هناك من الفرق الذى يدركه منعم النظر فى نظميهما ، فإن فى حمينى الحضرى صنعة ظاهرة لاتبدو فى حمينى البدوى ، كما أن الشاعر البدوى أجرأ على التصرف بلغته من الشاعر الحضرى الذى يتكلفها تكلفاً ، ويقلدبها أهلها تقليداً ، وإن اختلط بهم كثيراً وعاشرهم طويلا .

وقد يستطاع التمييز بين النظمين بملاحظة يسيرة ، هى أن شعر ابن الحواضر يبدو قريباً من لغة الحواضر ، فلا يعسر على الأديب الحجازى مثلا أن يفهم جل ما يقوله الشاعر الحجازى من النوع الحمينى ، أما شعر ابن البوادى ففيه وعورة على الحضرى لايكاد يفهمه إلا بعد السؤال وإطالة الإمعان .

وقد يكون مما يتعمده الأول ترقيق ما ينظمه ، فيجيء حاملا برهانه على أنه من غير النفس البدوى ، لأن ما يتناوله هذا من الألفاظ المولدة فى البادية وبين الشعاب وعلى ضفاف العيون والآبار ، لايطوله ذلك البعيد عن الفلاة ، المستعيض عن الخيام بالقصور ، وعن الاحقاف والتلاع بالشوارع والأسواق . وهذا النوع من الشعر لاتوصف فيه على الأكثر حدائق المدن وجناتها ولا أثاثها ورياشها ، وإنما تذكر فى أبياته المضارب والمفاوز والنجود والإيفاع والتهائم والبطاح .

وبينما تسمع الحداة يتغنون بوصف الناقة ورحلها ، والفرس وسبقها ، إذا بك تسمعهم يتغنون بذكر حبال اللؤلؤ وعقود الماس ، فتدرك لأول وهلة أن الأول لشاعر بدوى قح ، والثانى لشاعر حضرى مقلد ، وتمر بك

قصة ابن الرومى الشاعر المشهور وقد قيل له : مالك لاتجد إجادة ابن المعتز فى وصف القصور وزينتها ؟ فقال : ذلك يرى منزله فيحسن وصفه ؟

خذ مثلا قول زيد بن هويشل من « نشيد » له :

الظَّفِرْ لَابُدَّ مِنْ صِغْرُهْ يِبِينْ (١) ظَفِرْ ، ويكْرِمْ سَبالَ الغَانِمِينْ
كُلُّ قَالاتِ الرِّجَالَ الْهَافِطِينْ (٢) قَبلْ يَبْلُغْ بَالعَدَدْ عِشْرِينْ عَامْ
يَا عَرَبْ فَكَّرتْ فى خُبثٍ وِطِيبْ واشْهدَانَّ الفَقْر للظُّفْرانْ ذِيبْ (٣)
قَدْعَرَفَتْ الْمِخْطِيَهْ واللِّى تِصِيبْ يَا عَرَبْ مَنْ لَامَنِى جِعْلَهْ يِلَامْ
أَلفَقُرْ مِثْلَ القِوِىِّ أَمْنَ السُّهُومْ (٤) كُلَّمَا رَاعِيهْ نَاضْ أَزْرَى يِقُومْ (٥)
وَالْغنَاوِى صَنْعَةَ الحَمْرَا العَزُومْ مَا يِرَيِّعْهَا رَسَنْهَا وَاللِّجَامْ (٦)
ذَا ، وِيَارَاكِبْ عَلى نَابَ المُتونْ مِنْوَةَ اللِّى دايِمًا يَقْضِى الديُّونْ (٧)
طُولْ صَيْفُهْ مِكْتَلِى نَبْتَ الفُنُونْ مَايَعَشَّى غَيْر فى رُوسَ العَدَامْ (٨)
أَشْقَرٍ زَايِدْ عَلى جَمْعَ الحَرَارْ لَوْ تِشُوفُهْ مَا على وَصْفُهْ خِيَارْ (٩)

---

(١) الظفر بفتح فكسر – الشاب .
(٢) قالات : أقوال .
(٣) الظفران : الشبان .
(٤) السهوم : السهام .
(٥) راعيه : صاحبه . ناض : نهض . ازرى : عجز .
(٦) الغناوى : جمع للغنى عندهم . وصنعة : مثل وشبه . العزوم : القوية . يريعها : يردها . يعنى : ان الغنى كالفرس الحمراء القوية لايردها رسنها ولا لجامها .
(٧) المنوة : الامنية – واحدة الامانى .
(٨) المكتلى : آكل الكلأ ، ويريد هنا السمين . مايعشى الخ : أى لايتعشى فى غير التلال الرملية المنبتة .
(٩) أشقر الخ . يصف جملا أصيلا .

يِنْلَقى وِسْمُهْ عَلَى الخَدّْ اليَسَارْ   مِثلْ رَسْمَ النِّيلْ فى رَاعِى الذِّمَامْ[١]
وَالرِّقَيبَهْ مِثْلْ مَنْحُوفَ الجرِيدْ   مَا تِقُولْ إِلاَّ ضَياحِيٌّ فرِيدْ[٢]
وَالْعِظامْ امْرا كبَّاتٍ مِنْ حِدِيدْ   كِنَّ مَبْرُومَ الحِدِيد إلَهْ عِظَامْ[٣]
وَالْبِطَيْنْ اضْوَيمِرٍ كِنَّهْ هِلَالْ   وِسِعْدَانْتَهْ الَّذى مِثْلَ الرِّيَالْ[٤]
وَالْخِفَافْ اصْغَيِّرَهْ فِيهَا احْتِمالْ   وَارِد السِّنسُونْ مَرْكُوزَ السَّنَامْ[٥]

وخذ قول الشريف عبد الله بن محمد بن هزاع من «نشيد» أيضًا :

آهْ مِنْ قَلْبٍ تَعَنَّى وانْقَسَمْ   أَتْعبَ الأَعْيَانْ وأَغدَانى سِقِيمْ[٦]
فِى هَوى مَنْ فَاقْ حُسنَهْ واسْتَتَمْ   فاقْ جَمْعَ الخُودْ لَمْ جَالُهْ حِتِيمْ[٧]
إِنْ عَفَا وَأَصْلَحْ وَفى عَبْدُهْ رَحَمْ   هُوَ هَوى رُوحيِ وَلَاغَيرَهْ نِدِيمْ
وإِنْ حَصَلْ لِى قَتلْ مِنْ بَعدْ الأَلَمْ   هُو غِرِيمِى لَيسْ لِى غيرَهْ غِرِيمْ

فإذا قابلت بين القولين اتضح لك جلياً أن الأول شعر بدوى والثانى شعر حضرى .

ومن أمثلة البدوى قول الشريف حامد بن عبد الله من « نشيد » طويل يوصى به أبناً له اسمه « سعد » :

يَقُولْ حَامِدْ يَومْ هجْرَسْ بِالغِنَا   حِدِيثْ أَحْلَى مِنْ حِلِيبَ القُودْ[٨]

(١) النيل : النيلة . راعى الذمام : يريد ربة الخدر الموشومة .
(٢) الرقيبة : تصغير الرقبة . الضياحى : الغزال .
(٣) أى كأن مبروم الحديد عظام له .
(٤) سعدانة البعير : مادون صدره ، يرتكز عليها عند القعود .
(٥) الوارد : الطويل . والسنسون : الظهر . يريد : طويل الظهر مستقيم السنام .
(٦) الاعيان : العيون .
(٧) لم جاله : لم يجىء له . حتيم : شبيه ونظير .
(٨) هجرس بالغنا : رفع صوته بالغناء .

تَهَيَّضْتْ وَابْدِعْ مِنْ خِيارَ المَثايِلْ ... أَغْنَى بِهَا يَومَ العِبَادِ ارْقُودْ(١)

عَسَى اللّهْ يَخلِّي «سَعَدْ» يَحْتَضِي بي ... لَا لِسْتَوى فِي قَبْرِى المَلْحُودْ(٢)

أَنا أَوْصِيَكْ مِنِّي يا سَعدْ وَاسْتَمعْ لِي ... إفْطَنْ وَلَا تَنْسى وصَاةَ العَودْ

أَوْصِيكْ فِي اسْنَاعِ الشَّكالَهْ تفيدَهَا ... تَرى الشَّكالَهْ حَبْلَهَا مَمْدُودْ(٣)

وَاوْصِيكَ فِي ضَيْفَكْ إلْيا جَاكْ حِشْمَهْ ... تَجمَّلْ وِرَحِّبْ بَهْ عَلى المَاجُودْ(٤)

تَرَاكْ إذا رَحَّبْتَ بَهْ مَا يِذُمَّكْ ... وِاليَاقَفيتَهْ يِلْحقَكْ مَنْقُودْ(٥)

واوْصِيكْ جَارَكْ وَرِّه القَدرْ والْغَلَى ... تَرَى الْجَارْ لَابُدَّكْ عَنْهْ مَنْشُودْ(٦)

خَلَّكْ لَطِيفٍ لَهْ وِزِدْ فِي وُجُوبَهْ ... يَشْهَدْ لَكَ اللّهْ وَالْعِبَاد اشْهُودْ(٧)

وَاحْذَرْ عَلَى جَارَتْكْ مِنْ هَمْزَة الرّدى ... تَرَى الرَّدِى مَا فِيدِمِنْهُ ارْشُودْ(٨)

أَوْصِيكْ فِي عِزّ الرَّفَاقَهْ وُحُبُّهُمْ ... إرْفِقْ لَهُمْ وَاحْذَرْ تِجى احْسُودْ

تَرَى الرّفَاقَهْ دِرْعْ جَنْبَكْ وِسَيفَكْ ... وُهُمْ حِشْمَتَكْ لَاجَا عَلَيكْ اضْهُودْ(٩)

هُمْ ضِلْعَكَ الّلي لَا زَبنْتَهْ يزِبْنَكْ ... وانْجَا العَدُوّ يَرقْ مَعَاهْ سْنُودْ(١٠)

خَلَّكْ لِرَبْعَكْ سَهْل وَاسْهَلْ مِنَ العَسَلْ ... تَراهُمْ عْضُودَكْ يَومْ مَاش اعْضُودْ(١١)

---

(١) تهيضت : تفكرت . المثايل : كأنها جمع امثولة .

(٢) يحتضى : يحظى : لالستوى : إلى أن استوى .

(٣) الشكالة : الشجاعة .

(٤) اليا : اذا . الماجود : الموجود .

(٥) قفيته : اعرضت عنه .

(٦) وره : اره . لا بدك الخ : لابد لك من أن تكون مسؤولا عنه .

(٧) الوجوب : جمع واجب .

(٨) فاد : كسب . رشود : جمع رشد .

(٩) لاجا : اذا جاء . ضهود : اضطهادات .

(١٠) زبنته : صنته . سنود : جمع سند .

(١١) عضود جمع عضد . يوم ماش عضود : يوم لا يوجد من يعضدك .

وَوَصِّيكْ حُطّ الصَّمتْ والصِّدقْ شِرْعَتَكْ وَادْرِنْ تَرى الثِّنتَيْن مِنْهَا الفَودْ(١)

وَوَصِّيكْ فِى عَانِيكْ لَاتِرْتَخِى لَهْ خَلَّكْ كَمَا حَدَّ الشَّبَا المَحْدُودْ

وِالْيَاتَبَيَّنْ لَكْ خِصِيْم فاخْصُمَهْ إكْسِرْ مَقامَهْ مِثْل كَسْرَ العُودْ

لَاتِنْكِرْ الصَّايِبْ وَلَا تَقْبَلَ الْخَطَا وِتْصِيرْ حَيدْ إلْيَانصَاك احْيُودْ(٢)

وَاتْرُكْ مُولَّفْةَ الهُروج الضَّايعَهْ لَوْكَانْ زَالُوا فِى نَظَرْكْ صْهُودْ(٣)

ضَرَّابَة المَجْلِسْ كِثِيرٍ هَدَرْهُمْ مَا يِنْعَرِفْ لِعْلُومَهُمْ ارْدُودْ

وَابْعِدْ عَنْ أَهْلَ الشَّذْب وَاهْلَ النَّمهْ تَرَاهَا تِوِرِّدْ لَاهِبَ الْوقُودْ(٤)

وَاحْذَرْ عَدُوَّكْ لَوْتِشُوفُهْ ضِحِكْ لَكْ لَا تَامَنْهْ لَوْ عَاهَدَكْ بِعْهُودْ

وَلَا تَسْتَمِعْ فِى شَارْ مَنْ لَا يِعِزَّكْ خَلَّكْ وِثِيقَ السَّدْ فَرِدْ افْرُودْ(٥)

إدْرِنْتْ تَوَاصِيفَ الرِّجَال عِدِيهْ وَاهْلَ الشِّكَالَهْ عِلْمَهُمْ مَاكُودْ(٦)

فِيهِمْ صِبِيٍّ يَحْرُزَ العِلْمَ كُلَّهْ كَمَا حَدّ سَيْفٍ بَاتِعٍ قَصُّودْ(٧)

فَتَّالْ نَقَّاضَ العُلُومَ العِسِيرَهْ طِهْطَامْ لَطَّامَ العِدَى صِنْدُودْ(٨)

وِفِيهِمْ غَنِيٍّ مَا يِشِحّ ابْمَالُهْ يَكْرِمْ وَلَوْ كَانَ الزَّمَانْ اطْرُودْ

وِفِيهِمْ غَنِيٍّ مَا يِضَيِّفْ ضَيْفَهْ هَا ذَاكْ يَا كُلْ رَأَسه العَبْرُودْ(٩)

---

(١) وادرن : واذا بك . الفود الفائدة

(٢) الحيد : الجبل .

(٣) الهروج : الاقوال ، يقولون : فلان يهرج أى يتكلم . وزالوا : ظهروا صهود : كبار عظام . يعنى : واترك من يألفون سدى القول ولو ظهروا أمامك كباراً .

(٤) الشذب : الكذب . النمه : النميمة .

(٥) شار : مشورة .

(٦) ادرنت : إدرأنت . الشكالة : الشجاعة . ماكود : مؤكد .

(٧) صبى : يريد فتى .

(٨) صندود : صنديد .

(٩) العبرود من أسماء البندقية عند بعضهم .

وَفِيهِمْ صِبِيٌّ لَا لَفوهُ اضْيوفَهْ   يَفْرَحْ وَيَنْشَطْ مايَجِيهْ الكَودْ(١)

إلى أن يقول :

دِرْتَ المَكَايِرْ فِى تَواصِيفَ النِّسَا   إلْيَاهُنْ بالْحَلَايَاوالطِّبُوعْ جْنُودْ

فِيهِنِ مَنْ تَسْوى مِنَ الخَيْلْ أَصِيلَهْ   وِفِيهِنّ مَنْ لَاتَسْوَى مِقَصّ اجْلُودْ(٢)

وهذه القصيدة نحو مئة بيت أملاها على ناظمها .

* * *

ومن أمثلة الحضرى قول الشريف زيد بن فواز بن ناصر ، وكان حاكم الطائف ، من قصيدة يرثى بها أخاه الشريف راجحاً :

ثَارَتْ احْزانِى بَعَدْ كُلٍّ رَقَدْ   وَاشْتَعَلْ فِى دَاخِلَ الجَوْفْ الْتِهابْ

وَانْسَكَبْ دَمْعِى عَلَى خَدِّى جَدَدْ   إنْسِكَابَ الوَبلْ مِنْ غُرّ السَّحَابْ(٣)

آهْ واوُجْدِى وَمَنْ مِثْلِى وَجَدْ   بَعدْ ماوَارِيتْ رَاجِحْ فى التُّرَابْ

جَل مَفْقُودِى وَمَنْ مِثْلِى فَقَدْ   يَاابْن أَبُوىْ امْسَيْتْ بَعْدَكْ فِى عَذَابْ

يَامَتِينَ الدِّينْ يَاناقِى الْجَسَدْ   يَاأَخِى يَاعَبدْ هَشَّالَ الرِّكَابْ (٤)

يَا عزِيزِ الجارْ وِانْ قلّ الجَهَدْ   يا صَدُوقَ اللَّفظْ يا حِلْوَ الْخِطَابْ

يَاشَقِيقِى بَعْدَ حَلِّيتَ اللَّحدْ   إخْتَفَى زَوَلَكْ وطَاوَلْتْ المابْ(٥)

حَالِفًا مَا انْسَاكْ لَوْ طَالَ الأَبدْ   لَوْتِغِيبَ الشَّمسْ وِيشيبَ الْغُرَابْ

والأمثلة على النوعين ، من شعر البداة وأهل الحواضر ، كثيرة تضيق عن استيعابها المجلدات(٦) .

---

(١) لالفوه : اذا دخلوا عليه . الكود : الكسل .

(٢) الياهن : فاذا هن . الطبوع : الطباع . يقول : اجلت الفكر فى أوصاف النساء فاذاهن فى صفاتهن وطباعهن أنواع وجنود مجندة .

(٣) جدد : متتابع .

(٤) الناقى : النقى . هشال الركاب : تتابع الضيوف من الركبان يريد : ياعبد الضيوف

(٥) زولك : ظلك .

(٦) انظر القصيدة بكاملها فى الجزء الاول من الأزهار النادية من أشعار البادية .

الردح

الردح — وتسميه هذيل الرجز — وكلاهما بفتح أوله وثانية ، — هو فى عرفهم : أن يسير جمع من الناس ، أو يصطفوا وقوفاً يتوسطهم شاعرهم ، فيبدأ باللالات (السابق ذكرها فى بحث الأوزان[١] ثم يرتجل البيت من الحمينى ، فيعيدونه جميعهم هازجين ، ويستمر يرتجل ماتجود به قريحته حتى ينتهى من نشيده (قصيدته) فإن شاء ابتدأ نشيداً ثانياً فافتتح باللالات الموافقة لوزنة المنوى وإلا تقدم شاعر آخر ، وهلم جراً . وقبل أن يبدأ الشاعر « يبيشنون » كلهم والبيشنة فى لغتهم الهتاف ، وهى مثل « الشوباش » فى لغة عوام الشام ، يرفعون بها أصواتهم وسلاحهم ترحيباً بالشاعر بعد أن يرفع يده مشيراً إلى أنه سيبدأ .

وقد شهدنا كثيراً من هذه المشاهد فى الحجاز ، غير أن بطء فهمنا عن إدراك معنى ما يقوله الشعراء كان كثيراً مايمنعنا عن كتابة ألفاظ الشاعر وهو يرتجل .

على أن « الردح » لايشترط فيه الارتجال على الشاعر عندهم ، بل يباح له أن يتلو ما حفظه من نظمه أو نظم غيره إذا كان يتفق مع الموضوع الذى دعاهم للإنشاد بخلاف « القصيد » فى عرفهم وهو المساجلة كما قدمنا فإن الشاعرين يضطران فيه إلى الارتجال .

(١) انظر صفحة ٢٣٣ — ٢٣٤

اختلاف الأساليب

لكل بادية من بوادى الحجاز واليمن والعراق والشام أسلوب خاص فى شعرها ، وقد يبين هذا الفرق فى أوزانها وفى لغتها أو وفى بيانها .

فأما الأوزان فتابعة للأنغام أو الموسيقى الطبيعية ، ولكل من بوادى هذه الأقطار ألحان خاصة وهوى فى الإنشاد لايتفق مع هوى غيره ، فنشأ عن ذلك اختلاف الأوزان فى أشعارهم .

وأما اللغة فالبادية لاتقتصر على اختلاف كل قطر عن الآخر فى لغته أو لهجته بل كثيراً ما تجد فى بادية القطر الواحد فروقاً واضحة بين القبيلتين المتجاورتين سكناً أو المختلطتين لبناً . ولا يكون اختلاف أبناء البادية الواحدة فى أكثر من كلمات يسيرة ، ويتسع الاختلاف باتساع مسافة البعد بين الأقطار . فكلما كانوا متقاربين ازدادوا تساهلا فى اللهجتين فتناسى كل اناس كلمات أو نبرات لاتجىء فى كلام غيرهم .

ولا ينفرد سكان البوادى فى اختلاف لهجات بعضهم عن بعض بل ذلك شأن كل لغة لاضوابط لها ولا قواعد ، من لغات العامة فى كل أمة وكل مكان ، خذ مثلا لهجة عامة الحضر ففى كلام المصرى العامى مالا يفهمه الشامى وفى كلام الشامى العامى ما لايفهمه المصرى وكذا يصح القول عن العراقى والحجازى واليمانى وغيرهم من عوام الحواضر العربية .

وأما البيان فعى المعانى وصور التعبير ، حيث ترى التباين لائحاً وإن لم تختلف هيأة البوادى بعضها عن بعض . ويكون ذلك على الغالب فى خصائص عنى بها بدوى قطر وأهملها بدوى قطر آخر ، فجرت فى سليقتهم الشعرية معان يتعاورونها ويتوارثونها خلفاً عن سلف .

مثال هذا التباين أن بداة اليمن اعتادوا أن يعتنوا بتجانس الألفاظ ، فكثر الجناس البديعى فى أشعارهم ، فاختلفت صورة التعبير فيهم عن صوره فى غيرهم .

وعنى بداة الحجاز فى معانيهم فجنحوا إلى الإكثار من الكنايات وعابوا الشاعر منهم إذا هجا فصرح، حتى إن أحدهم إذا أراد التشوق إلى نشوب الحرب ربما قال: «متى تنزل يامطر؟» وفى الكناية بالمعانى والتورية بالألفاظ دقة تدل على صفاء الفهوم ونقاوة الأذهان . وهذا النوع كثير فى شعر بادية الحجاز قد لاينتبه إليه غير أحدهم أو من ألف حلّ معمياتهم من المختلطين بهم .

تداول الحميني

فى كثير من سكان البادية تهيؤ طبيعي لحفظ ما يستحسنون مما يسمعون ، وهو شأن الأمية فى كل أمة . وحامل القلم قل أن يجارى الأمى فى حفظه لما يسمع ، وسبب ذلك اعتماد الأول على ما يكتب واعتماد الثانى على مايعى فضعفت ذاكرة الأول وقويت ذاكرة الثانى .

أما الشعر فهم مضطرون إلى حفظه على الخصوص ، لامور : منها أن فيه ما يذكرهم بوقائعهم . وأنه موضوع سمرهم فى كثير من مجالسهم وأوقات فراغهم . وأنه غناؤهم الذى به يترنمون ، وحداؤهم الذى تحن إليه إبلهم وتشتد فى جريها . وأنه لاينشر فى كتاب أو صحيفة . فإن لم يقيد فى أدمغتهم ضاع ونسى ولم يعمر طويلا .

ومن أعظم الأسباب الداعية إلى تداول البداة أشعارهم ، وحفظهم لها ، أن جل أمراء القبائل وشيوخها يحفظون الشعر البدوى ويروونه ، وكثيراً منهم يقولونه ويجيدونه .

وكثيراً ما رأينا أحد الأمراء أو الاشراف أو الكبراء تنشد بين يديه القطعة من الحميني أو تجول فى خاطره فلا يذكر بقيتها ، فيقول : هذا النشيد يحفظه فلان أو فلان ، فيستدعيهما إليه أو يكتفى بأحدهما فيستنشده ، ولا يخفى ما يكون لهذه العناية من التأثير فى نفوس القوم إذ يعلمون أن ما يحفظونه قد يدعو إلى ارسال الأمير أو الكبير رسلا إليهم يدعونهم إلى حضرة من لايروقهم شيء كالتقرب منه والتحبب إليه .

والغناء أيضاً سبب عظيم من أسباب انتشار الشعر وتداوله . فلقد أثر فى الشعر الصحيح وأضعف العناية به فى الحواضر ، عدول المنشدين والمغنين عن رقيقه ونقيه إلى ما يلفقونه من هراء العامة ومستنكر عجمتها ، وأما البادية فهى على أميتها وعاميتها محافظة أبداً على التغنى والحداء بما تسميه شعراً ، بل بما هو الشعر فى عرفها واتفاقها .

شعراء البادية

فى فلوات الحجاز الآن وحواضرها عدد كبير من قائلى شعر البادية ، ليس من شأنى ، فى هذا البحث ، احصاؤه واستيعابه . وإنما أذكر جماعة ممن علت شهرتهم ، وعرفت شيئاً من آثارهم أو قليلا من أخبارهم ، أو اجتمعت بهم . ومجال الاستقصاء رحب أمام من يتصدى له أو يرى وضع كتاب منفرد لهذا الموضوع يعرضه بضاعة جديدة فى سوق الأدب أو فكاهة مستطرفة للأدباء والمتأدبين .

من أشهر قائلى الحمينى الآن فى بادية الحجاز « جمهور العدوانى » وهو فى سن تناهز الخمسين ، من قبيلة عدوان فى شرق الطائف ، منازلها فى العقرب والفريدة — وهما قريتان تبعدان عن الطائف مسيرة ست ساعات — وجمهور هذا هو الشاعر من سكان الفريدة .

ومن مشاهيرهم الشريف حامد بن عبد الله بن راجح العبدلى من أمراء تربه[1] وهو بدوى قح فى لغته ونشأته وله حمينى كثير . وقد كف بصر هذا الشاعر منذ اثنى عشر عاماً وهو الآن فى نحو الخامسة والخمسين من عمره .

اجتمعت به واستنشدته فأنشدنى كثيراً من شعره وشعر غيره ، ولاسيما نمر بن عدوان ، وما كنت أستطيع فهم كلامه لما فيه من غريب كلم البداة لولا أن أسعفنى أحد أشراف مكة بأن كان يترجم لكل منا ما يقوله الآخر !

ولهذا الشاعر قوة عجيبة على الارتجال ، يقول المئة من الأبيات وقد يزيد عليها ، ولايتلكأ ولايتعلثم ، وإنما يستعين بفاصلة صغيرة بين البيتين.

---

(١) بثلاث فتحات متوالية كما هو الشائع اليوم وهى قرية كبيرة تبعد عن الطائف إلى شرقه مسيرة ثلاثة أيام وفيها نخيل وآبار كثيرة وواد متسع . وفى معجم البلدان أنها بضم ففتحتين ، قال : وبها ولد ملاعب الاسنة. (المؤلف)

وقد سبق لى ايراد شىء من شعره . وله من قصيدة تناهز ١٢٠ بيتاً أنشدها بين يدى الملك حسين على أثر النهضة :

أَبُوْ عَلِى اللِّى كَالْ كَيْلُهْ بَالْوَفَا وَاهْلَ الخِيَانَهْ نَاقِصٍ مِكْيَالَها

إِلْيَانَوَى يَعْطِى الْعَطَايَا الوَافِيَهْ يَعْطِى الفُلوسَ جِنيَهَهَا وَرِيَالَهَا

بَحْرًا عَمِيقًا يَومْ يَصْفِقْ مَوجَهُ يِعَبِّى تخاتِيخَ السَّهَلْ وَاجزَالها[1]

ومن المشاهير أيضاً الشريف هزاع بن عبد الله من ذوى حسين . مكثر من قول الحمينى ، يسكن وادى فاطمة بجوار مكة .

ومنهم مقيبل الوديود الحميدى[2] الثقفى . كان فقيراً معدماً واتى

---

(١) التخاتيخ والاجزال : يريد الاخاديد والهضاب وتقع هذه القصيدة أكثر من مائة بيت ، وقد التقطت من اضبارات سيدى الولد منها :

يِومْ ازْرَوُا الحُكَّامْ عَنْ رُوقْيَا الْعُلَا يقولْ أَبُو فَيصَلْ تَرَى حِنَّالَهَا

إِلْتَمَّتْ التُّرْكْ الطَّغَمْ لِلْعَبْدَ لِى عَجِّلْ سَبَبْهَا بُوعَلِى مَا امْدَالَهَا

يَا وَيِلْ حُمْرانَ الوُجُوهْ امْنَ الكُرَبْ رَبِّى نَقَمْهَا لَينْ شَيَّنْ فَالَهَا

أَنْوَرْ يَلِيِّمْ عَسْكَرُهْ مَا تِنْحَصِى وِحْسَينْ بَالجَمْع الرَّزِينْ ارْزَالَهَا

يَومْ اطْلَعَتْ حُمْرَا الْمَنَايَا فَوقَهُمْ كِنّ الأَرَاضِى قَايمٍ زِلْزَالَها

رَبَّى مِحَسِّنَةَ اللِّحَى لَينْ اسْجَدُوا وِلْيَا لَطَمْ عَينَ العَدُوّْ مَا وَالَهَا

نِسْيَوْ جَمِيلَهْ يَومْ فَكَّ ارْقَابَهُمْ مِنْ حوْزَةَ السَّيِّدْ نَهارَ اوْمِى لَهَا

مَانَا بَزُرْ إِلْيَا بَدَعْتَ القَافِيَهْ أَلْقَافِيهْ صَابِرْ عَلَى عَدَّالَهَا

تَمَّيتْ قَولِى وَانْقُدُهْ نَقْدَ الذَّهَبْ كُلَّ الْمَعَانِى عَارِفٍ مِقْذَالَها

(٢) نسبة إلى قبيلة الحمدة من بقايا ثقيف فى مدينة الطائف .

الطائف فتعلم مبادىء القراءة والكتابة . وأقام فيه يقرىء الأطفال (ويسمونهم ألبزورة والورعان (ويكتب الرسائل للبدو بالأجرة . مات حوالى سنة **١٣٢٥** وقد تقدم شيء من نظمه .

ومنهم الشريف زيد بن فواز . قال أحد عارفيه : كان بارعاً فى القصيد (المساجلة) لايقف أحد أمامه . وعرف بعده ابناه الشريفان : حمود وشاكر ابنا زيد بن فواز بنظم الحميني . وقد اجتمعت بشاكر ثانى يوم وصولى إلى مكة قبل سفره مع الأمير عبد الله إلى الديار الشامية .

وكان الشريف زيد بن فواز ، حاكم الطائف ، وأشهر شعره الحميني ، مراثيه فى أخيه الشريف راجح وقد سبق لنا ذكر أبيات منها . ومن أقواله فى رثائه :

يَا قَبْرَ سِيدِى سقاكَ الغَيْثْ مِنْ عِزَّ الفُؤادْ
خَلَّيْتَنِى فى عَنَا وَالْقَلبْ فى نَارٍ شِبِيبَهْ
لَانِى بِسَامِعْ نِدَاكْ ، وَلَا مجِيبَكْ لَوْ تِنَادِى [١]
بَيْنِى وِبَينَكْ هِيَالَ القَوزْ وِصْخَارٍ صِلِيبَهْ [٢]

واتصل هذا البيتان بالوديود الشاعر فقال يجيبه بلسان المرثى :

أَنَا نِزِيلْ افْسُوحْ اللِّى رَؤُوفٍ بِالْعِبَادِ
فى جنَّةَ الخُلْدْ وَالْفِرْدَوْس وِثْمارًا عِجِيبَهْ
كَتَبْ لِىَ اللّهْ فى دَارَ البَقَا شُرْبًا وِزَادِى
عِنْدَ النَّعِيمِ الْمقِيمْ ، وِكلّ مُسْلِمْ لَهْ نِصِيبَهْ
إنْ غَابْ شَخْصِى فَإنَّ النَّصْر مِثْلَ الشَّمْسَ بَادِى
وَالْعزّ مَاجُودْ فَايحْ لِلْعَرَبْ مِسْكَهْ وِطِيبهْ [٣]

(١) لانى : لست .
(٢) الهيال التراب المهيل على القبر . والقوز : المقبرة . والصخار صخور . خ
(٣) ماجود . موجود (خ)

عِنْدَكْ رِجَالْ إِلْهُمْ طُولَ البَقا ، شُجْعَ الأَيادِى

وَأَنْت كَمَا الْحَيدْ مَالَكْ عَنْ ظِلالَتْهُم مِغيبَهْ (١)

يَا زَيدْ خَلَّكْ صَبُورْ ، وِكُلّ زَرْعٍ لِلْحَصَادِ

والْيَاوَفَى العُمرْ سَهْم المَوتْ مَايِخْطِى الضَّرِيبَهْ (٢)

أَنَا اعْرِفْ انَّكْ مِحبّ وِسَالْ دَمْعَكْ فى وِدادِى

وَالْعُمرْ مَحْتُومْ وَأَمْر الله ماضِى فى الْغِصِنيبَهْ

وَلَا تَجْزَعْ هدَاكَ اللهْ رَبِّى خَيْرِ هادِى

يَبشّر الصَّابِرينْ ابْصَبْرِهُمْ عِنْدَ الْمِصِيبَهْ

ومن أكثر شعرائهم أخباراً ، وأوفرهم أشعاراً ، ناظم الفنين القريض والحمينى ، المجيد فيهما معاً، الشيخ بديوى الوقدانى ،من قبيلة وقدان . كان فى بدء أمره مشهوراً بنظم الحمينى ، ثم قصد مكة فقرأ قليلا من النحو والأدب وعاد إلى بادية الطائف فنظم القريض وفاق فيه أقرانه وتوفى سنة ١٢٩٦ ه :

وقد سبق ذكره فى الكلام على القريض . وأما الحمينى فمن قوله فيه يشكو انحباس الغيث :

ضَاقَتْ بِنَا الأَرْضْ وَاشْتَبَّتْ شَبَايِبْهَا

والْغَيثْ مَحْبُوسْ يا مَعْبُودْ يا والِى !

يا اللهْ مِنْ مُزْنَةٍ هَبَّتْ هَبَايِبْهَا

رعَّادَهَا بَاتْ لَهْ فِى البَحْرِ زِلْزَالِ (٣)

(١) الحيد : ضلع الجبل ، يقول له . وانت كضلع الجبل لا تغيب عن إظلالهم .

(٢) واليا : واذا (ح) .

(٣) يا الله من مزنة : هل من مزنة ؟ . رعادها : رعدها .

رِيَحَ الْعَوالِي مِنَ الْمَنْشَا تِجَاذِبْهَا
جذْبَ الدِّلِي مِنْ جَبَا مَطْوِيَّةَ الجالِ[١]
تَسْقِي دِيَارًا شَدِيدَ الوَقْتْ حارَبْها
مَا عَادْ فِيهَا لِبغْضَ النَّاسْ مِنْزَالِ
دَيْمُومَةٍ سَبلَتْ وارْخَتْ ذَوَايِبْهَا
وَانْهَلَّ مِنْهَا غَزِيرَ الوَبلْ همَّالِ
الْمَالْ يِحْيِي رِجَالًا لَا حيَاة بْها
وَالْوَبلْ يِحْيِي مَكَانَ المَنْبَتَ الْبَالِي !!

وله من قصيدة :

دُنْيَاكْ هَذِي كُلَّهَا هَزِّ قَاوُوقْ — مَاتَعْرِفْ الصَّاحِبْ مِنَ اللِّي مِعَادِيكْ
وَاكْثَرْ كَلَام النَّاس بِالمكْروالبَوْق[٢] — يَهْرِجْ مَعَكْ وِالْيَاتقَفَّيتْ يرْمِيكْ[٣]
وَالْمَالْ دَايِمْ صاحِبُهْ مِرْتَفِعْ فَوقْ ! — وَالقِلّ خَايِبْ لَوْتَرفَّعتْ يرْخِيكْ[٤]

وهو القائل :

إِنفَكَّتْ السُّبْحَهْ وِضَاعَ الخرَزْ ضَاعْ
وِبغَيتْ أَلُمَّهْ يَا سْلَيمانْ وزْرَيتْهْ
صَارَ الذَّهَبْ قَصْدِيرْ وَالْوَرْدْ نِعْنَاعْ
أَنْكَرْتْ رِيحَهْ مِخْتَلِفْ يَومْ شَمَّيتْهْ

---

(١) ريح العوالى : التى تهب من اعالى الاماكن . المنشا : يريد السحاب الناشىء من جهة البحر . الدلى : الدلاء . الجبا : فم البئر . جال البئر : بطنها .
(٢) البوق : الخيانة .
(٣) يهرج : يتكلم . اليا : اذا (خ) .
(٤) القل : الفقر . (خ)

أَلْبابْ طَايِحْ والْمَسَامِيرْ خُلَّاعْ

وَالْحَبْ فِيهِ السُّوسْ وَالْفَارْ فِى البَيْتْ

أَمْسيتْ أَكِيلَ الرّايْ بِالمُدّ وَالصَّاعْ

قِسْت الأُمُورْ وِعْفِتَها لمَا اتْوَرِيتْ

لَا فَاقِدَ الحِيلَةْ وَلَا قَاصِرَ الْبَاعْ وَيَاالله يامَوْلَايْ فِيكْ اسْتَعزّيتْ

الذِّيَبْ رِزْقُهْ فِى مَبادِيَةَ الارْواعْ وَأَنَا بِرِزْقى فِى زَمانى تَعَنَّيتْ

وأَنا مِرَبَّى مِنْ زَمانِى ومِطْوَاعْ ربَّتَنىَ الأَيَّامْ حَتَّى تَرَبَّيتْ

ومن شعرائهم زيد بن هويشل العصيمى . من قبيلة العصمة . مات سنة ١٣٢٠ ﻫ شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وهو غير ذى شهرة فى شعراء البادية . ولكن فيهم من يراه على أبواب النبوغ . وقد تقدم شىء من شعره .

وممن عرف بنظم الحمينى فى أيام صباه الشريف عبد الله بن محمد بن هزاع ، أحد أعضاء مجلس الشيوخ بمكة اليوم . وقدسبق ايراد شىء من نظمه .

ومنهم عابد بن فهيد من قبيلة ناصرة . وعيضة بن مستورمن ناصرة أيضاً . وبنية المولد من موالى بنى سعد . وعطية وجاد اللهمن بنى سعد . وعبد الله بن سفرة الطويرقى .

ومن المشهورين فيهم « العبد » واسمه سليم ، راعى الأفلاج ، وهى على مقربة من الحسا ، كان يلى بها وكالة الزكاة للحكومة. ويكثر أبناءتهامة والحجاز من حفظ مجالسيات « الهزانى » وهو شاعر مشهور من قبيلة هزان فى أطراف نجد (١) .

(١) الهزازنة أمراء الحريق وتقع جنوب شرقى الرياض وقد جمع سيدى الوالد أشعار المئين من قائلى الشعر الحمينى النبطى فى كتابه المشهور الازهار النادية من أشعار البادية وقد شمل الكتاب المذكور من عددهم المؤلف ومن لم يذكرهم وطبع هذه الاشعار جميعها فى ستة عشر جزءا جاء الجزء الثانى عشر منها خاص بشعر شاعر الحريق محسن الهزانى وبشعر شاعر الاحساء سليم بن عبد الحى ويعد هذا الكتاب أكبر موسوعة شعرية فى الشعر (الملحون) الحمينى .

شعر الملك :

ويحسن بى أن أختم هذا البحث ، بإثبات قصيدتين من الحمينى ، لجلالة الملك حسين . إحداهما قالها لما أوعزت إليه حكومة الاستانة بمغادرة مكة سنة ١٣٠٩ هـ وهى :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ بَهْ هَوَاجِيْسْ وافْكَارْ ... وَامْسَى يِكَايِلْهَا بِصَاعٍ وَمُدَّا
عَذَّرْ ولَا عَذَّرْ وَلَا جَاتهَا ازْمَارْ ... مِثْلَ الغِرِيقَ الَّلى بِحَبْلَهْ تَجَدَّا(١)
نِجْلِى ولَا نَرْضَى الهُوينَا وَلَا الْعَارْ ... ونِجُوزْ عَنْ ماهاولَوْكَانْ شُهْدَا(٢)
وَعَلَى نَوَالِ العِزْ نَسْخى بِلَعْمَارْ ... وفيمانَنا المَصْقُولْ لطَّامٌ لِعْدَا(٣)
مَا عَزَّلُونا مِنْهْ بِمْجَارْ وِمْجَارْ ... مَعْزُوزَةٍ مَحْدًا عَليها تَعَدَّى(٤)
يوْم انُّو بعْضَ النَّاسْ قَدْعُزِّلٌ امْرَارْ ... وَامْسى يِعانى كُلّ هَمٍّ وَوُجْدَا(٥)

والثانية قوله قبيل رحلته إلى اليمن :

كَيفَ البُصُرْ يَالْ الحَسنْ وَالْ بَرَكَاتْ
نَزَّالَةَ المَشْرِقْ ومَنْ فِى تِهامَهْ(٦)

---

(١) عذر : الاولى بمعنى ترك ، والثانية بمعنى انه لم يترك مجالا للمعذرة . جاتها جاءتها . ازمار : أخبار . تجدا : تعلق .

(٢) الهوينا : الهوان . ماها : ماؤها .

(٣) بالعمار : بالاعمار . وفيما ننا : وفى أيماننا . لعدا : الاعداء .

(٤) عزلونا : اخرجونا : بمجار . الاولى من الجور والظلم ، والثانية من الاجارة والحماية . محداً : لا أحد .

(٥) انو : انه . عزل : بضم أوله : انتقل مكرها وانظر كتاب الأزهار النادية فى اشعار الباديه الجزء الأول نشر مكتبة المعارف بالطائف .

(٦) البصر : بضم أوله وثانيه : الرأى .

نَسْمَعْ طَوارِيكُمْ تَسِوُّونْ خِيرَاتْ ... ومَنْ لَا مَشَى تَغْشَاهْ مِنَّامَلامَهْ (١)

وانْ جَامِنَ المُقْدُوْرِكَمْ جَاوكُمْ فَاتْ ... وَالعُمْرْ لَهْ فِى اللَّوحْ خَطّْ وَعَلَامَهْ

نِنْصَى أَعِادِينا عَلَى كيفْ مَاجَاتْ ... وَالموتْ دُونَ العزّ مابَهْ نَدَامَهْ (٢)

(١) طواريكم : اخبار كم . خيرات : بكسر أوله : استخارات .

(٢) ننصى : نقصد . ماجات : ماجاءت . ويلفظون « به » فى شعرهم بضم الباء وسكون الهاء وكذلك « له » وانظر هذه القصيدة ورد شرف بن راجح وعبد الله بن هزاع عليها فى الجزء الأول من كتاب الأزهار النادية فى أشعار البادية نشر مكتبة المعارف بالطائف .

من مكة

الى هليوبوليس

يوم الأربعاء ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٣٩ — ١٩ كانون الثانى سنة ١٩٢١ كنت ويوسف ياسين على أهبة السفر ، فدخلنا على جلالة الملك فودعناه ، وأفضى إلينا ببعض ما تحدثه به نفسه ، ثم ختم كلامه ببيت القائل :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لاتلاقيا !

فقبلنا يده ، وانصرفنا من حضرته داعين له بطول البقاء . وبرحنا مكة عصر النهار يصحبنا « بواردى » وهو عبد راكب يحمل بندقية ، ورأيت رجلا من البدو حاملا بندقيته على عاتقه ، وشيئاً ملفوفاً بمنديل على رأسه أظنه طعاماً ، يعدو أمامنا مستمراً ، فسألت رفيقنا « البواردى » عن شأنه فقال : هو دركى من عسكر سيدنا . ولم ألبث أن رأيته بعد ساعة من مسيره قد وقف بعيداً ، وصاح صيحتين عاليتين قائلا : عن أمر سيدنا ، بالنهار واحد ، والياهود الليل ، يأخذون ثلاثه . . وغاب عنا فلم نمض خطوات حتى طلع آخر . ومررنا بموضع يسمونه «المرقد» تبتدىء فيه تلال رملية يرقشها الهواء وتتنقل مع الرياح ، رافقتنا إلى أن بلغنا « الشميسى» وقد أقبل الليل ، فنزلنا بها . وهى متنزه حسن فى تلك الصحراء فصلينا المغرب بعد أن كنا صلينا العصر فى قهوة قبلها يسمونها « قهوة سالم » .

وبعد ساعتين ونصف من مغادرتنا الشميسى بلغنا « بحرة » وهى مقاه (قهاوى) متصلة وفيها بضعة بيوت . وقد رافقنا إليها فتى عتيبى من الدرك العربى لايزيد عمره عن خمس عشرة سنة فأراد العبد فوزان (رفيقنا) أن يعبث به فناداه : ياورع ! (أي ياغلام) وأنت ما تصنع فى هذا البر ؟ فقال : — وهو يعدو أمامنا — أنا الورع والله باثنين من حرب !

وحرب قبيلة كبيرة منازلها بين الحرمين ، ومنها كثيرون فى درك مكة ، رافقنا بعضهم أيضاً .

وسألت الفتى : تجرى ياعتيبي ؟ (وأكثر من فى بادية الحجاز يقولون جرى ولم أسمع منهم ركض) فقال العتيبي : إى بالله أعدى ! — فعرفت أن عتيبة أو بعض بطونها يقولون : عدا —

وفى عتيبة ذكاء مفرط وشجاعة خارقة . وفيها من يقلب القاف جيماً فيقولون « الصدج » بدلا من الصدق .

وبتنا فى « بحرة » على كرسى مستطيل تظللنا السماء واللحاف ، وقد وضعت خرجي وأمتعتى قريبة منى ، وقيدتها من أسفلها بخيط ثخين عقدت طرفه على مرفقى وسترته باللحاف حتى إذا طرقنا سارق وأراد استلابنا شيئاً شعرت به ، وكنت كثيراً ما أصنع هذا فى القفر .

ونهضنا قبيل طلوع الشمس ، فصلينا الصبح وسرنا ، فبلغنا مكاناً (وهم يقولون وصلة) يدعى « حصاة أم البومة » رأينا منه البحر ، بعد مسيرة ساعتين ونصف من « بحرة » ثم انتهينا إلى قهوة « الرغامة » فمكثنا بها قليلا واتجهنا نحو « جدة » وقد لاحت لنا منازلها والشمس تلذع رؤوسنا ، فبلغناها قبيل الظهر نركب تارة ونمشى حيناً ، وللتعب وحر الشمس فى أجسامنا أو فى نصيب .

بتنا هذه الليلة فى جدة ، ونهضنا فى الصباح فذهبنا إلى موظف الجوازات (الباسبورتات) ومعنا أمر مطاع من صاحب الجلالة يوجب إعطاءنا جوازين هاشمين حجازين ، فلبى الموظف الأمر ، ونادى كاتباً عنده أملى عليه صفاتنا (لأن الصور غير إجبارية هناك) وانتهى إلى لحيتى ، فقال للمستملى : أكتب : حليق فتردد الكاتب . . وقال : بلحية ياسيدى . فأدار الموظف وجهه وقال متأففاً : يحلقها فى الباخرة يا ابنى ! . . فضحكنا ، وتناولنا جوازينا فبعثنا بهما إلى المعتمد البريطانى ليمضيهما ، وهناك العقدة . .

اضطرب الهاتف (التليفون) فى دائرة مدير الرسومات ونحن عنده ، وقد أرسلنا الجوازين مع أحد رجاله ، فأخذ السماعة وهو يقول : خير ؟ — بدلا من كلمة «آلو» التى لم اسمعها فى الحجاز قط — فإذا ترجمان المعتمد يسأله عنى : أليس الذى جاء من مصر بغير جواز؟ فسئلت ، فقلت بلى ؟

فقال : لينتظر الباخرة الثانية ؟ . . — ومن أصعب الأمور على المتهيىء للسفر أن يقال له رويدك ! —

فأعاد عليه مدير الرسومات السؤال عن السبب ، فأجاب بأن المعتمد يريد أن يستأذن حكومة مصر . .

وهنا لم يسعنى إلا أن طلبت مركز (سنترال) مكة وخاطبت الأمير زيد بالأمر ، وكان فى مخلوان صاحب الجلالة ، فتناول جلالته الهاتف وطلب المعتمد الانجليزى بجدة ، فأجابه ، وتداولا حديثاً عرفت بعد ذلك أن جلالته أخبره فيه بأننى موظف فى الديوان الهاشمى وإننى مرسل فى أمر رسمى وأن عليه تبعة تأخيرى . .

وبعد أخذ ورد وإرخاء وشد ؟ ، أفتى المعتمد بجواز الجواز ، وأصحبنى بكتاب إلى موظف الجوازات فى السويس يزعم أنه يوصيه بى خيراً . ولكنى طويت الكتاب ولم أدر ما فيه لجهلى بالانجليزية ، ولم أر فى الباخرة من آمنه على قراءته فخفت أن يكون صحيفة المتلمّس ، فأخفيته فى حقيبتى .

ركبنا الباخرة « دقهلية » صباح السبت ٢٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٢١ — ١٣ جمادى الأولى ١٣٣٩ وكانت ليلة الأحد شديدة الرياح ابتدأت العواصف عند منتصفها . وبلغنا « ينبع البحر » ضحى الأحد ، فمكثنا خمس ساعات نزلنا فى خلالها إلى هذه البلدة بل القرية ، واخترقنا سوقها الضيقة المستطيلة ، وراعنا ما فيها من تكاثف الذباب كالضباب ! .

وجرت بنا « الدقهلية » عصر النهار ، والرياح تميل بها يمنة ويسرة ، وهناك شعرنا بالبرد الذى فارقناه منذ رافقتنا اللحية ، ورافقناه حين فارقناها !

ولم تهدأ العواصف قبل طلوع صباح الثلاثاء ، وقد أرست بنا السفينة فى ميناء الطور ، التى أبحرنا منها بعد وقوف ساعة ونصف ، واليم هادىء . وأصبحنا يوم الأربعاء ٢٦ يناير ، والخدام ينادوننا : السويس ، السويس . فنهضنا إلى ملابسنا ونحن نقول معهم : السويس . السويس !

ونزلنا بعد هنيهة ، فشرح موظف الجوازات على جوازينا ، وأردنا الانصراف فإذا بإنسان يقودنا أو يرافقنا ، رابنا أمره ، فسألته عن شأنه فأجاب — والتبجح ملء شدقيه — مأمور بإيصالكما إلى القطار . . فازددنا ريبة ، وبلغنا المحطة وقد بقى لموعد السفر نحو ساعة ، فوقفنا وصاحبنا ملازم لنا لايفارقنا ، فأعدنا عليه السؤال قائلين : ها قد قمت بما أنت مأمور به ؟ فهل من حاجة لك ؟ قال : نعم ؟ الأمر يقضى بأن لا أدعكما حتى تركبا القطار وتسافرا أمامى . . فلم يداخلنا شك فى أنه « بوليس سرى » ولكنا أردنا أن نتثبت ، فسألناه عمن أوحى إليه . . فقال : لا يعنيكما ؟ قلنا : أأنت موظف فى الحكومة ؟ فقال : نعم ؟ وها هى شارتى . . وأرانا جانباً من قطعة بيضاء مكتوبة قد أخفاها فى باطن معطفه ولم يسمح لنا بقراءة ما فيها . .

صبرنا على حكم القضاء . وقد أردنا أن نبرح المحطة قليلا لشراء حاجات فحاول أن يمنعنا ، بل منعنا بكل عنف ، فخضعنا لإرادته ، ثم دخلنا إحدى عربات القطار الواقف وانسللنا من جانبها الآخر ، وكم كان سرورنا عظيماً حين شعرنا بلذة الانفلات والانطلاق والحرية . . فتجولنا قليلا وعدنا فركبنا وصاحبنا يبحث عنا ، فرآنا والقطار على أهبة السير فقفز نحونا متعلقاً بالقطار ، وهو يقول : أين كنتما ؟ لقد أتعبتمانى . . قلنا : ها نحن مسافران فأعلم من أرسلك . . فقال : وأجرتى؟ قلنا : على أى شىء ؟ قال : على مرافقتى لكما ساعتين ؟ . . وهنا غلب علينا الضحك . فدعونا شرطياً قريباً منا — كنا نخشى أن نكلمه قبل ذلك — فحدثناه بخلاصة الواقعة فقبض عليه . ومشى القطار بغتة فلم نعلم ماذا حدث .

وبعد خمس ساعات وعشرين دقيقة كنا فى القاهرة . فركبنا سيارة حملتنا إلى مصر الجديدة « هليوبوليس » حيث كان بعض أصحابنا . وأقبل علينا من نعرف يهنئوننا بالسلامة ؟

خير الدين الزركلى

فهرس كتاب « ما رأيت وما سمعت » لخير الدين الزركلي .

تنبيه : ما كان من مقدمة أو تعليق بقلم عبد الرزاق كمال رمزنا له بحرف التاء (ت) وما كان لمؤلف الرحلة فهو بدون رمز .

صفحة

خير الدين الزركلي حياته (ت) ٣ — ٥
أهم آثاره كتاب الاعلام (ت) ٦
أبرز معالم كتاب الاعلام (ت) ٦
منهجه فى الاعلام (ت) ٨
ديوانه المطبوع والأغلاط الواردة فيه (ت) ٩
شعره (ت) ١٠
مع الزركلى فى رحلته (مارأيت وما سمعت) (ت) ١٥
مقدمة الرحلة : الحرب العالمية الأولى (ت) ١٩
إنقسام أوروبا فى الحرب إلى معسكرين (ت) ٢١
تأسيس جمعية الاتحاد والترقى (ت) ٢٢
خلع السلطان عبد الحميد (ت) ٢٥
إعلان الحسين الثورة وسببها (ت) ٢٧
نتيجة الحرب العامة (ت) ٣٠
سياسة فيصل بن الحسين فى الشام (ت) ٣١
إحتلال فرنسا للشام (ت) ٣٣
من دمشق إلى مكة . ٣٥
وصول المؤلف إلى القاهرة . ٤٦
أسماء من شملهم حكم الإعدام فى دمشق ٤٧
دعوة الملك حسين للمؤلف . ٥١
وصول المؤلف إلى جدة . ٥٤

الطريق بين مكة وجدة (ت) ٥٥
الفنادق بمكة (ت) ٥٥
الوصول إلى مكة ووصف الحرم والقصر ٥٦
الموافقة على زيارة الطائف ٦٠
بين مكة والطائف ٦١
وصف غار حراء . ٦٢
وصف منى . ٦٢
الرد على بعض الشعراء (ت) ٦٤
عرفة : وصفها . ٦٥
عين زبيدة : من تاريخها . ٦٦
نعمان وكبكب ٦٩
الكر . ٧١
جبل كرى : من طرق الطائف إلى مكة (ت) ٧٣
كرى : وماقيل من الشعر فيه (ت) ٧٤
الهدى وقراها وقبائلها (ت) ٧٥
وادى المحرم . ٧٧
الأمن بالحجاز (ت) ٧٩
الطائف ومؤرخوه . ٨٠
سبب تسميته وفتحه . ٨٦
زيارات الآثار الغير مشروعة (ت) ٨٨
حصار الأتراك وخروجهم . ٨٨
روايات المعمرين من المشاهدين (ت) . ٩١
آثار الطائف : المساجد ، المقابر ، الأنصاب . ٩٢
المملكة السعودية وعمارتها المسجد العباسى (ت) ٩٣
الأصنام : وصفها وتاريخها . ٩٩
حديث موضوع ومكذوب (ت) ١٠٠

أعلام الطائف وشهداؤه .	١٠٢
المختار الثقفى ودعوته (ت)	١١٢
سور الطائف ، حاراته ، مدارسه ، أدباؤه .	١١٣
مدارس البنين والبنات فى العهد السعودى الزاهر (ت)	١١٦ —١١٨
الأدباء والأندية الأدبية (ت)	١٢٠
الطرق الموصلة من الطائف إلى مكة (ت)	١٢١
عكاظ فى رأى الأقدمين .	١٢٢
عكاظ وتحقيق موضعه (ت)	١٢٣
تقرير البعثة الزراعية .	١٢٤
القرى والجبال والأودية والمواضع .	١٢٩
الحبزة ، على وزن : عتبة (ت)	١٣٣
بئر حوايا وبئر عجلان (ت)	١٣٨
بعض الحكايات الغريبة (ت)	١٤٤
الحجاج وموضع مولده (ت)	١٤٤
قبائل الطائف : شبابه وخندف	١٤٧
التنبيه على بعض الوهم وبيان بطون ثقيف (ت)	١٤٧
قبيلة قريش وأقسامها (ت)	١٥٠
قبيلة عتيبة وأقسامها (ت)	١٥١
قبيلة الطلوح من هذيل وأقسامها (ت)	١٥١
الرحلة الحجازية ونقدها .	١٥٣
المقامات الأربعة : بدعة وضعها (ت)	١٥٧
الأوبة : أيام فى الطائف .	١٥٩
الأمن فى الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز (ت)	١٦١
فى ضيافة الملك ، وصف القصر والمخلوان .	١٦٢
المطبخ والسجن .	١٦٤
ترجمة الملك حسين وحياته .	١٦٥

من رسائل (مكماهون) إلى الحسين .	١٦٨
القوة النظامية والبدوية	١٨٨
من شعر المؤلف أمام الحسين .	١٩١
جولة فى البادية ، وغرائب من عاداتهم .	١٩٢
الحلف بغير الله شرك وممنوع شرعا (ت)	١٩٩
من شجعانهم .	٢٠٢
قضاة عتيبة وثقيف .	٢٠٧
الشعر فى المحاكمة .	٢٠٨
المشاريع العظيمة فى العهد السعودى الزاهر (ت)	٢١١—٢١٤
البادية : أدبها وشعرها	٢٢١
من شعر الوقدانى .	٢٢٤
من شعر الوديود .	٢٢٦
من الأحاجى والألغاز .	٢٢٧
الرواية وطرائق النقل .	٢٢٩
الشعر الحمينى : لغته وأمثلة منها .	٢٣٢
أوزان الحمينى .	٢٣٣
الحضر والبدو : التمييز بين شعريهما .	٢٣٥
الردح : صفة إنشاده .	٢٤١
اختلاف الأساليب .	٢٤٢
الشعر الحمينى : تداوله وحفظه .	٢٤٤
شعراء البادية .	٢٤٥
تكملة أبيات لحامد بن عبد الله بن راجح العبدلى (ت)	٢٤٦—٢٤٧
من شعر الحسين بن على .	٢٥١
الوداع : من مكة إلى هليوبوليس .	٢٥٣

المكتبة الكماليه : صدر منها حتى الآن :

١ – متن عمدة الأَحكام لابن دقيق العيد .

٢ – متن عمدة الفقه للمقدسى .

٣ – متن زاد المستقنع للشيخ شرف الدين أَبى النجا .

٤ – شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم

٥ – الازهار النادية من أَشعار البادية صدرت حتى الآن فى ١٦ جزءًا .

٦ – الشجرة ذات السياج الشوكى « ديوان المرحوم عمر عرب » وما قيل فيه .

٧ – الأَحاجى والأَلغاز الأَدبية تـأَليف الشيخ عبد الحى كمال .

٨ – حروف المعانى تـأَليف الشيخ عبد الحى كمال .

٩ – الفكاهة والمجون فى الوطن العربى جزآن تـأَليف الأَستاذ حسين كمال

١٠ – الحساب : أَصوله وقواعده تـأَليف لجنة من مدرسى الرياضة

١١ – المشرع من المجمع أَو تهذيب مجمع الأَمثال للميدانى تـأَليف الشيخ أَحمد فهمى المحامى الشرعى بالجيزة .

١٢ – كتاب الأَمالى لجميع قواعد الإِملاء والكتابة تـأَليف محمد سعيد حسن كمال .

١٣ – الإِنشاء فى المراسلات والوثائق تـأَليف محمد سعيد حسن كمال .

١٤ ـ استشهاد الحسين للحافظ ابن كثير ويليه رأس الحسين لشيخ الإسلام بن تيميه .

١٥ ـ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون لابن الديبع .

١٦ ـ بلوغ المرام للحافظ ابن حجر .

١٧ ـ رياض الصالحين للإمام النووى .

١٨ ـ أهم الأحكام مجموعة تحوى منسك شيخ الإسلام ابن تيميه ومنسك ابن الأمير الصنعانى وقصيدة فى الحج وبركاته .

١٩ ـ مسائل الجاهلية وشرحها للألوسى .

٢٠ ـ الإسراء والمعراج لابن هشام صاحب السيرة وشرحها للسهيلى مع استدراكات عليها وتحقيقات لبعض المحققين .

٢١ ـ الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف للأمير شكيب ارسلان .

٢٢ ـ الدخينة فى نظر طبيب للدكتور دانيال . ه . كرس . مذيلا ببحث شامل عن أهم الكتب الإسلامية فى التدخين بقلم محمد سعيد حسن كمال .

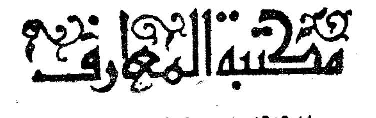
٢٣ ـ ما رأيت وما سمعت : للأستاذ خير الدين الزركلى ـ رحمه الله ـ

٢٤ ـ إيقاظ همم أولى الأبصار فى الاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار للشيخ صالح الفلانى ـ رحمه الله ـ

٢٥ ـ أبطال من الصحراء : وهى تمثل أروع قصص البطولة والكرم والشجاعة فى جزيرتنا العربية بقلم الأمير محمد بن أحمد السديرى .

٢٦ ـ مجموعة قيمة نادرة فى مجلد كبير تحوى : لامية العرب للشنفرى . وشرحها للزمخشرى . والمقصورة الدريدية . لابن دريد مع شرحها له . وقصيدة المقصور والممدود المنسوبه لابن دريد . وديوان العلامة الكبير الشيخ ابن الوردى مع رسائله . وديوان السيد الشريف أبى الحسن اسماعيل ابن سعد الحسينى المعروف بابن الخشاب وهى الموسومة بـ « مجموعة الرسائل الكمالية رقم ١١ » .

الناشر



الطائف ـ شارع الكمال
ت : ٢٢٣١٤ ـ ٢٣٣٩٠

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠